الجمال فى القرآن الكريم

(مفهومه ومجالاته)



أ.د. / عبد الجواد محمد المحص

الجمال

في القرآن الكريم

(مفهومه ومجالاته)

دراسة

للأستاذ الدكتور

عبد الجواد محمد المحص

أستاذ الأدب الإسلامى والدراسات النقدية

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

وعضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية

١٤٢٦هـ-/٢٠٠٥م



تقديم

الحمد ، والصلاة والسـلام علـى رسـول ا وآلـه وأصحابه والتابعين.

أما بعد:-

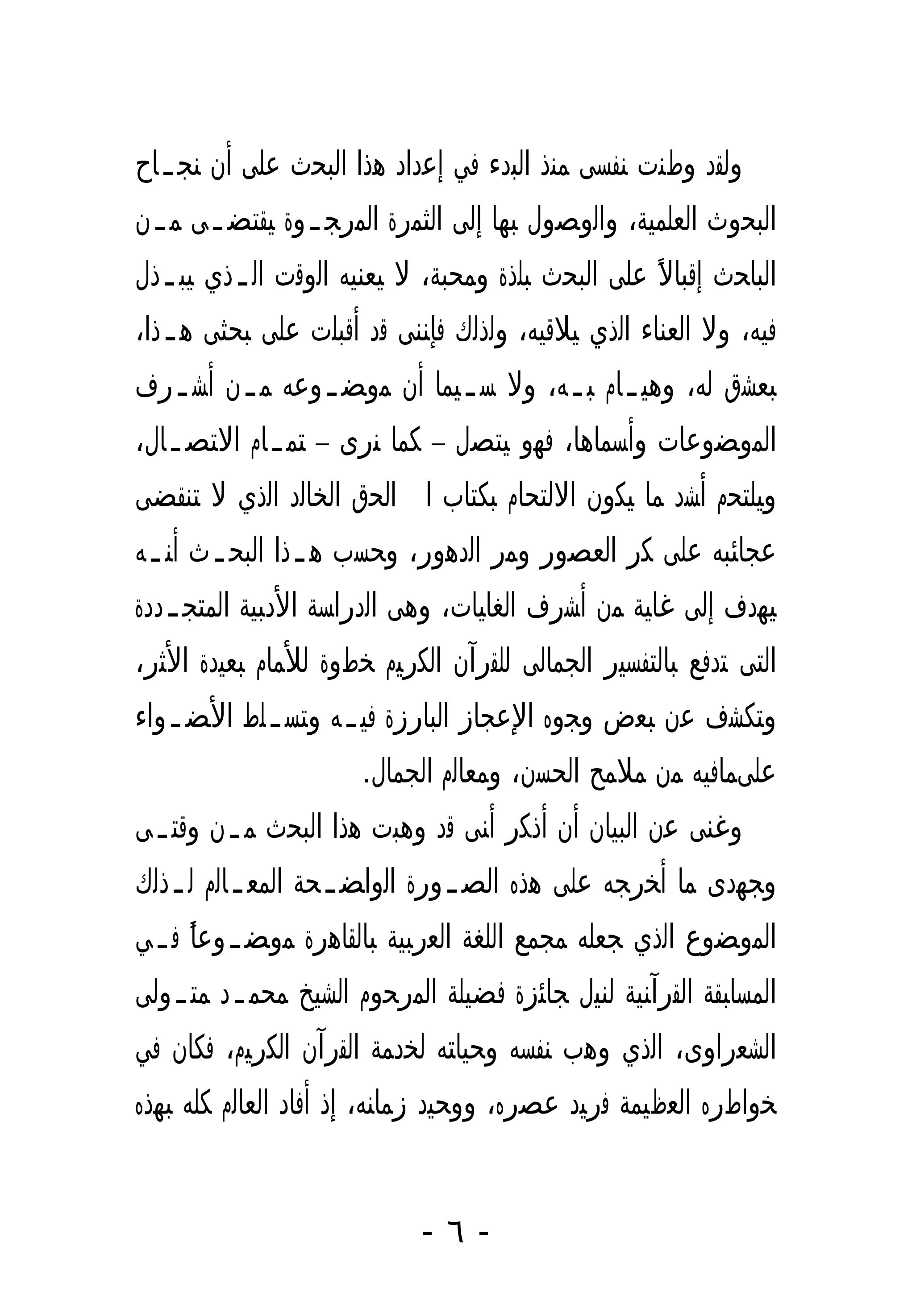
فإن القرآن الكريم هو كلام ا الحق الخالد الذي أحكمـت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.وهو معجزة ا الكلامية التى تحدى بها فحول البلاغة وأساطين البيان، فعجزوا عـن الإتيان بمثل أقصر سورة فيه، وخـروا لجمالـه وجلالـه، وإعجازه وكماله ساجدين.وعلى الـرغم مـن أن المقصـود الأساسى من نزوله: أن يكون هداية للبشرية، ومنهج تشريع للأمة، فإنه لا يعد كتـاب ديـن ودعـوة فحسـب، وإنمـا هو–أيضاً-كتاب أدب وبيان، بل إنه لأبلغ كتاب عرفته الدنيا في عالم الأدب وميدان البيان، وقد وصفه فضيلة المرحـوم الشيخ أمين الخولى بأنه **(كتاب العربية الأكبر،وأثرها الأدبـى الأعظم، الـذي أخلـد العربيـة، وحمـى كيانهـا، فصـار فخرها،وزينة تراثها)**[1]، ومما لا شـك فيـه: أن الإعجـاز

(١) مناهج تجديد الشيخ أمين الخولى-الطبعة الأولى.

القرآنى مهما تعددت البحوث والآراء والأفكار في محاولـة فهمه وتحديده فليس من المتوقع، ولا من المظنون، التوصـل منه إلى كل شئ، بل سيبقى سر إعجاز القرآن الكريم محاطاً بما يشبه الهالة القوية الكثيفة التى إن كشفت عن كل الحجم، فلن تكشف عن كل الجوهر والحقيقة، فسيبقى هـذا السـؤال قائماً: ثم ماذا؟ وذلك من باب قولهم: **(إذا عرف السبب بطل العجب)**، ولو استنزفنا كل ما في إعجاز القرآن من أسـرار لذهب أهم ما يحمله أسلوبه من بهاء وجلال.

وإذن، فسيبقى إعجاز القرآن الكريم منهلاً لا يغيض لكـل باحث فيه، وكل مغترف منه.

وما موضوع **(الجمال في القرآن الكريم: مفهومه ومجالاته)** إلا محاولة منى لاستكشاف احتفاء القرآن الكريم بالجمال، وروعة القيم الجمالية في كلماته وعباراته وأسلوبه ونظمه المعجز البديع، وآمـل ألا يعود القارئ من هذه المحاولة صفر اليدين، كما آمل أن تكـون هذه المحاولة حلقة في سلسلة تلك البحوث والدراسات التى يجتهـد أصحابها في دراسة الأدب القرآنى، للكشف عـن جمـال أسـلوبه، وروعة تصويره، وسحر بيانه، وقوة تأثيره، وكمال إعجازه.



ولقد وطنت نفسى منذ البدء في إعداد هذا البحث على أن نجـاح البحوث العلمية، والوصول بها إلى الثمرة المرجـوة يقتضـى مـن الباحث إقبالاً على البحث بلذة ومحبة، لا يعنيه الوقت الـذي يبـذل فيه، ولا العناء الذي يلاقيه، ولذلك فإننى قد أقبلت على بحثى هـذا، بعشق له، وهيـام بـه، ولا سـيما أن موضـوعه مـن أشـرف الموضوعات وأسماها، فهو يتصل – كما نرى – تمـام الاتصـال، ويلتحم أشد ما يكون الالتحام بكتاب ا   الحق الخالد الذي لا تنقضى عجائبه على كر العصور ومر الدهور، وحسب هـذا البحـث أنـه يهدف إلى غاية من أشرف الغايات، وهى الدراسة الأدبية المتجـددة التى تدفع بالتفسير الجمالى للقرآن الكريم خطوة للأمام بعيدة الأثر، وتكشف عن بعض وجوه الإعجاز البارزة فيـه وتسـلط الأضـواء علىمافيه من ملامح الحسن، ومعالم الجمال.

وغنى عن البيان أن أذكر أنى قد وهبت هذا البحث مـن وقتـى وجهدى ما أخرجه على هذه الصـورة الواضـحة المعـالم لـذلك الموضوع الذي جعله مجمع اللغة العربية بالقاهرة موضـوعاً فـي المسابقة القرآنية لنيل جائزة فضيلة المرحوم الشيخ محمـد متـولى الشعراوى، الذي وهب نفسه وحياته لخدمة القرآن الكريم، فكان في خواطره العظيمة فريد عصره، ووحيد زمانه، إذ أفاد العالم كله بهذه

الخواطر، وأسس مدرسة جديدة في فهم القرآن، وكان بحـق رائـداً عظيماً من رواد التجديد الدينى الذي يبعث ا الواحد مـنهم علـى رأس كل مائة سنة، ليجدد للأمة الإسلامية دينها، فجـزاه ا عمـا أسدى لها من عطاء وعلم وفقه وتفسير خير الجزاء.

ويطيب لى في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الثناء وخالص الشـكر إلى العلماء الأجلاء شيوخ العربية، وفحول البيان، القائمين على أمر مجمع اللغة العربية، يتقدمهم المرحـوم الأسـتاذ الـدكتور شـوقى ضيف: الذي فجعت وفجعنا جميعاً برحيله إلى الدار الآخرة، أثنـاء إعداد هذا البحث...تغمده ا بواسع رحمته، وأسكنه في الفـردوس من جنات النعيم...لقد أتاح لى العلماء الأجلاء المشار إليهم فرصـة السير في طريق ممتدة فواحة في رحاب القـرآن الكـريم وقيمـه الجمالية العظيمة، وإنها – بدون شك – لطريق لن ينتهى السير فيها، ما دامت هناك عقول تفكر، وأقلام تسطر.

أما عن محتوى هذا البحث فبيانه كالتالى:

مُقَدِّمَة

تمهيد: لغة جميلة وقرآن معجز

القسم الأول :-

الجمال واحتفاء القرآن الكريم به

ويحتوى على المباحث التالية:

- الدلالة اللغوية للفظتى الجمال والحسن.
- الجمال عند الفلاسفة، والجمال عند الأدباء والنقاد، والتعريف القرآنى للجمال.
- احتفاء القرآن الكريم بالجمال.

القسم الثانى:-

جمال الأسلوب القرآنى

وقد تناولت فيه مايلى:-

- المفهوم الدقيق لجمال الأسلوب القرآنى.
- فصاحة اللفظة القرآنية.
- جمال وقع المفردة القرآنية في السمع.
- الدقة الفائقة في اختيار المفردة القرآنية.
- الإيحاءات الرائعة للمفردة القرآنية.

- روعة تجسيد المفردة القرآنية لمعناها.
- مطابقة اللفظ القرآنى للمقام الذي يرد فيه.
- وضع الألفاظ الموضع اللائق بها بحسب ما يقتضى الحال.
- الجملة القرآنية **(رؤية جمالية)**.

الخصائص العامة للأسلوب القرآنى ومزاياه:-

١- التعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة.

٢- خطاب العامة والخاصة.

٣- جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

٤- إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

٥- فعالية المعجزة القرآنية وحيويتها.

٦- الجمع بين صفتى الجزالة والرقة.

٧- ائتلاف اللفظ مع المعنى.

٨- النظام الصوتى المعجز في القرآن الكريم.

٩- جمال الانتقال وحسن التخلص في القرآن الكريم.

١٠- تجسيد الصفة للموصوف أو جمال الوصف القرآنى.

١١- روعة الإجمال بعد التفصيل في القرآن الكريم.

١٢- حسن التأدب في الخطاب القرآنى.

١٣- روعة الأساليب البلاغية في النظم القرآنى(دراسة مجملة).

القسم الثالث:-

روعة القصص القرآنى:-(وقفة خاصة)

وقد فصلت فيه القول عما يلى:-

- الجمال والجلال والكمال في القصص القرآنى.
- الطابع المتفرد لجمال يوسف وسورته في القرآن الكريم.

هذه هى الصورة العامة للبحث، وقد صدرته بهذه المقدمة، واختتمته بخاتمة تعطى قارئه فكرة عامة عن موضوعه، وتفصح عن أبرز النتائج التى توصل إليها التأمل والتدبر للقيم الجمالية في كتاب ا عز وجل.ثم أتبعت ذلك بثبت المصادر والمراجع التى استقى منها البحث مادته العلمية،

ولم يفتنى أن يكون له **(فهرسـت)** سردت فيه محتواه، مشيراً إلى أرقام صفحات موضوعاته حتى يتيسر للقارئ الرجـوع إلى ما يطلبه.

وآمل أن يحظى البحث بالقبول لـدى القـراء الأعـزاء، وأدعو ا تبارك وتعالى أن ينفع به، ويبارك فيه، إنه سـميع قريب مجيب الدعاء.

وماتوفيقى إلا با عليه توكلت وإليه أنيب.

الاسكندرية في مساء الثلاثاء: ١٩ من صـفر ١٤٢٦هـ- الموافق ٢٩ من مارس ٢٠٠٥م

الباحث

أما قبل:-

فقد ورد في الحديث الصحيح لرسول ا صلى ا عليه وسلم:-

عن عبد ا بن مسعود رضى ا عنه عن الرسول صلى ا عليه وسلم أنه قال:**(إن ا تعالى جميل يحب الجمال)** رواه مسلم والترمذى.

وفي رواية أخرى:-

عن أبى سعيد الخدرى رضى ا عنه أن الرسول صلى ا عليه وسلم قال: **(إن ا جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس).**حديث صحيح أخرجه البيهقى في كتاب شعب الإيمان.

وفي رواية ثالثة:

عن جابر رضى ا عنه عن الرسول صلى ا عليه وسلم أنه قال: **(إن ا تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالى الأخلاق، ويكره سفسافها)**.

أخرجه الطبرانى في الأوسط.

الدلالة اللغوية للفظتى

(الجمال)و(الحسن)

مما أورده **(المعجم الوسيط)** في مـادة ج م لَ: جمـلَ – جمالاَ: حسن خَلْقُـه، وحسـن خُلُقـه.فهـو جميـل جمعـه جملاء.وهى جميلة جمعه جمائل.

وجم-لّه: حس-نه وزينه.ويقال في الـدعاء: جـم-ل ا عليك: جعلك ا جميلاً حسناً...**وتجمل:** مطاوع جمله وتكلف الحسن والجمال...والجمال **عند الفلاسفة:** صفة تُلْحـظ فـي الأشياء، وتبعث في النفس سروراً ورضا، وعلم الجمال: باب من أبواب الفلسفة يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته.

ومما أورده هذا المعجم في مادة **(حسـن)**: حسن حسـنا: جمل.فهو حسـن وهـى حسـناء جمعـه حسـان للمـذكر والمؤنث.وأحسن: فعل مـا هـو حسـن...وفـي التنزيـل: وصوركم فأحسن صوركم...وحسن الشـئ: جعلـه حسـناً وزينـه...والأحسـن: الأفضـل وفـي التنزيـل العزيـز:

﴿**الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحسنَه**﴾ [1]...والحسن: الجمال وكل مبهج مرغوب فيه...والحسنى: مؤنث الأحسن، وفي التنزيل **(و الأسماء الحسنى)**.

الجمال عند الفلاسفة

معلوم لنا جميعاً أن **(الجمال)** كان له حظ كبير من الحديث والبحث عند الفلاسفة وأصحاب المذهب الجمالى في الأدب والنقد، ويأتى الحديث عن الجمال عند الفلاسفة ضمن مبحث القيم ومشكلاته الذي يطلق عليه في اللغات الأوربية اسم **(الأك-سيولوجيا)**، ويتعرض لدراس-ة المثل العليا والكشف عن ماهيات القيم المطلقة التى يسعى الجميع لتحقيقها في حياتهم، والتى تمثل ثلاث قيم أساسية، لكل واحدة منها علم يدرس موضوعاتها، وهى:

1. **قيمة الحق: ويدرسها علم المنطق الذي يختص ببيان القواعد التى ينبغى على الفرد اتباعها لكى يكون تفكيره صحيحاً.**

---

(١) سورة الزمر آية ١٨.

2. **قيمة الخير: ويدرسها علم الأخلاق، وهو يختص أيضاً ببيان القواعد التى ينبغى على الفرد اتباعها لكى تتوافق أفعاله وسلوكه مع مبادئ الخير والأخلاق الطيبة.**
3. **قيمة الجمال: ويدرسها علم الجمال الذي يبحث في القواعد والمعايير التى يجب توافرها في أي عمل تطلق عليه صفة (الجمال).**

ولا يعنينا هنا بطبيعة الحال أن نتحدث عن الجمـال فـي مرآة الفلاسفة بأكثر من هذا، لأن موضوعنا هو **(الجمال في القرآن الكريم)**.

الجمال عند الأدباء والنقاد :-

عنى الأدباء والنقاد عناية فائقة بالجمال، ولا غرو فالأدب هو التعبير الفنى الجميل عن المشاعر والأحاسـيس، لـذلك عنوا بإبراز مقاييس الجمال الفنى في الأعمال الأدبيـة ومـا فيها من قيم. ولقد قرر الناقد الإغريقى **(لونجينوس)** في القرن الثالث الميلادى أن غاية الشعر جمالية، فهو لا يـدفع إلـى العواطف المذمومة كما قال أفلاطون، ولا يطهر النفس منها

كما قال أرسطو، إذ ليس له غايـة تربويـة أو أخلاقيـة أو نفسية؛ بل غايته التأثير في القارئ والسامع تأثيراً جمالياً.

وفي القرن التاسع عشر كثر البحث في الجمـال الفنـى وحقائقه ومعاييره وعناصره، وهل يكـون فـي المضـمون والمادة أو في الصورة والشكل.ونفهم من كلام النقاد والأدباء أن الأدب الجميل: هو العمل الفنى الـذي يبدعـه الأديـب، فيخلب به الأبصار، ويستهوى القلوب والأذهـان، ويحقـق المتعة الجمالية لدى متلقيه قارئاً أو سامعاً.ولقد كـان للنقـاد العرب القدامى رؤى متعددة حول الجمال في العمل الأدبى، وهل يرجع إلى اللفظ أو إلى المعنى أو إليهما معاً.

وكان من أبرزهم في هذا المجال الإمـام عبـد القـاهر الجرجانى الذي تتجلى لنا رؤيته الجمالية للقـرآن الكـريم، والإبداع الأدبى فـي كتابيـه **(أسـرار البلاغـة)** و**(دلائـل الإعجاز)،** وما ذهب إليه من أن اللفظة ليس لها فـي ذاتهـا صفة جمالية مستقرة، فقد تكون في موضـع جميلـة، وفـي موضع آخر قبيحة شديدة القبح، وإنما العبرة بالنظم وتركيب الكلام على الوضع الذي يقتضيه علم النحو مبنى ومعنى.

هذا وقد ظهر حديثاً إلى جانب الدراسات الأدبية المعروفة في أوربا علم جديد من ألوان الدراسة الأدبية يسـمى **(علـم الجمال الأدبى)**، ومن أبرز مباحـث هـذا العلـم: نظريـة **(الصياغة)** التى تذهب إلى أن الأديب يسعى لخلـق صـيغ جميلة لذاتها إشباعاً لحاسة الجمال في النفس.

حسبنا هذا القدر من الحديث عن الجمال في مرآة الأدباء والنقاد، ففيه دلالة على أن الجمال من الموضوعات البـارزة في الدرس الأدبى والنقد الفنى.

التعريف
القرآنى للجمال

ليس من العجيب ولا من الغريب أن نبحث عن تعريـف القرآن الكريم للجمال، ولا سيما أن لفظة **(الجمـال)** ولفظـة **(الحسن)** ولفظة **(الزينة)** ولفظة **(الزخرف)** ولفظة **(الجميل)** قد وردت جميعها فيه.وهى مفردات عربيـة لهـا دلالاتهـا اللغوية في المعاجم العربية، ومراداتها القرآنية في كتاب ا عز وجل.ذلك الكتاب الذي نعته منزلـه جـل شـأنه بأنـه **(أحسن الحديث)،** والذي يمثل – بحق – ذروة الجمال، وقمة الحسن في عالم البيان؛ بل إنه يبدو متفرداً بحسـنه، متميـزاً بجماله وجلاله وكماله ونظمه الحسن البديع.وسيظل القـرآن الكريم نسيج وحده في روعة الجمال وقوة التأثير.

يسمع الناس الشعر أو النثر الجميل فيروقهم، ويسـمعون الغناء فيطربهم، ويسمعون الموسيقى فتبهرهم وتثيرهم، ولكن إذا تكرر الشئ من هذا على أسماعهم سئموه وعافته نفوسهم.

ولكنهم يسمعون القرآن الكريم فيستزيدون منه، وتهتز لسحره أعطافهم، ولا يصدهم عنه أن يتكرر عليهم حيناً بعد حين.

ولقد كان لروعته البيانية وحسنه الأخاذ وجماله الفائق أثر بالغ في نفوس من كفروا به، حتى قال قائلهم: وما هو بقول البشر ... وقد سمعه الجن فقالوا: **(إنا سمعنا قرآناً عجباً)**.

فهل يعقل بعد هذا ألا يتحدث القرآن الجميل عن الجمال؟! وهل يعقل أن يفتقد الباحث تعريفاً للجمال في هذا الكتاب الجميل؟!.

في القرآن الكريم آيات كثيرة تجيب على هذا السؤال، مثل قوله تعالى:﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين**﴾[1]،وقوله تعالى – في وصف البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها: ﴿**إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾ [2]،وقوله تعالى – في وصف الحدائق بأنها- ﴿**ذات بهجة**﴾[3].وقوله تعالى:﴿**وترى الأرض هامدة فإذا**

---

(١) سورة الحجر آية ١٦.

(٢) سورة البقرة آية ٦٩.

(٣) سورة النمل آية ٦٠.

َأنزلْنَا علَيها الْماء اهتَزتْ وربـتْ وَأنْبتَـتْ مِـن كُـل زوجٍ بهيجٍ﴾[1] وغير ذلك من الآيات التى ترى فيها ذكر الجمـال، والبهجة، والزينة التى تسر الناظرين.وكلهـا آيـات توجـه الأنظار إلى الجمال في إبداع الكون، لنقدره قدره، ونتأسـى به، وندرك أن الدنيا يتجلى فيها الجمـال، ولـولا إبـداعها وجمالها لكانت نعمة ناقصة؛إذ الجمال من تمام النعمة بالشئ.

وفي وسع الباحث أن يستخلص من حديث القرآن في هذا المجال: أن الجمال هو الحسن والإبداع والإتقان، وأن الجميل هو ما يعجب الناظرين إليه، ويدخل السرور على نفوسهم.

إحتفاء القرآن الكريم بالجمال :-

في القرآن الكريم آيات عديدة توجه إلى الجمال في إبداع الكون – كما سبق أن ذكرت – ويأتى على القمة مـن هـذه الآيات، تلك الآية التى تبدأ باسم من أسماء ا الحسنى وهـو البديع: **(بديع السموات والأرض...)** فهذه إشادة بـالخـلـق الجميل في جانب ا تعالى.

---

(١) سورة الحج آية ٥.

واقرأ قوله تعالى – في سورة النحل- ﴿**والأنْعام خَلَقَها لَكُم فِيها دِفْءٌ ومنَافِع ومِنْها تَأكُلُون، ولَكُم فِيهـا جمـالٌ حِـين تُريحون وحِين تَسرحون، وتَحمِلُ أَثْقَالَكُم إِلى بلَدٍ لم تَكُونُـوا بالِغيهِ إِلا بِشِق الأَنفُس إن ربكُم لرءوفٌ رحِـيم، والْخَيـلَ والْبِغَالَ والْحمِير لِتَركَبوها وزِينَةً ويخْلُقُ ما لا تَعلَمون**﴾[1].

ففي هذه الآيات يمتن ا على عباده بما خلق لهـم مـن الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم، وبما جعل لهم فيهـا مـن المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون منها ومن أولادها اللحوم، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة وقت رجوعهـا عشيا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة، وكذلك وقت ذهابها غدوة إلى المرعى.علـى أنها تحمل الأحمال الثقيلة التى يعجزون عن نقلها وحملها في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجـرى ذلـك، يستعملونها في أنواع الاسـتعمال مـن ركـوب وتحميـل.

---

(١) سورة النحل الآيات ٥ – ٨.

وامتن الله على عباده أيضاً بالخيل والبغال والحمير التى جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها[1].

ويسترعى انتباهنا في هذه الآيات أن الحق سبحانه وهو يمتن على عباده بهذه النعم قد من بالتجمل بها، كما من بالانتفاع بها، فقال مرة: **(ولكم فيها جمال)**، وقال مرة **(لتركبوها وزينة)،** لأن الجمال – كما يقول جار الله.

الزمخشرى:"من أغراض أصحاب المواشى؛ بل هو من معاظمها، لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى، وسرحوها بالغداة، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس.ونحوه (لتركبوها وزينة) و(يوارى سوآتكم وريشا)، وقدمت الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال في الإراحة أظهر

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٩١٥، ٩١٦ دار إحياء التراث العربى بيروت – بدون تاريخ.

إذا أقبلت ملأي البطون، حافلـة الضـروع، ثـم أوت إلـى الحظائر حاضرة لأهلها"[1].

ومعنى ما تقدم أن الحق جل ش-أنه حين عـرض هـذه النعم قد نبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر، وتلبيـة لأشواقهم كذلك، ومعناه أيضاً أن منافع الأنعام لا تقف عنـد اللبن واللحم وما إليها، وإنما تمتد إلـى جمـال الاسـتمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة، وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة.وكذلك الأمر في الخيل والبغال والحمير...فيها تلبيـة للضرورة في الركوب، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة.

ومما لا شك فيه أن"**هذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة.فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركـوب؛ بـل تلبيـة الأشـواق الزائـدة علـى**

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجـوه التأويـل: ٤٠١/٢ ط دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت (بدون تاريخ).

الضرورات...تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشـعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان"[1].

وفي القرآن الكريم مشاهد أخرى عديدة تؤكد هذه النظرة، فالحق سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التأمـل فـي مشـاهد الطبيعة حولهم، وما في هذه المشاهد من حسن وإبداع وزينة وجمال؛ ليقفوا على جميـل صـنعه، ودلائـل قدرتـه أولاً، وليستمتعوا بالجمال ثانياً.

اقرأ – على سبيل المثال – الآية الخامسة من سورة الحج، ففيها وصف بديع للطبيعة في جمالهـا وحركتهـا ونبضـها بالحياة بعد نزول الغيث من السماء، وفيها تدليل على قـدرة ا الخارقة، وعلى بعثه الحياة في الأرض اليباب بماء ينزله من السماء، فإذا اليباب **(الخراب والجدب)** يهتز ويربو وينبت من كل زوج بهيج، وفي هذا تجسيد حى لقدرته – سـبحانه- على إحياء الموتى.

---

(١)في ظلال القرآن لسيد قطب: مجلد ٤ ص ٢١٦١ ط دار الشـروق (العاشرة/ ١٤٠٢ هـ- – ١٩٨٢م).

والرائع حقاً أن المولى جل شأنه قد دعانا إلى النظر والاستمتاع بالجمال، حتى في أشياء تشتهى وتؤكل كالنخل والأعناب والزيتون والرمان، فقال: ﴿**انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**﴾[1]، ولم يقل -في هذا الموضع **(كلوا من ثمره إذا أثمر)**، كما قال في آية أخرى؛ لأن المعرض هنا معرض الجمال المبثوث في الطبيعة والعبرة بقدرة المبدع المطلق.[2]

كما أنه مجال تدبر آيات ا ، وبدائع صنعته في مجالى الحياة.والمجالان يقتضيان النظر بالحس البصير، والقلب اليقظ إلى ثمر النبات إذا أثمر في ازدهاره وازدهائه وعند كمال نضجه[3] نظر استمتاع بالجمال، ونظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدرة ومدبرة وناقلة من حال إلى حال.[4]

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٩.

(٢) انظر: منهج الفن الإسلامى لمحمد قطب: ص ٢١٣ ط دار الشروق ١٩٧٣.

(٣) انظر: في ظلال القرآن: مجلد ٢ ص١١٦١.

(٤) الكشاف: ٤٠/٢.

واقرأ قول ا تعالى: **﴿ألم تر أن الله أنْزلَ من السماء ماء فأخْرجنا به ثمراتٍ مخْتلفًا ألوانُها ومن الْجِبال جدد بيض وحمر مخْتلفٌ ألوانُها وغرابيب سود(٢٧)ومن الناس والدواب والْأنْعام مخْتلفٌ ألوانُه كذلك...﴾**[١].

"إنها لفتة كونية عجيبة تطوف في الأرض كلها تتتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها.في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً، وتدع القلب مأخوذا بذلك المعرض الإلهى الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعا".[٢]

إنها لفتة في كتاب ا المسطور إلى الجمال في كتاب ا المنظور **(على حد التعبير المشهور للمرحوم الشيخ محمد متولى الشعراوى)** لفتة في الكتاب السماوى الجميل العبارات إلى الجمال في الكتاب الكونى الجميل الصفات، العجيب التكوين والتلوين.

---

(١) سورة فاطر: آية ٢٧، ٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: مجلد ٥ ص٢٩٤٢.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظا من كل شيطان مارد**﴾[1]، وقوله ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين**﴾[2].

"إن القرآن - هنا - يوجه النظر إلى جمال السماوات، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهيأ فيها للحياة الخالدة، في عالم طليق جميل، برئ من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية، وإن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يستقبل فيها جمال الإبداع الإلهى في الكون، ذلك أنها هى اللحظات التى تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه"[3].

ويذكر القرآن - هنا - أن المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا لها وظيفتان: وظيفة جمالية، ومشهد النجوم في السماء جميل - مافي هذا شك - جميل جمالا يأخذ بالقلوب.

---

(١) سورة الصافات: آية ٦،٧.

(٢) سورة الملك: آية ٥.

(٣) في ظلال القرآن: مجلد ٦ ص ٣٤-٣٦.

وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب؛ بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية..وكله جمال يأخذ بالألباب...هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء.وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان! وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء، وهى تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان! وهذا القمر الحالم الساهى ليلة، والزاهى المزهو ليلة، والمنكسر الخفيض ليلة، والوليد المتفتح للحياة ليلة، والفانى الذي يدلف للفناء ليلة! وهذا الفضاء الوسيع الذي لايمل البصر امتداده، ولايبلغ البصر آماده.إنه الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه...والجمال الذي لفت القرآن أنظارنا إليه بقوله: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ وهذه هى الوظيفة الجمالية لتلك المصابيح، أما الوظيفة الأخرى فهى رجم الشياطين في صورة شهب تحفظ السماء من كل

شيطان متمرد، وتذوده عن الاستماع إلى مايدور في المـلأ الأعلى[1].

لا أريد استقصاء كل النصوص القرآنية التـى أبـرزت جمال الطبيعة التى أبدعها ا الذي أحسن كل شـئ خلقـه، وحسبنا من الشواهد ماسقناه، ففيه دلالة على عناية القـرآن الكريم بهذا الجمال، وفيه دلالة على أن إبراز الجمال الباهر في بناء هذا الكون جانب أصيل في القرآن الكريم، وفيه بيان للناس بأن"**صنعة الصانع في كونه بديعة التكـوين، جميلـة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لاعـرض سـطحى، وأن تصميمه قائم على جمال التكوين، كما هو قائم علـى كمال الوظيفة سواء بسواء، فكل شئ فيه يقدر، وكل شـئ فيه يؤدى وظيفته بدقة، وهو في مجموعه جميل".**[2]

لكن لابد من الإشارة إلى أن عناية القرآن الكريم بجمـال الطبيعة قد امتدت إلى أسماء السور القرآنية، ففضلا عما فيه من سور**(التين،والنجم،والقمر،والشمس، والفجر...ونحوها)** نجد سورة تسمى سورة**(الزخرف)،**والزخرف:الزينة وكمـال

---

(١)انظر السابق: مجلد ٥ ص٢٩٨٣، ومجلد ٦ ص ٣٦٣٣، ٣٦٣٤.

(٢) السابق: مجلد ٢ ص ٢٩٨٤.

حسن الشئ.وفي المعجم الوسيط:زخرفه:زينه وكمل حسـنه، وتزخرف:تزين، وزخْرف الأرض:ألوان نباتها،والزخرفة:فن تزيين الأشياء بالنقش أو التطريز أو التطعيم وغيـر ذلـك، وزخْرف القولَ: حس-نه بتزيين الكذب.

وقد سميت السورة بذلك لقول ا تعالى فيها:**﴿ولولـا أن يكُون الناس أُمةً واحِدةً لجعلْنَا لِمن يكْفُر بِالرحمان لِبيـوتِهم سقُفًا مِن فَضةٍ ومعارِج علَيها يظْهرون، ولِبيـوتِهم أَبوابـا وسررا علَيها يتكِئُون، وزخْرفًا وإِن كُل ذَلِك لَما متَاع الْحياةِ الدنْيا والْآخِرةُ عِنْد ربـك لِلْمتقِـين﴾** [1]، علـى أن لفظـة **(الزخرف)** قـد جـاءت أيضـا فـي ثنايـا قولـه تعـالى: **﴿إِنما مثَلُ الْحياةِ الدنْيا كَماءٍ أَنْزلْنَاه مِن السماءِ فَاخْتَلَطَ بِـهِ نَباتُ الْأَرضِ مِما يأْكُلُ الناس والْأَنْعام حتى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرض زخْرفَها وازينَتْ وظَن أَهلُها أَنهم قَادِرون علَيها أَتَاها أَمرنَا لَيلًا أَو نَهارا فَجعلْنَاها حصِيدا كَأَن لَم تَغْن بِالْـأَمس كَـذَلِك نُفَصلُ الْآياتِ لِقَومٍ يتَفَكَّرون﴾** [2]. وفي هذه الآية دلالة علـى أن الحق سبحانه لايكتفي بتوجيه النظر إلى مجالى الطبيعـة

---

(١) سورة الزخرف: آيات ٣٣-٣٥.

(٢) سورة يونس: آية ٢٤.

وتدبر مافيها من معالم الجمال ودلائل القدرة، وإنما يسـوقها في معارض ضرب الأمثال للعظة، ويعبر بها أيضـا عـن المعانى النفسية والفكرية والاجتماعية.يدعم هذا-مثلاً-ضرب المثل بالشجرة الطيبة الموصوفة بما وصفت به في القـرآن للكلمة الطيبة، وضرب المثل بالشجرة الخبيثة الموصوفة بما وصفت به للكلمة الخبيثة، وغير ذلك جد كثير في القرآن.

وعناية القرآن الكريم بالجمال لاتقف عند حـدود إبـراز مافي مشاهد الطبيعة من جمال؛ وإنما تمتد أيضاً إلى الجمال في الإنسان، فنقرأ-مثلاً-قول ا تعالى: ﴿**ياأيها الإنسان مـا غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك**﴾[1].وفي هذا الخطاب إشارة إلى خلق الإنسان على صورة جميلة سوية معتدلة كاملة الشكل والوظيفة، و"**إن الجمال والاستواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدى، وفي تكوينه العقلى، وفي تكوينه الروحى، وهى تتناسق في كيانه في جمال واستواء**"[2] ويقول سبحانه: ﴿**الله الذي جعل لكـم الأرض قرارا والسماء بناء وصـوركم فأحسـن صـوركم**

(١) سورة الانفطار: آية ٦.

(٢) في ظلال القرآن: مجلد ٦ ص ٣٨٤٨.

ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ [1]**.**أي"**خلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم**"[2] وتصوير الإنسان على هذه الصورة الجميلة ذو علاقة بالوسط **(الأرض والسماء)** الذي يعيش فيه، ويتأثر به، ويؤثر فيه، ومن ثم ذكر القرآن الكريم صورته في نفس الآية التى يذكر فيها الأرض والسماء.

وإذا كان يوسف عليه السلام قد أعطى شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح؛ فإن القرآن الكريم قد أشار إلى جماله الآسر، وحسنه الأخاذ، وجاءت هذه الإشارة على ألسنة النسوة المصريات اللاتى لما رأينه حين خرج عليهن أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، وقلن-ماقصه القرآن الكريم: ﴿**حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾ (سورة يوسف: آية٣١)**، فجسدت هذه العبارة القرآنية-في أيجاز بليغ-صورة يوسف صاحب الجمال الباهر، المعشوق العفيف الذي بهر امرأة العزيز بجماله،

---

(١) غافر: آية ٦٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٨/٤.

وأدهش قلوب صويحباتها من نساء مصر، ولذلك فإن سورة يوسف حين تذكر تثير في الذاكرة صورة يوسف وجماله الأخاذ وقصة امرأة العزيز وصويحباتها معه، ومن ذلك قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

الحسن حلفت بيوسفه والسورة أنك مفرده[1]

ومن الآيات القرآنية التى ورد فيها الإشارة إلى الجمال قوله تعالى: ﴿**يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون، يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾.[2] إلى أن يقول: ﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده**

---

(١) البيت هو مطلع دالية شوقى التى عارض بها دالية الحصرى التى مطلعها: مضناك جفاه مرقده ....

(٢) سورة الأعراف: آيات ٢٦-٢٧.

والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (١).

في الآيات السالفة يمتن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهى السوءات، والرياش والريش مايتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من المكملات والزيادات، ثم يقرر أن لباس التقوى خير **(سواء كان المراد به خشية الله أو مايلبسه المتقون يوم القيامة أو السمت الحسن في الوجه)**، ثم يحذر بنى آدم من إبليس وقبيله، مبينا لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في كشف عورته بعدما كانت مستورة عنه.ولما كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، ابتداعا من تلقاء أنفسهم فإن الله نهاهم عن هذا، وأمرهم بالزينة وهى اللباس الذي يوارى السوأة، ورد سبحانه على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو

(١) سورة الأعراف: آيات ٣١-٣٢.

الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع ا ، واسـتنكر الحـق سبحانه هذا الصنيع.[1]

فالآيات"**تدعو إلى اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثم يكون زينة-بهذا الستر-وجمـالا، بـدل قـبح العـري وشناعته**"[2] وتقرر الآيات"**أن ثمة تلازما بـين شـرع ا اللباس لستر العورات والزينـة، وبـين التقـوى، كلاهمـا لباس.هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عـورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان؛ فعـن شـعور التقـوى والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحيـاء منه**"[3] ولايكتفي السياق بالدعوة إلى اتخـاذ الزينـة وإلـى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب، بل يستنكر-كما سبق القول-تحريم هذه الزينة التى أخرجها ا لعبـاده، وتحـريم الطيبات من الرزق.[4]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣٤٢/٢-٣٤٩.

(٢) في ظلال القرآن: مجلد ٣ ص ١٢٧٨.

(٣) المرجع السابق: ١٢٨٢/٣.

(٤) المرجع السابق: ١٢٨٢/٣.

ومن المشاهد القرآنية ذات الصلة بالجمال **(موضوعا)** في القرآن الكريم: المشاهد العديدة التى صور الحق فيها سبحانه الجنة ومافيها من نعيم، كقوله مثلا: ﴿**هذَا ذِكْر وإن لِلْمتقِـين لَحسن مآبٍ، جناتِ عدنٍ مفَتحةً لَهم الْأبواب، متكِئين فِيهـا يدعون فِيها بِفَاكِهةٍ كَثِيـرةٍ وشَـرابٍ، وعِنْـدهم قَاصِـراتُ الطرفِ أَتْراب، هذَا ما تُوعدون لِيوم الْحِساب، إِن هذَا لَرزقُنَا ما لَه مِن نَفَادٍ**﴾ [1].

هذا هو منظر المتقين يوم القيامة، لهـم**(حسـن مـآب)** معالمه: جنات مفتحة الأبواب، وراحة في الاتكاء، ومتعة في الطعام والشراب، وحوريات فائقات الحسن، باهرات الجمال، وكلهن شواب أتراب، وهن مـع هـذا قاصـرات الطـرف لايتطلعن إلى إعجاب الآخرين من الرجال تطلع الشواب،وهو متاع دائم لاينفد فهو أبدا متجدد.[2]

ومامن مشهد قرآنى صور للناس نعيم الجنة إلا تبدو فيـه معالم جمالها الآسر، وحسنها الآخاذ، وسحرها الذي مارأتـه

---

(١) سورة ص: آيات ٤٩-٥٣.

(٢) انظر: مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطـب: ص ٨٣، ٨٤ ط ٥، دار المعارف بمصر.

عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، وكلهـا معالم تثبت صدق ابن القيم حين سماها **(بلاد الأفراح).**[١]

فوجوه أصحابها كما يقول القرآن:﴿**وجوه يومئذٍ نَاضِـرةٌ، إلَـى ربها نَاظِرةٌ**﴾[٢].﴿**وجوه يومئذٍ مسفِرةٌ، ضاحِكةٌ مستَبشِرةٌ**﴾[٣]و﴿**لِلذِين أَحسنُوا الْحسنَى وزيادةٌ ولَا يرهقُ وجوههم قَتَر ولَـا ذِلَـةٌ أُولَئِـك أَصحاب الْجنةِ هم فِيها خَالِدون**﴾[٤].

ولوحات الجمال تتراءى لهم في كل مكـان مـن الجنـة ﴿**وحور عِين كَأَمثَالِ اللؤْلُؤِ الْمكْنُـون، جـزاء بِمـا كَـانُوا يعملُون، لَا يسمعون فِيها لَغْوا ولَا تَأْثِيما، إِلَا قِيلَـا سـلَاما سلَاما**﴾ [٥] و ﴿**ويطُوفُ عليهم ولْدان مخَلَـدون إِذَا رأَيـتَهم حسِبتَهم لُؤْلُؤًا منثُورا، وإِذَا رأَيتَ ثَم رأَيـتَ نَعِيمـا وملْكًـا كَبِيرا، عالِيهم ثِياب سندسٍ خُضر وإِستَبرقٌ وحلوا أَسـاوِر مِن فِضةٍ وسقَاهم ربهم شَرابا طَهورا**﴾[٦].

---

(١) في كتابه (حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح).

(٢) سورة القيامة: آيات ٢٢-٢٣.

(٣) سورة عبس: آيات ٣٨-٣٩.

(٤) سورة يونس: آية ٢٦.

(٥) سورة الواقعة: الآيات ٢٣-٢٦.

(٦) سورة الإنسان: ١٩-٢١.

﴿ويطاف عليهم بِآنِيةٍ مِن فِضةٍ وأَكْوابٍ كَانَـتْ قَـوارِير، قَوارِير مِن فِضةٍ قَدروها تَقْدِيرا، ويسقَون فِيها كَأْسـا كَـان مِزاجها زنجبِيلًا، عينًا فِيها تُسمى سلْسبِيلًا﴾[1]والأنهار تجرى من تحتهم**﴿أَنْهار مِن ماءٍ غَير آسِنٍ وأَنْهار مِن لَبنٍ لَم يتَغَير طَعمه وأَنْهار مِن خَمرٍ لَذةٍ لِلشارِبِين وأَنْهـار مِـن عسـلٍ مصفى ولَهم فِيها مِن كُلِّ الثمراتِ ومغْفِرةٌ مِـن ربهِـم﴾**[2] ،وغير ذلك كثير من الآيات التى تصور لنا جمـال الجنـة ومافيها من نعيم لا يزول.

والرائع في القرآن الكريم أنه لم يقصر عنايتـه بمعـالم الحسن والجمال في الدنيا والآخرة على الجمال الحسى الذي يدرك بالأبصار، وإنما امتدت هـذه العنايـة إلـى الجمـال المعنوى الذي يزيد الإنسان جمالا فـوق جمـال...ونقصـد بالجمال المعنوى: جمال الخلـق، جمـال السـجية، جمـال السلوك...وكثيرة هى الآيات التى تحـض علـى التخلـق بالأخلاق الكريمة، والخصال الحسـنة، والسـيرة الجميلـة،

---

(١) سورة الإنسان: آية ١٥-١٨.

(٢) سورة محمد: آيات ١٥-١٨.

والسلوك الطيب في الحياة.وأعتقد أن القارئ للقرآن في غنى عن أن أذكر له هذه الآيات.

لكننى أذكر له منها قوله تعالى لحبيبه ﷺ، ولكل قـارئ للقرآن من بعده: ﴿**واصبِر على ما يقُولُون واهجرهم هجـرا جمِيلًا**﴾[1]، ألا ما أروعها من دعوة إلـى الصـبر الجميـل والهجر الجميل الذي لاعتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولامشادة!.

وفي سورة يوسف قال مرة بلسان يعقوب:﴿**فَصبر جمِيـلٌ والله الْمستَعان على ما تَصِفُون**﴾الآية ١٨،وقال مرة ﴿**فَصبر جمِيلٌ عسى الله أَن يأْتِيِني بِهم جمِيعا إِنه هو الْعلِيم الْحكِيم**﴾ الآية ٨٣، ونع-ت الصبر بالجمال هنا أمر مقصود، فالصبر لا أثر له إذا فقد منه الجمال، وتكريره مـرتين زيـادة فـي التأكيد على حتمية الجمال فيـه، وتنبيـه علـى أن الصـبر الحقيقى عند الصدمة الأولى، والخالى تمامـا مـن الفـزع والجزع والشكوى، والمقرون دائما بالاسـتعانة بـا علـى مايلقى المرء من نوائب الزمان.قال الزمخشرى:"**جـاء فـي الحديث المرفوع: أن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه،**

---

(١) سورة المزمل: آية ١٠.

ومعناه: لاشكوى فيه إلى الخلق.ألا ترى إلى قولـه: إنمـا أشكو بثى وحزنى إلى ا ".[1]

يكفي هذا القدر من الحديث عن نظرة القرآن إلى الجمال بشقيه: الحسى والمعنوى، وعن احتفائه بالجمال فـي كثـرة كاثرة من آياته ومشاهده الرائعات.

وأتوجه في الصفحات التالية إلى المقصود الأكبر من هذا البحث، وهو جمال القرآن نفسه، ومعالم الحسن، ومجـالات السحر المعجز في نظمه البديع: حروفا، وكلمات، وتراكيب، وفواصل، وصورا، ونظاما صوتيا، وغير ذلك مما سأفصـل القول فيه من خلال المباحث التالية إن شاء ا .

(١) الكشاف: ٣٠٨/٢.

المفهوم الدقيق
لجمال الأسلوب القرآنى

مدخل: -

يتفق جميع الذين كتبوا عن**(إعجاز القرآن الكريم)**على أن القرآن الكريم معجز بأسلوبه الفريد،ونظمه البديع الذي هـو فـوق طاقـة البشر، ومعنى هذا: أن أسلوب القـرآن الكـريم هـو مـادة ذلـك الإعجاز،ولا عجب، فقد جاء هذا الأسـلوب علـى نسـق خـاص، وصورة مباينة لما عرفه العرب من أساليب البيان. إذا لامس أوتار القلوب، فاهتزت له العواطف، وتحركت له المشاعر، وأسال الدموع من العيون، وخرت لجلاله وجماله وكماله جباه أسـاطين البلاغـة وفحول البيان، مقرين بأنهم أمام نظم إلهى ووحى سماوى،لا يقـدر على مثله مخلوق!.

وهذه الحقيقة قاعدة مطردة، ونظام ثابت فـي المصـحف الشريف، من أوله إلى آخره، لا تتخلف في سورة من سوره، ولا في آية من آياته، ولا في لفظة من ألفاظه، ولا في جملة من جمله، بل إنها لا تتخلف في كل حرف من الحروف التى

تبنى منها الكلمات، ففي كل هذا إعجاز، وفي كل هذا جمال، وفي كل هذا **(معمار بيانى)** لا يقدر عليه إلا البارئ المصور البديع القادر الذي أتقن كل شئ – جل في علاه – ومن أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الإتيان بأقصـر مـن مثلـه! **﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].**

لقد جاء القرآن الكريم بياناً عربياً جديداً منفرداً في رصفه وبنائه ومعماره، ليس له شبيه فيما سبق من أدب العرب، ولا نظير فيما أتى لاحقاً بعد ذلك، حتى أصبح البيان الأدبـى – بعد نزوله – ينقسم إلى: شعر ونثر وقرآن، فنحن أمام كـلام هو نسيج وحده في الجمال والإعجاز، لا هو بالشعر، ولا هو بالنثر، وإنما هو – كمـا سـماه منزلـه سـبحانه –"**قـرآن كريم**"أحكمت ولا هو بالنثر، وإنما هو – كما سـماه منزلـه سبحانه –"**قرآن كريم**"أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكـيم خبير، وفيه شفاء للناس وهدى ورحمة للعالمين.

إن التعبير القرآنى يظل جارياً على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ، وروعة التعبير، وعمـق المعنـى، ودقـة

(١) سورة يونس آية ٣٨.

التركيب، ورقة الصياغة،وعذوبة الأداء الصوتى،على الرغم من تنقله بين موضوعات مختلفة من التشـريع والقصـص والأمثال والمواعظ والترغيب والترهيب والجـدل والحـوار والوعد والوعيد، ونحوها...وتلك حقيقة شاقة؛ بل لقد ظلـت وستظل مستحيلة على فحول علماء العربية والبيان.

ومعانى القرآن جميعها مصـوغة للنـاس جميعـاً،على اختلاف مداركهم وثقافاتهم،وعلى تباعد أزمنتهم وبلادانهم،ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.فالآية من آياته تعطى كلا مـنهم من معناها بقدر ما يفهم، ويخرج المتدبر فيها بالمعنى الـذي انتهى عنده علمه.والرائع حقاً: أن الكلمة منه – على الـرغم من هذا – لا تحمل وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين، بل هو معنى واحد على كل حال، ولكن له سـطحاً وعمقـاً وجذوراً يتضمنها جميعاً معنى الآية، وأسلوبها المحكم.

وللقرآن مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصـوتى، وجماله اللغوى، ونريد بنظام القرآن الصوتى: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناتـه، واتصـالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً، يسـترعى الاسـماع،

ويستهوى النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كـلام آخر من منظور ومنثور.

ونريد بجمال القرآن اللغوى، تلك الظاهرة العجيبة التـى امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبـاً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هـذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القـرآن شئ من كلام الناس، لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه، واختـل نظامه في آذان سامعيه.ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى، وذلك النظام الصوتى، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخـرى، إذ أن مـن شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الاسـماع، ويثير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هـذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد علـى تغييره وتبديله، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿**إنا نحن نزلْنَا الـذكْر وإنا له لحافِظُون**﴾ [1] [1].

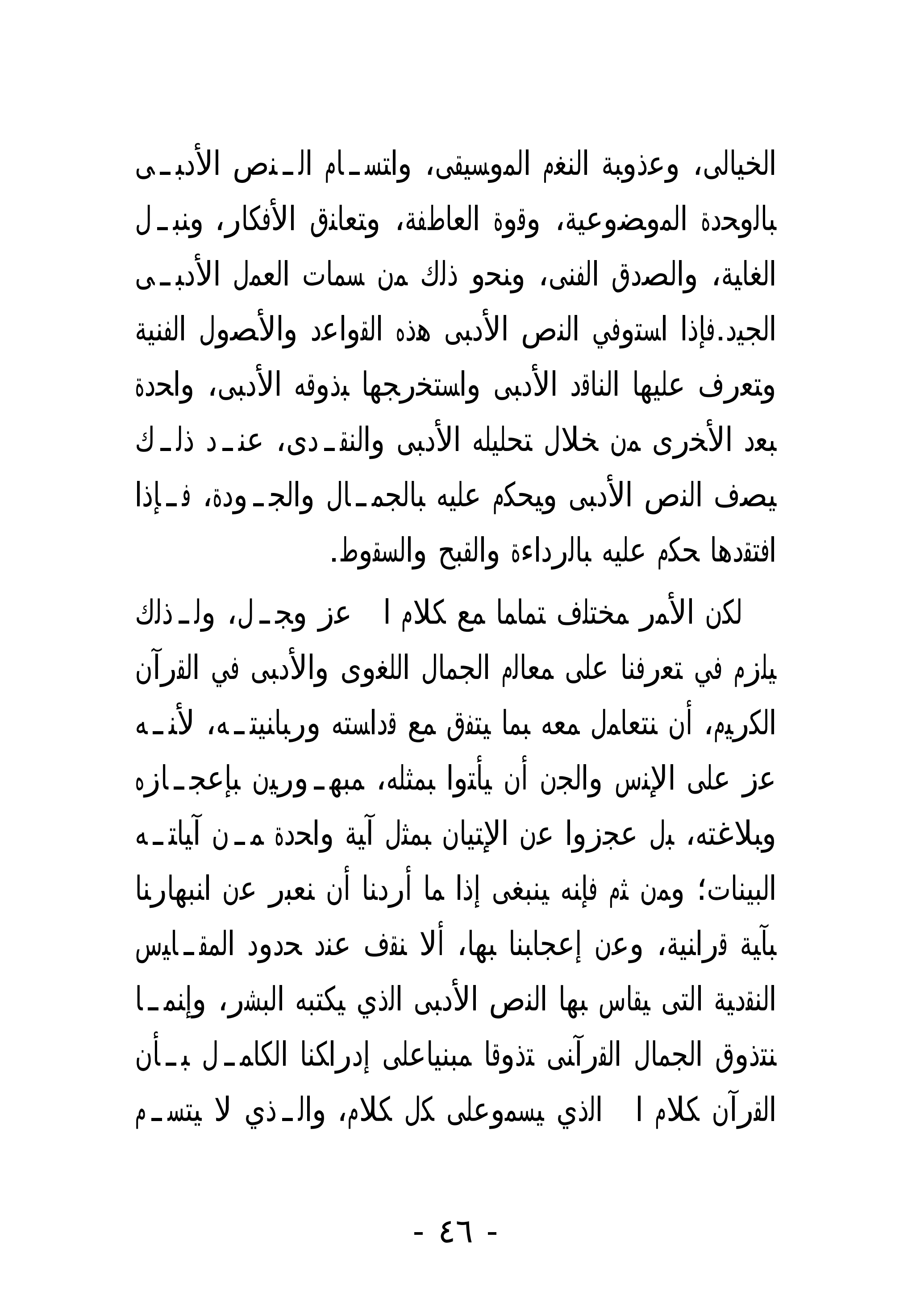
(١) سورة الحجر آية ٩.

هذا هو المفهوم الدقيق لجمال القـرآن اللغـوى وروعـة أسلوبه المعجز وفيما يلى من مباحث سنقف وقفات مستأنية، مدعومة بالنماذج أمام مجالات عدة يبدو فيها هـذا الجمـال متألقاً وساحراً للألباب...نراه في المفردة القرآنية، ونراه في الجملة، ونراه في الأداء، ونـراه فـي الفواصـل القرآنيـة ونظامها الصوتى الرائع وموسيقى الكلمات والعبارات، ونراه في غير ذلك مما سنعرض له إن شاء ا .

وينبغى التنبيه-قبل الشروع في تفصيل القول عن ذلك كله – أن أوضح أن النقاد في حديثهم عن قضية الجمال الأدبـى في الشعر والنثر الفنى يضعون النص الأدبى في منزلة مـن الجودة والرداءة حسب درجة الجمـال، وتـوافر شـروطه ومقوماته وأسبابه وعناصره، وغير ذلك من الوسائل الفنيـة المحسة، وقد اتفقوا على مبادىء وقواعد ومسلمات وافقـت العقل والذوق الأدبى معا، وقرروا أنها تتلخص في فصـاحة الكلمة، وبلاغة العبارة، ومتانة الأسلوب، وروعة التصـوير

---

(١) أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبـد العظـيم الزرقانى: ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩، ط دار إحياء الكتب العربية (عيسـى البابى الحلبى) بدون تاريخ.



الخيالى، وعذوبة النغم الموسيقى، واتسـام الـنص الأدبـى بالوحدة الموضوعية، وقوة العاطفة، وتعانق الأفكار، ونبـل الغاية، والصدق الفنى، ونحو ذلك من سمات العمل الأدبـى الجيد.فإذا استوفي النص الأدبى هذه القواعد والأصول الفنية وتعرف عليها الناقد الأدبى واستخرجها بذوقه الأدبى، واحدة بعد الأخرى من خلال تحليله الأدبى والنقـدى، عنـد ذلـك يصف النص الأدبى ويحكم عليه بالجمـال والجـودة، فـإذا افتقدها حكم عليه بالرداءة والقبح والسقوط.

لكن الأمر مختلف تماما مع كلام ا عز وجـل، ولـذلك يلزم في تعرفنا على معالم الجمال اللغوى والأدبى في القرآن الكريم، أن نتعامل معه بما يتفق مع قداسته وربانيتـه، لأنـه عز على الإنس والجن أن يأتوا بمثله، مبهـورين بإعجـازه وبلاغته، بل عجزوا عن الإتيان بمثل آية واحدة مـن آياتـه البينات؛ ومن ثم فإنه ينبغى إذا ما أردنا أن نعبر عن انبهارنا بآية قرانية، وعن إعجابنا بها، ألا نقف عند حدود المقـايس النقدية التى يقاس بها النص الأدبى الذي يكتبه البشر، وإنمـا نتذوق الجمال القرآنى تذوقا مبنياعلى إدراكنا الكامـل بـأن القرآن كلام ا الذي يسموعلى كل كلام، والـذي لا يتسـم

بالحلاوة والجمال فحسب، وإنما يتسم أيضا بالجمال والكمال والإعجاز.ومادام الأمر كذلك فلا يصح مطلقـا أن نخضـع القرآن الكريم لمصطلحات النقد الأدبى، التى نقيس بها جودة النص الأدبى أو رداءته.فنحن في تذوقنا للأسلوب القرآنـى أمام ثلاثية معجزة، لا تتحقق إلا فيه، هى **(الجمال والجـلال والكمال).**

فصاحة اللفظة القرآنية

يقصد بفصاحة اللفظة: تلاؤم حروفهـا، وعـدم تجـافي مخارجها، وألا يكون فيها تكرار، ولا شذوذ، ولا وحشية.

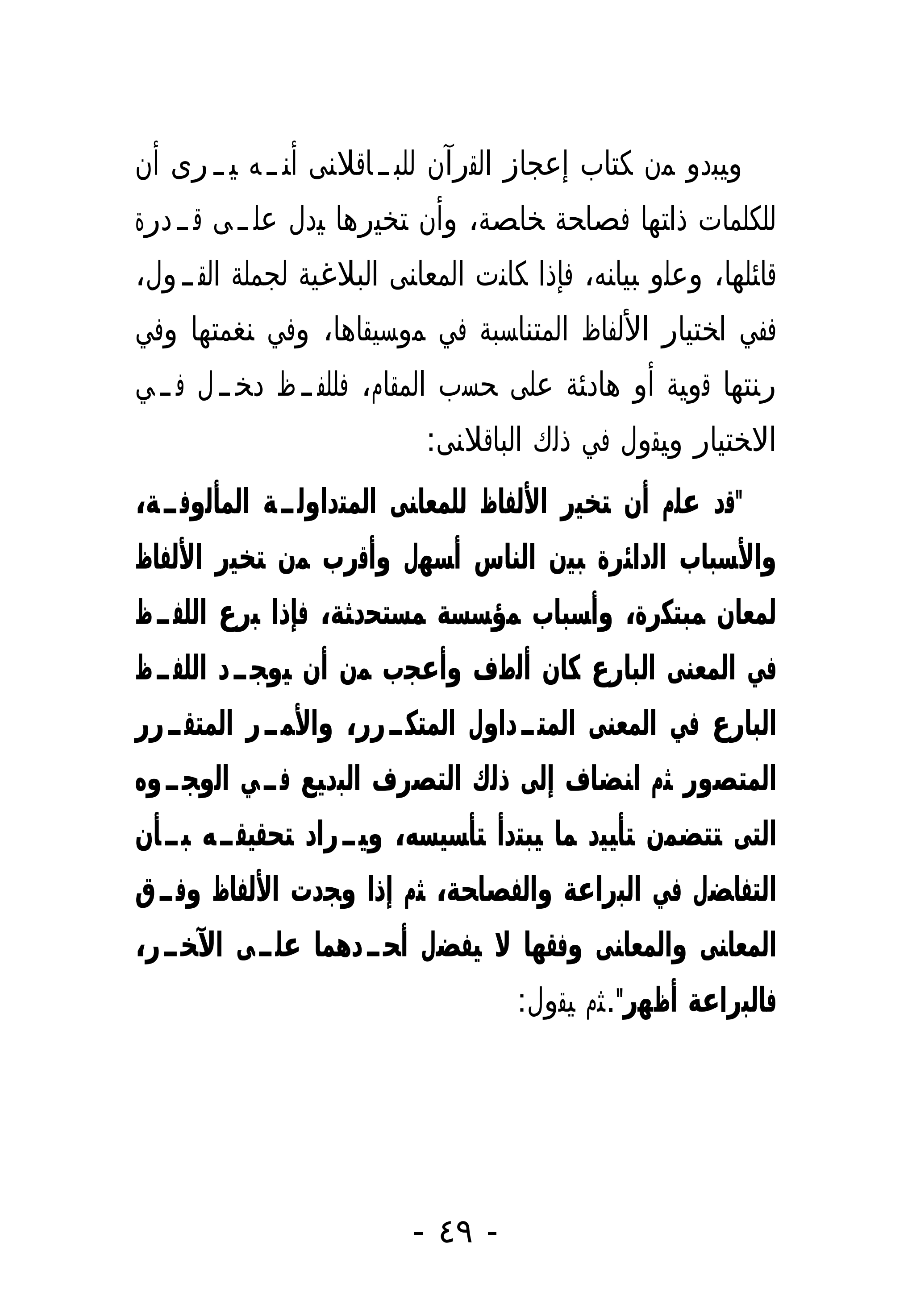
فلا فصاحة – مثلاً – في قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ولافصاحة-أيضا-في قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فـي مثنـى ومرسل فإن تكرار الحروف والكلمات جعلها غير متلائمـة، وغير سهلة في النطق.

وقد عقد ابن الأثير في كتابه المثل السائر فصلاً قيماً ذكر فيه فصاحة الكلمات، وتآخى حروفها وقال: إن من الكلمـات ما له نغمة أوتار، ومنها ما له صوت حمار، وضرب علـى ذلك الأمثال، فقال: إن كلمة السـيف لهـا مـرادف، وهـو الخنشليل، فهل هما متماثلتان في الفصاحة والنغمة الصوتية؟ ومثل كلمة غصن، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن، فهل همـا متماثلتان في النغمة وسهولة النطق؟!.



ويبدو من كتاب إعجاز القرآن للباقلانى أنه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة، وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها، وعلو بيانه، فإذا كانت المعانى البلاغية لجملة القول، ففي اختيار الألفاظ المتناسبة في موسيقاها، وفي نغمتها وفي رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام، فللفظ دخل في الاختيار ويقول في ذلك الباقلانى:

"قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعانى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر".ثم يقول:

"وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل في تضـاعيف كلام كثيرة، وهى غرة جبينه، وواسطة عقـده، والمنـادى على نفسه بتميزه، وتخصصه، برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه"[1].

ويقول الخطابى المتوفي سنة ٣٨٨ هـ :-

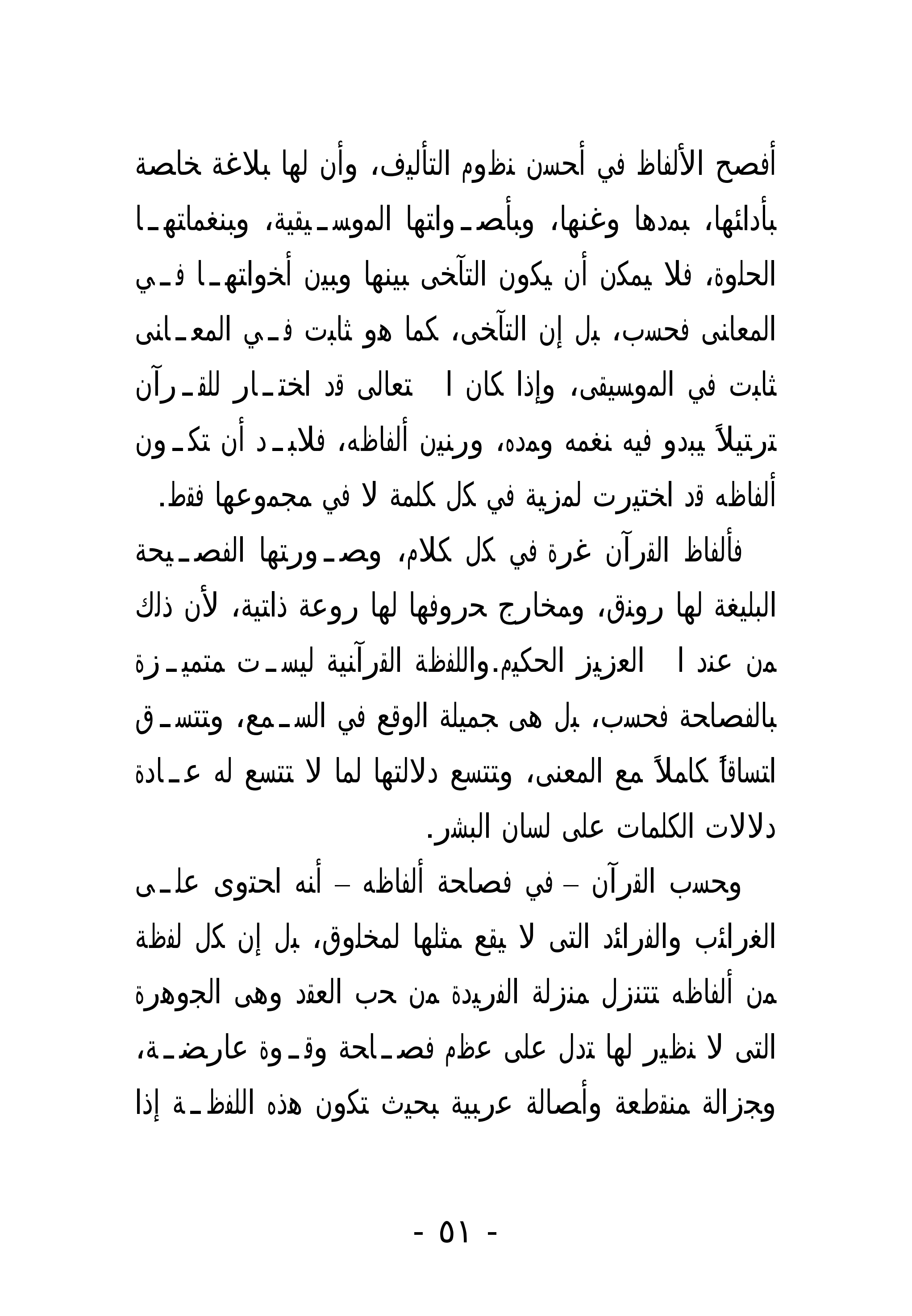
"وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جـاء بأفصـح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلـى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحـريم، وحظـر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعـروف، ونهـى عـن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عـن مسـاوئها، واضعاً كل شئ منها في موضعه الذي لا يرى شـئ أولـى منه، ولا يرى في صورة العقل أليق منه"[2].

إن كل هذه النقول تجمع على أن اللفظـة القرآنيـة هـى

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى: ص ٦٤.ط دار المعارف بمصر- تحقيق السيد أحمد صقر.

(٢) رسالة الخطابى ص ٩ ضمن رسائل ثلاث في إعجاز القـرآن.ط دار المعارف بمصر.تقديم د/ محمد زغلول سلام.


أفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، وأن لها بلاغة خاصة بأدائها، بمدها وغنها، وبأصـواتها الموسـيقية، وبنغماتهـا الحلوة، فلا يمكن أن يكون التآخى بينها وبين أخواتهـا فـي المعانى فحسب، بل إن التآخى، كما هو ثابت فـي المعـانى ثابت في الموسيقى، وإذا كان ا تعالى قد اختـار للقـرآن ترتيلاً يبدو فيه نغمه ومده، ورنين ألفاظه، فلابـد أن تكـون ألفاظه قد اختيرت لمزية في كل كلمة لا في مجموعها فقط.

فألفاظ القرآن غرة في كل كلام، وصـورتها الفصـيحة البليغة لها رونق، ومخارج حروفها لها روعة ذاتية، لأن ذلك من عند ا العزيز الحكيم.واللفظة القرآنية ليسـت متميـزة بالفصاحة فحسب، بل هى جميلة الوقع في السـمع، وتتسـق اتساقاً كاملاً مع المعنى، وتتسع دلالتها لما لا تتسع له عـادة دلالات الكلمات على لسان البشر.

وحسب القرآن – في فصاحة ألفاظه – أنه احتوى علـى الغرائب والفرائد التى لا يقع مثلها لمخلوق، بل إن كل لفظة من ألفاظه تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهى الجوهرة التى لا نظير لها تدل على عظم فصـاحة وقـوة عارضـة، وجزالة منقطعة وأصالة عربية بحيث تكون هذه اللفظـة إذا

سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها[1].

ويعسر على الإنسان حصر هذه الغرائب والفرائد، فهـى جد كثيرة في القرآن الكريم ويكفي أن نذكر منها-هنا-علـى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿**يعلم خَائِنَةَ الْـأَعين ومـا تُخْفِـي الصدور**﴾[2]"**ففي الآية فريدة سـهلة إذا أفـردت يسـتعملها الناس، ولكن في تركيبها القرآنى وبعد إضافتها إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هـذا الوقع بحيث لا يستطاع الاتيان بمثلها، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها**"[3].

واقرأ قوله تعالى:﴿**حتى إِذَا فُزع عن قُلُـوبهم**﴾[4]وتأمـل لفظة"**فزع**"تجد أنها غريبة فريدة الفصـاحة، لا يكـاد غيـر القرآن يقع عليها ويضعها هذا الموضع بحيث تكون مؤتلفـة مع ما قبلها ومع ما بعدها هذا الائتلاف كما أن الناظر فـي

---

(١) إعجاز القرآن البيانى، د/ حفنى شرف: ص ٢٢٨، ٢٢٩ مطـابع الأهرام ١٩٧٠.

(٢) سورة غافر الآية ١٩.

(٣) إعجاز القرآن البيانى: ص ٢٢٩.

(٤) سورة سبأ آية ٢٣.

ألفاظه يجدها في الطبقة العليا من الفصاحة[1].

وقد وردت في القرآن الكريم ألفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع، مما يكون مسـتثقلا بطبيعـة وضـعه أو تركيبه، ولكنها قد خرجت في نظمه مخرجا سريا، فكانت من أخصر الألفاظ حلاوة، وأعذبها منطقا، وأخفها تركيبا؛ إذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يجرها فـي نظمـه إلا وقـد وجـد ذلـك فيها،كقولـه: **(ليستخلفنهم في الأرض)** سورة النور: الآية ٥٥.

فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عـذوبتها من ت-نوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت-في النطق-كأنها أربع كلمات؛ إذ تنطق على أربعـة مقاطع، وقوله: (فسيكفيكهم ا) البقرة آية١٣٧ فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهى ثلاثة مقاطع،وقد تكـررت فيهـا اليـاء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة في الكلمة قبله[2].

---

(١) إعجاز القرآن البيانى: ص ٢٢٩.

(٢) إعجاز القرآن للرافعى: ص ١٨٠ ط دار المنار بالقاهرة (بدون تاريخ)

جمال وقع المفردة القرآنية في السمع

تمتاز اللفظة القرآنية بسهولتها ويسرها وعذوبتها ووقعها على السمع في اتساق وانسجام.

يقول البازرى – في هذا الصدد: "**اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكـذلك كـل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصـح ممـا يلائـم الجزء الآخر، ولابد من استحضار معانى الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلـك عتيد حاصل في علم ا ، كذلك كان القرآن أحسن الحـديث وأفصحه وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وجنَـى الْجنتَـين دانٍ﴾ [1] فلو قال: وثمر الجنتين قريب لم يقم مقامـه مـن جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمـر لا يشعر بمصير إلى حال يجنى فيها، وقوله تعالى: ﴿وما كُنْتَ**

---

(١) سورة الرحمن آية ٥٤.

تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ [1] أحسن من قوله: تقرأ، وقوله: لا ريب فيه، أحسن من قولك لا شك فيه لثقل الأدغام، ولهذا كثر ذكر الريب، وقوله: ﴿ولا تَهنُوا﴾ [2]أحسن من (ولا تضعفوا)، لخفة تعبير القرآن ولفظه، ومثله ﴿وهن العظْم مِني﴾ [3] وآمن أخف من صدق، ولذا كان ذكره أكثر من التصديق و"آتى"أخف من أعطى، و"أنذر"أخف من خَوف لسهولة ألفاظ القرآن في تركيبها وتناسقها وائتلافها"[4].

أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نورانى يتضافر مع جملته، ويساعد بعضه بعضاً في المعانى العامة للأسلوب والعبارات الجامعة.وإن العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضاً.

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٨.

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩.

(٣) سورة مريم آية ٤.

(٤) نقلاً عن: إعجاز القرآن البيانى للدكتور حفنى محمد شرف: ص ٢٢٧ مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٠.

ولسنا نستطيع إحصاء تلك النواحى في جمال ألفاظ القرآن إحصاء، ولكنا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا، ومـن غير أن نصل إلى أقصى الغاية وإنما نسدد ونقـارب، بـل المقاربة فوق طاقتنا، وقد سبقنا إلى تلـك المحاولـة فحـول البيان.

الدقة الفائقة
في اختيار المفردة القرآنية

من جمال المفردة القرآنية حسن اختيارها بدقة فائقة، ولذلك أمثلة كثيرة في كتاب ا عز وجل.

خذ لذلك شاهداً من قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ [1].

فترى القرآن هنا يستعمل كلمة **(أكله الذئب)**، ولا يستعمل كلمة **(افترسه الذئب)**، مع أن الأكل عام، لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع...الأمر الذي يبدو في عيون قصار النظر أنه غير مناسب للمعنى، وأن المختار الفصيح أن يقول: **(فافترسه الذئب)**، لأن المستعمل في فعل السباع خصوصاً هو الافتراس، وليس الأكل.

والواقع أن التعبير القرآنى بالأكل هنا لغاية اقتضاها المقام، هى: أن الافتراس معناه في فعل السبع القتل...ح-

---

(١) سورة يوسف آية ١٧.

سب، وأصل الفرس دق العنق...والقوم – أي أبناء يعقوب – إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكـلاً، وأتـى علـى جميـع أجزائه، وأعضائه، فلم يترك مفصلاً، ولا عظماً...

وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر باق منه، يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا"**الأكل**"ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة.

"**والفرس**"لا يعطى تمام هذا المعنى، فلا يصلح – على هذا – أن يعبر عنه إلا"**بالأكل**"[1].

وخذ شاهداً ثانياً من قول الحق تبـارك وتعـالى: ﴿**زيـن لِلناس حب الشهواتِ مِن النساءِ والْبنِين والْقَنَاطِيرِ الْمقَنْطَرةِ مِن الذهبِ والْفِضةِ والْخَيل الْمسومةِ والْأَنْعامِ والْحرثِ ذَلِـك متَاع الْحياةِ الدنْيا والله عِنْده حسن الْمآبِ**﴾ [2].

فتراه – هنا – لم يقل: زين للناس المشتهيات من النسـاء والبنين...إلخ، ولا قال: زين للناس الشـهوات مـن النسـاء والبنين...إلخ، ولا قال: زين للناس حب النساء والبنين...إلخ؛ لأنه لو قال شيئاً من هذا لم يكن شيئاً؛ لأن"**الشهوات وظائف**

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (رسالة الخطابى): ص ٣٧ ط دار المعارف بمصر.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤.

طبيعية في الناس، فكونها زي-ن-تْ لهم أمر لا معنى لـه وليس فيه جديد، ولكن تزيين حبها هو السر كل السر، لأن حبها هو سبيل الحرص عليها، والاكثار منها، كالذي يجـد مالاً ينتفع به، فالمال في نفسه منفعة وليس في ذلك شـئ عجيب، ولكن الذي يبتلى"بحب"المال تنقلب فيه هذه المنفعة ضرراً فيبخل ويبتلى بالحرص ثم يبتليه الحرص على المال بمحق حياته كلها فالشأن إذن ليس في المشتهيات ولا فـي الشهوات، ولكن في (حب الشهوات)، ثم إن حب الشـهوات متى كان سبباً في الحرص عليها والاكثار منها فهـو خطـأ وضرر، فإذا (زين) ذلك للإنسان كان أشد ضرراً وأمعن في باب الخطأ – وهذه هى حكمة استعمال (زين) فكـأن هنـاك ثلاث درجات: الشهوة وهى عمل طبيعى، ثم حب الشـهوة وهذه إضافة جديدة من العقل تزيد فيها، ثـم تـزيين هـذا الحب، وهى إضافة ثالثة تزيد في الزيادة وتضاعف الخطأ، وعلى هذا تلحق الشهوات في هذا الترتيب بالحـد الخـارج عن"تزيين شهوة محبوبة"بحيث لا يبقى للعقل حكم ولا حكمة مع هذا التزيين، وجعلت (زين) مبنية للمجهول، لأن بعـض هذا محبوب محمود فهو من زينة ا ويـدخل فـي قولـه

تعالى: ﴿قُلْ من حرم زِينَةَ اللـهِ الِتـي أَخْـرج لِعِبـادِهِ﴾ [1] وبعضه مذموم مكروه فهو من تـزيين الغرائـز الفاسـدة، وبعضه حمق وجنون فهو من تزيين الشيطان.والغرض من الآية تجاوز الحد المعقول من شهوات الدنيا، فإن تجـاوزه يجعل الدنيا هى الغاية، مع أنها وسيلة فقط – ولهذا قـال: ﴿ذَلِـك متَـاع الْحيـاةِ الـدنْيا﴾ [2] ثـم إنـه قـال:"حـب الشهوات"بالجمع ولم يقل: الشـهوة فتكـون (الشـهوات) مختلفة متباينة، تقدر كل واحدة باعتبارهـا الخـاص فـي الأصناف التى وردت في الآية، فالشهوة للنساء غيرها من البنين، وهذه غيرها من المال، وهذه غيرهـا مـن الخيـل المسومة....الخ، فكل واحدة ذات شأن خاص في النفس كما هو مشاهد، ولكن الجنون بها كلها متى (زيـن حبهـا فـي النفس) شئ واحد"[3].

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢.
(٢) سورة آل عمران آية ١٤.
(٣) من رسائل الرافعى، التى نشرها محمود أبو رية: ص ٢٧٥ ومـا بعدها ط دار المعارف ١٩٦٩ (الثانية).

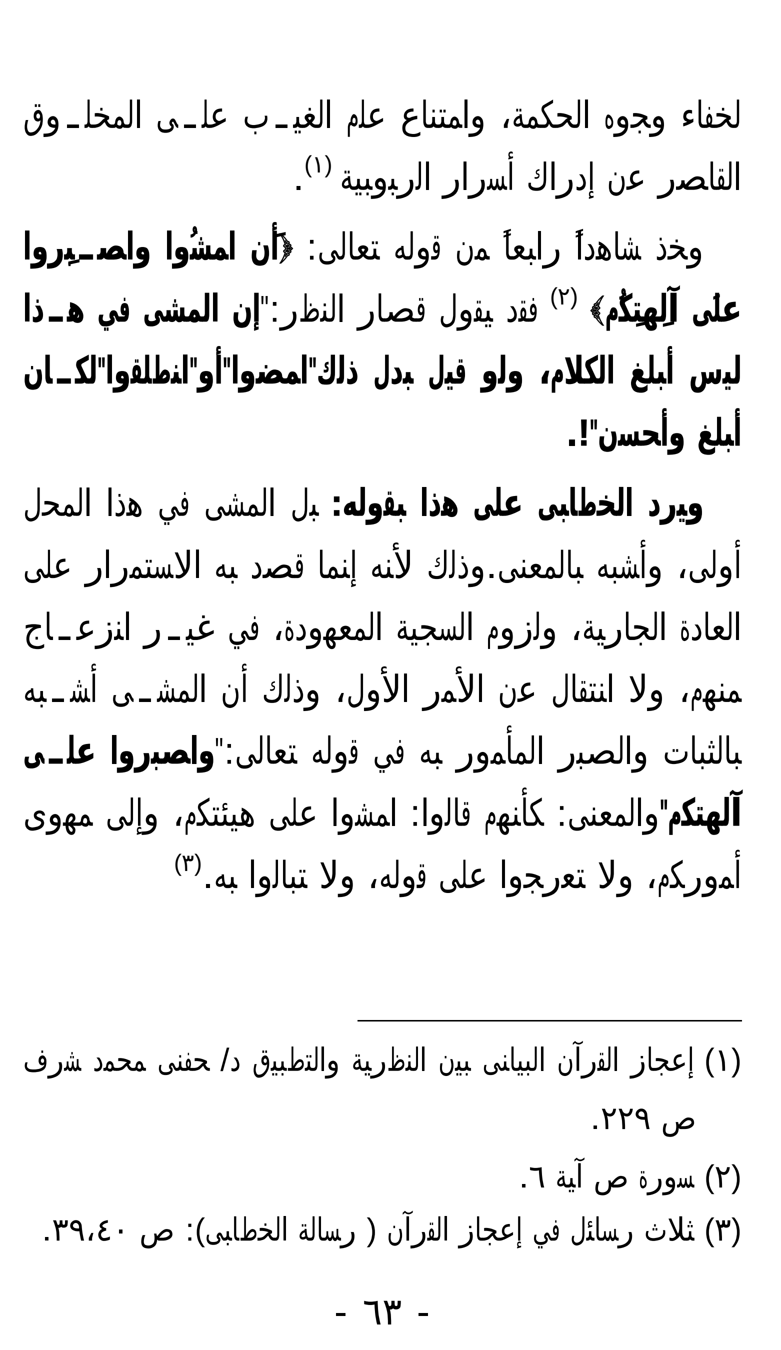
"وانظر الحكمة العجيبة في الترتيب، فالنساء شهوات من الغريزة والعاطفة، والبنين شهوات من العاطفة والنفس، والمال الكثير من النفس فقط، والخيل المسومة والأنعام والحرث، هذه الثلاثة تارة أجزاء من المال، وتارة أجزاء من عاطفة النفس، كما يغرم بالخيل بعض الناس أو بالأنعام أو بالزراعة، ولذلك جاءت في الآية بعد النساء والبنين لأنها لاحقة بالغريزة والعاطفة والنفس، ويدخل في الخيل المسومة كل ما يقتنى للمباهاة والزينة، أو لأغراض القوة على إطلاقها.ومنه السيارات والطيارات...الخ، ويدخل في الأنعام كل ما يقتنى للتجارة والكسب وفي الحرث كل ما يقتنى للاعتماد والايجاد، ومنه المصانع والمعامل...الخ، فإذا حققنا هذا وجدنا هذه الأبواب جامعة لكل الشهوات الناشئة من جميع قوى الجسم الإنسانى والنفس الإنسانية، أما ما كان خاصاً بشهوات العقل فلم يدخل في الآية وهذا من أعجب إعجازها لأن أمور العلوم والفنون"لا تزين"إلا لفريق محدود من الناس – أي لا يزين حب الشهوات منها، وهذا الفريق عادة هم النوابغ العبقريون، وهؤلاء العبقريون

في الحقيقة لا يجدون من العلوم والفنـون"متـاع الحيـاة الدنيا"ولكن مصائب الحياة الدنيا"[1].

وخذ شاهداً ثالثاً من قوله تعالى: ﴿**إِن تُعذبهم فَإِنهم عِبادك وإن تَغْفِر لَهم فَإِنك أَنْتَ الْعزيـز الْحكِـيم**﴾ [2] فـإن قولـه سبحانه"**وإن تغفر**"يوهم أن الفاصلة تكـون الغفـور الـرحيم لمناسبة ما بين الغفران والغفور.ويزيل هذا التـوهم كـونهم مستحقين العذاب دون الغفران فيجـب أن يكـون العزيـز الحكيم، إذ لو جاءت الغفور الرحيم بعد ذكر الغفران لكان في ذلك تسجيل بالغفران.وهم لا يغفر لهـم.فوجـب أن تكـون الفاصلة العزيز الحكيم لأنه لما جاء في تقسيم الشرط الـذي جاء توطئة"**وإن تغفر لهم**"وجب أن يقول: العزيـز لأنـه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يـرد عليـه حكمه، ولا يعارضه فيه فهو ممتنع من القهر والمعارضـة، والعزيز: الممتنع القاهر، ولابد أن يوصف بعد وصفه بالعزة بالحكمة لأنه الحكيم الذي يضع كل شئ في موضعه، وربما ظهر من فعله ما يتوهم الضعفاء أنه جارٍ على غير الحكمـة

(١) السابق: ص ٢٧٦ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة آية ١١٨.



لخفاء وجوه الحكمة، وامتناع علم الغيـب علـى المخلـوق القاصر عن إدراك أسرار الربوبية [(١)].

وخذ شاهداً رابعاً من قوله تعالى: ﴿**أن امشُوا واصـبِروا علَى آلِهتِكُم**﴾ [(٢)] فقد يقول قصار النظر:"**إن المشى في هـذا ليس أبلغ الكلام، ولو قيل بدل ذلك"امضوا"أو"انطلقوا"لكـان أبلغ وأحسن"!.**

ويرد الخطابى على هذا بقوله: بل المشى في هذا المحل أولى، وأشبه بالمعنى.وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية، ولزوم السجية المعهودة، في غيـر انزعـاج منهم، ولا انتقال عن الأمر الأول، وذلك أن المشـى أشـبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله تعالى:"**واصبروا علـى آلهتكم**"والمعنى: كأنهم قالوا: امشوا على هيئتكم، وإلى مهوى أموركم، ولا تعرجوا على قوله، ولا تبالوا به.[(٣)]

---

(١) إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق د/ حفنى محمد شرف ص ٢٢٩.

(٢) سورة ص آية ٦.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (رسالة الخطابى): ص ٣٩،٤٠.

وفي قوله: امضوا، وانطلقوا، زيادة انزعاج ليس في قوله"**امشوا"والقوم لم يقصدوا ذلك، ولم يريدوه"[(١)].**

إن هذه الشواهد الأربعة التى تقدم بيانها تثبت بما لا يدع مجالاً لشك: أن المفردة القرآنية تمتاز بعناية فائقة، ودقة بالغة، بحيث لا يصلح غيرها في المقام الذي ترد فيه.

ولقد أشار الجاحظ في كتابه **(البيان والتبيين)** إلى هذه الدقة الفائقة في اختيار الألفاظ القرآنية، فقال:"**وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن ا تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن"الجوع"إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر.والناس لا يذكرون"السغب"ويذكرون"الجوع"في حال القدرة والسلامة.وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام.والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث".**[(٢)]

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن رسالة الخطابى ص ٤٠ بتصرف.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ: ٢٠/١، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٦٨ ط ٣ بتحقيق عبد السلام هارون.

وخذ شاهداً خامساً من قول الله تعالى – على لسان الهدهد **﴿ وجدتُها وقَومها يسجدون لِلشمس مِن دون اللهِ وزين لهم الشيطان أَعمالهم فَصدهم عن السبِيل فَهم لا يهتَدون، أَلا يسجدوا لِلهِ الذِي يخْرِج الْخَبء فِي السماواتِ والْأَرض ويعلم ما تُخْفُون وما تُعلِنُون﴾** [1].

ففي هذا الحديث نرى **(الهدهد)** يخص **(الخبء)** بالذكر؛ لأن الله سبحانه وتعالى زوده بالمنقار الطويل يستخرج به غذاءه من باطن الأرض، فجاء بلفظة **(الخبء)** الملائمة للمضمون الذي ألهمه الله فطرته.

ومن شواهد الدقة الفائقة المعجزة في اختيار اللفظة اختياراً يؤدى إلى المزاوجة بين المعنى والمبنى والمجانسة بين ظلال الصورة وإطارها قوله تعالى على لسان امرأة فرعون في سورة التحريم: **﴿ رب ابن لِي عِنْدك بيتًا فِي الْجنةِ ونَجنِي مِن فِرعون وعملِهِ ونَجنِي مِن الْقَومِ الظالِمِين﴾** [2].حيث نرى – هنا – أن القرآن الكريم لم يقل – على لسان امرأة فرعون-: **(ونجنى من زوجى وعمله)**،

---

(١) سورة النمل آية ٢٤ – ٢٥.

(٢) سورة التحريم آية ١١.

كما قالت سارة مثلاً: ﴿ **وهذَا بعلِي شيخًا** ﴾ [1] وسبب ذلـك: أن فرعون في هذه الحالة ما دام كافراً، وهى مؤمنـة، فـلا زواج بينهما؛ وإنما تنتفي صلة النسـب، وتنفصـم عـرى الزوجية.يقوى هذا أن نوحاً عليه السلام عندما نـادى ربـه قائلاً: ﴿ **رب إِن ابنِي مِن أَهلِي وإِن وعدك الْحق وأَنْتَ أَحكَم الْحاكِمِين** ﴾ [2] رد ا تعالى عليه بقوله: ﴿ **يانُوح إِنه لَـيس مِن أَهلِك إِنه عملٌ غَير صالِحٍ فَلَا تَسأَلْنِي ما لَيس لَك بِهِ عِلْم إِني أَعِظُك أَن تَكُون مِن الْجاهِلِين** ﴾ [3].ومن هنا ضـرب ا تعالى بامرأة فرعون مثلاً، حتى لا تجئ امرأة يوم البعـث، فتقول: إن زوجى كان كافراً فاتبعته، أو يجئ رجل فيقـول: إن زوجتى كانت كافرة فأغوتنى، أو يجئ أي إنسان فيقـول: إن أباه أو أخاه أو عمه أو خاله ونحو ذلك كان كافراً فأضله وأغواه.

---

(١) سورة هود آية ٧٢.

(٢) سورة هود آية ٤٥.

(٣) سورة هود آية ٤٦.

وتأمل دقة البارئ جل شأنه في قوله تعالى: ﴿**وأنـه هـو رب الشعرى**﴾[1]؛ فإنه سبحانه خص الشـعرى بالـذكر دون غيرها من النجوم؛ وهو رب كل شئ، لأن العرب ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كبشة عبد الشعرى،ودعا قومـه إلـى عبادتها[2].

وفي قوله: ﴿ **وإن من شَيءٍ إلا يسبح بِحمدِهِ ولكِـن لا تَفْقَهون تَسبِيحهم**﴾[3].ولم يقل:"**لا تعلمون**"لما في الفقـه مـن الزيادة على العلم[4].

وقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿ **ياأبتِ إني أخَافُ أن يمسـك عذَاب مِن الرحمن**﴾ [5] فإنه لم يخل هذا الكلام مـن حسـن الأدب مع أبيه، حيث لم يصرح فيه بأن العذاب لاحـق لـه، ولكنه قال:"**إنى أخاف**"فذكر الخوف والمس، وذكـر العـذاب ونكره ولم يصفه بأنه يقصد التهويل بل قصـد اسـتعطافه؛

---

(١) سورة النجم آية ٤٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ٢٨٠ ط دار التراث.

(٣) سورة الإسراء آية ٤٤.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ٢٨٠ ط دار التراث.

(٥) سورة مريم آية ٤٥.

ولهذا ذكر "**الرحمن**" ولم يذكر "**المنتقم**" ولا "**الجبار**" على حد قول الشاعر:

فما يوجع الحرمان من كف حارم

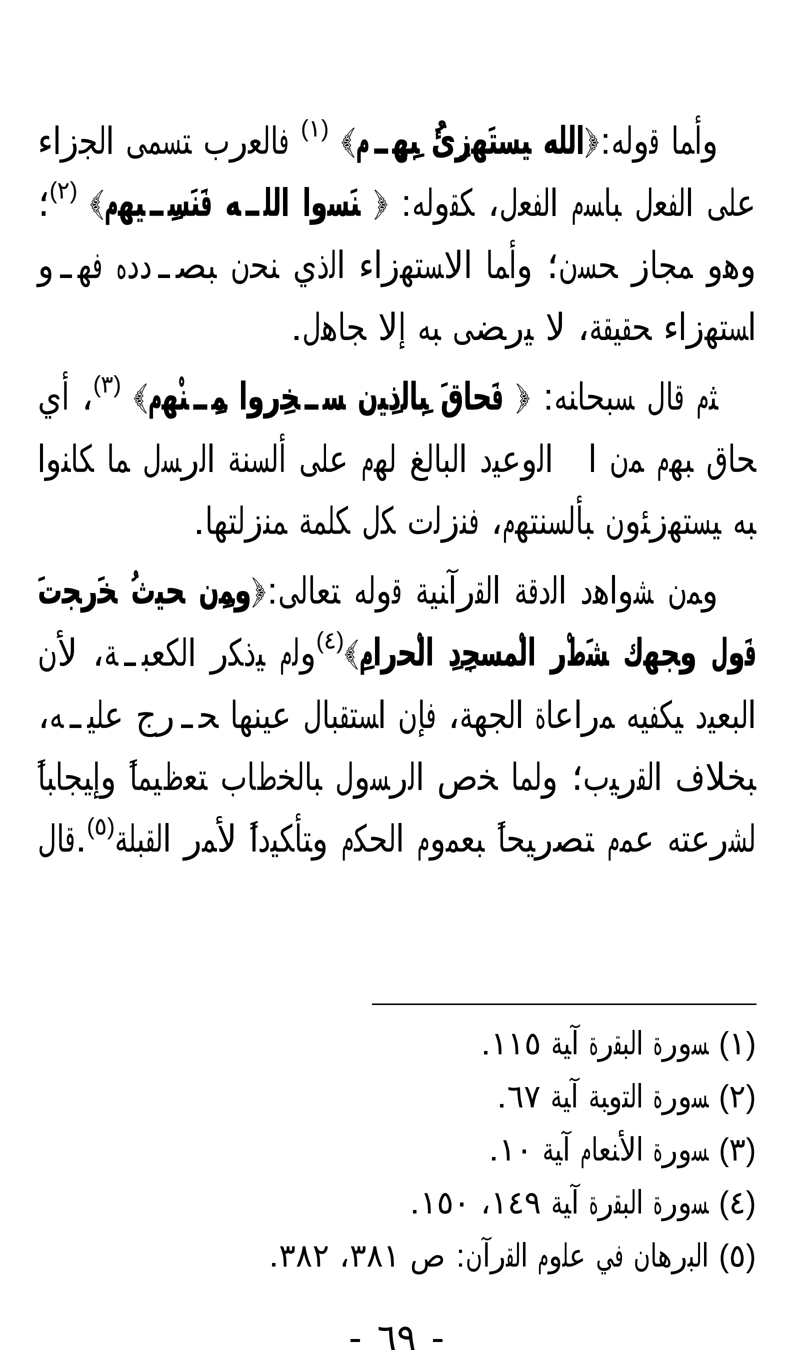
كما يوجع الحرمان من كف رازق

ومنه قوله تعالى: ﴿ **ولَقَد استُهزئَ بِرسلٍ مِن قَبلِك فَحاقَ بِالَذِين سخِروا مِنْهم ما كَانُوا بِهِ يستَهزِئُون**﴾[1] فإنه قد يقال: ما الحكمة في التعبير بالسخرية دون الاستهزاء؟ وهلا قيل:"**فحاق بالذين استهزؤا بهم**"ليطابق ما قبله؟

الجواب أن الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسخرية قد تكون في النفس ولهذا يقولون: سخرت منه كما يقولون: عجبت منه؛ ولا يقال: تجنب ذلك لما في ذلك من تكرار الاستهزاء ثلاث مرات؛ لأنه قد كرر السخرية ثلاثاً في قوله تعالى:﴿**إِن تَسخَروا مِنا فَإِنا نَسخَر مِنْكُم كَما تَسخَرون**﴾ [2]، وإنما لم يقل:"**نستهزئ بكم**"لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء.

(١) سورة الأنعام آية ١٠.

(٢) سورة هود آية ٣٨.



وأما قوله:﴿**الله يستَهزئُ بِهـم**﴾ [١] فالعرب تسمى الجزاء على الفعل باسم الفعل، كقوله: ﴿ **نَسوا اللـه فَنَسِـيهم**﴾ [٢]؛ وهو مجاز حسن؛ وأما الاستهزاء الذي نحن بصـدده فهـو استهزاء حقيقة، لا يرضى به إلا جاهل.

ثم قال سبحانه: ﴿ **فَحاقَ بِالَذِين سـخِروا مِـنْهم**﴾ [٣]، أي حاق بهم من ا الوعيد البالغ لهم على ألسنة الرسل ما كانوا به يستهزئون بألسنتهم، فنزلت كل كلمة منزلتها.

ومن شواهد الدقة القرآنية قوله تعالى:﴿**ومِن حيثُ خَرجتَ فَول وجهك شَطْر الْمسجِدِ الْحرامِ**﴾[٤]ولم يذكر الكعبـة، لأن البعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حـرج عليـه، بخلاف القريب؛ ولما خص الرسول بالخطاب تعظيماً وإيجاباً لشرعته عمم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة[٥].قال

---

(١) سورة البقرة آية ١١٥.

(٢) سورة التوبة آية ٦٧.

(٣) سورة الأنعام آية ١٠.

(٤) سورة البقرة آية ١٤٩، ١٥٠.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ص ٣٨١، ٣٨٢.

تعالى:﴿**قَد نَرى تَقَلب وجهك فِي السـماءِ فَلَنُولينـك قِبلَـةً تَرضاها**﴾[1].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **فَلَبِثَ فِيهم أَلْفَ سنَةٍ إِلـا خَمسِـين عاما**﴾ [2]، فذكر في مدة اللبث السنة، وفي الانفصال العـام؛ للإشارة إلى أنه كان في شدائد في مدته كلهـا، إلا خمسـين عاماً قد جاءه الفرج والغوث؛ فإن السنة تستعمل غالبـاً فـي موضع الجدب؛ ولهذا سموا شدة القحط سنة.ومما يؤكد هذا: أنك ترى سيدنا يوسف عليه السلام في تفسيره لرؤيا الملـك ذكر السنين في الكلام عن الجدب، ثم قال: ﴿ **ثُم يأْتِي مِن بعدِ ذَلِك عام فِيهِ يغَاثُ الناس وفِيهِ يعصِرون**﴾[3].

قال السهيلى: ويجوز أن يكون ا سبحانه قـد علـم أن عمره كان ألفاً؛ إلا أن الخمسين منها كانت أعواماً، فيكـون عمره ألف سنة ينقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة؛ لأن الخمسين عاماً بحسب الأهلة أقـل من خمسين سنة شمسية، بنحو عام ونصف.وابن على هـذا

---

(١) سورة البقرة:آية ١٤٤.

(٢) سورة العنكبوت آية ١٤.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٩.

المعنى قوله: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [1] وقوله: ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ [2]؛ فإنه كلام ورد في موضع التكثير والتتميم بمدة ذلك اليوم، والسنة أطول من العام[3].

إن هذه الدقة المعجزة في الوضع والاستعمال ذات دلالة مؤكدة على أن اللغة القرآنية مختارة منتقاة بما يناسب أغراضها، وبما يؤثر في النفس الإنسانية، ويستميلها إلى الاستجابة والإذعان. وهذا ما لا تمتاز به لفظة أو عبارة على أخرى.

وتستطيع أن تتتبع بقية الألفاظ والعبارات القرآنية فلا تجد إلا ألفاظاً اختيرت إلى معانيها بدقة معجزة، فتقف مردداً قول الله تعالى عن قرآنه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[4].

---

(١) سورة السجدة آية ٥.

(٢) سورة المعارج آية ٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/ ٣٨٦ ط مكتبة دار التراث.

(٤) سورة هود آية ١.

وأحب -في ختام هذا المبحث- أن أشير إلى مسألة مهمة تتصل بالألفاظ القرآنية، هى: أن القرآن الكريم أبعد مايكون عن التركيز على **(البهرجة اللفظية)**، مع أنها عند البشر وبخاصة أصحاب البديعيات- وسيلة جمالية لتحسين اللفظ. فالألوان البديعية كالمقابلة والجناس ومراعاة النظير، ونحوها، لاتذكر في كتاب ا إلا لملحظ بياني يوضح المعنى ويقويه، على شاكلة قوله تعالى: ﴿**إن مع العسر يسرا**﴾ [(١)]، حيث ترى اليسر مقترنا بالعسر، وليس بعيدا عنه، وليس الغرض من هذا أن يكون اقترانهما حلية بديعية، وبهرجا لفظيا؛ بل الغرض هو: بعث الأمل في النفس الإنسانية، وبصورة من صور التأكيد المتمثلة في تصدير الآية ب- **(إن)**، وبصورة من صور التلازم، الذي تدل عليه **(مع)**، فالعسر معه اليسر، لاينفك عنه، فلماذا اليأس؟ ولماذا التشاؤم؟ إن على المرء الذي يعييه العسر أن يتفاءل دائما باليسر والخير والسعة. ولن يغلب عسر يسرين، كما قال الرسول صلى ا عليه وسلم. ومما يؤكد هذا من الوجهة النحوية: أن العسر ذكر مرتين في السورة معرفاً بالألف واللام، ومعلوم

---

(١) سورة الشرح: آية ٦.

أن المعرف إذا كرر كان الثانى هو عين الأول، فنحن أمـام عسر واحد.على حين أن اليسر ذكر أيض-ا فـي السـورة مرتين مثل العسر، ولكنه نكرة، والنكرة إذا أعيد ذكرها كانت الثانية غير الأولى، فنحن في السورة أمام يسرين، لا يسـر واحد، ومن هنا جاء قوله صلى ا عليـه وسـلم: **(لايغلـب عسر يسرين)** وبناء على هذا يتأكـد قولنـا: إن البهرجـة اللفظية ليست مراداً أساسيا في كتاب ا عز وجل؛ بل هناك دائما مع المحسن البديعى إن وجد ملحظ بيانى يوضح المعنى ويقويه، ويحمل سراً قرآنياً عظيما.

وكثيرة هى الألفاظ التى وردت متجـاورة فـي سـياقها القرآنى لإفادة مثل هذه الجوانـب، كالطبـاق بـين الطيـب والخبيث، وبين الحلال والحرام، والنفع والضـر، والسـمان والعجاف، والجائر والمقتصد ... وما إلى ذلك.

الإيحاءات
الرائعة للمفردةالقرآنية

تمتاز اللفظة القرآنية بما تعطيه من إيحاءات رائعة جميلة، فهى تشع بأكثر من دلالة، وتوحى بأكثر من معنى، وكل ذلك مقبول مرضى في الوجدان والعقل.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [(1)]."**تجد جواب الشرط (يعلمه ا) يعطى فيضاً من المعارف التى تزيد على متطلبات الشرط في حد ذاته.ذلك أن الحق جل شأنه يريد أن يبين لعباده أن معرفته لا تقف عند حد، وليست محصورة في علم ما تكنه صدورهم أو تخفيه، بل هو علم أشمل من ذلك وأوسع يحتوى كل ما في السماوات وما في الأرض.كذلك تفيد فاصلة الآية أن علمه هذا يستتبعه قدرة إلهية تحذر من الانتقام ممن يخالف أمره ويعصى حكمه، وهو أمر واقع لا**

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٩.

مناص منه، كما يحمل المعنى تهديداً لمن تسول له نفسـه عصيان ا   ومخالفته.وهكذا يأتى الجواب هادياً إلى معارف ترمى السامع إلى مرامى بعيدة تلج في نفسه، وتدخل إلـى قلبه"[1].

وخذ شاهداً من قوله تعالى: ﴿ **انفِروا خِفَافًا وثِقَالاً ـا**﴾ [2]، فقد احتمل تفسير **(الثقـال)** أن يكـون المقصـود **(الشـباب والشيوخ، أو الأغنياء والفقراء، أو الأعزاب والمتـزوجين، أو الناشطين والكسالى، أو الأصحاء والمرضى).**

فأية شمولية بعد هذا، أنت واجدها في غير هـذا البيـان المعجز؟!

ولعل هذه الشمولية في الدلالة المعنوية هى التى أوحـت إلى المفسرين والكلاميين وأصحاب المذاهب بهذا التباين في الفهم والتخريج والتأويل، وإنها لثروة ما كان المسـلمون أن ينالوا منها شيئاً بغير هذا القرآن العظيم.ومع هذه الشـمولية والإيحاء المشع تجد المعانى قد أديت بأوجز لفظ وأخصره.

---

(١) من علوم القرآن ما يعين على فهمه، د/ السيد عبـد الغفـار: ص ١٩٦ ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية.

(٢) سورة التوبة آية ٤١.

وخذ مثلاً من الإيحاء في قوله تعالى إشـارة إلـى مـآل فرعون وقومه: ﴿ **فَغَشِيهم مِن الْيم ما غَشِيهم**﴾ [(1)].

"**إذ يرى العلماء أن (ما) في هذه الآية أغنت عـن قـول أديب: فغشيهم من اليم دوار، أو صـداع، أو امتنـاع عـن الطعام والشراب والمنام، وما شابه ذلك من كروب البحـر، وكل هذه التعابير لا تفيد مايفيده ما في إبهام (ما غشـيهم) من تفخيم وتهويل**"[(2)].

وترى مثل هذا في قوله تعالى: ﴿ **ولكُم فِـي الْقِصـاص حياةٌ**﴾ [(3)] هذه الآية التى وقف عندها المفسـرون واشـتعلت المعارك القلمية بين الكتاب، حينما تجـرأ أحـد الزنادقـة، وفضـل عليها المثل القائل: **(القتل أنفي للقتل)،** لقد أبـانوا روعتها، وكشفوا اللثام عن بلاغة وشمولية كل لفظة فيهـا، وخاصة لفظة **(حياة)** في سعة دلالتها وشموليتها.ومثل ذلـك كثير في كتاب ا .

---

(1) سورة طه آية ٧٨.

(2) انظر: التعبير الفنى في القرآن، د/ بكرى شيخ أمين: ص ١٨٧ ط دار الشروق بيروت ١٩٧٦ ط ٢.

(3) سورة البقرة آية ١٧٩.

وتأمل قول ا تبارك و تعالى – يقص لنـا قـول إخـوة يوسف عليه السلام-: **﴿ياأبانَا إنا ذَهبنَـا نَسـتَبِقُ وتَركْنَـا يوسفَ عِنْد متَاعِنَا فَأَكَلَه الذئْب وما أَنْتَ بِمؤْمِنٍ لنَا ولَو كُنا صادِقِين﴾** [1]، حيث قالوا: **(وما أنت بمؤمن لنا)**، ولم يقولوا: **(وما أنت بمصدق لنا)** مع أن هذا التعبير يـؤدى المعنـى، فضلاً عن رعاية التجنيس الاشتقاقى مع لفظ **(صادقين)** فـي العبارة، وسبب ذلك أن قولهم: **(وما أنت بمؤمن لنا)** فيه من المعنى الذي يقصدون ما ليس في قولهم: **(وما أنت بمصـدق لنا)**، لأن معنى قولك: **(فلان مصـدق لـى)** أي قـال لـى: صدقت، وأما لفظ**(مؤمن)**فمعناه:مع التصديق: إعطاء الأمن، فلما كان مقصودهم: التصديق وزيادة، وهو طلـب الأمـن، فلذلك ورد التعبير على الصورة التى نراها في الآية، وتركت مراعاة التجنيس اللفظى من أجل قوة المعنـى[2] ومراعـاة التحسينات اللفظية كما نعرف-حلية بديعية، لاقيمة لهـا لـو أهدرت المعنى.

---

(١) سورة يوسف آية ١٧.

(٢) أنظر: الكشاف للزمخشرى: ١/ ٢٥٣ ط عيسى البـابى الحلبـى ١٩٤٨.

قال الزركشي:"**فتأمل هذه اللطائف الغريبـة، والأسـرار العجيبة فإنه نوع من الإعجاز**"[1].أ.ه-.

وهناك من ألفاظ القرآن ما توحى بحروفها المختارة، فهذه الظاء والشين في قوله تعالى: ﴿ **يرسلُ عليكُما شُواظٌ مِن نَارٍ ونُحاس فَلَا تَنتَصِران**﴾ [2] يوحيان بالشدة والقـوة والقهـر، والشين وحدها في قوله: ﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيها سمِعوا لَها شَـهيقًا وهِـي تَفُـور**﴾ [3] والظـاء وحـدها فـي قولـه تعـالى: ﴿ **فَأَنْذَرتُكُم نَارا تَلَظى**﴾ [4] ومثلها الفاء في قولـه تعـالى: ﴿**وأَعتَدنَا لِمن كَذب بِالساعةِ سعِيرا إِذَا رأَتْهم مِن مكَانٍ بعِيدٍ سمِعوا لَها تَغَيظًا وزفِيرا**﴾ [5] فهذه حروف تنقل إلى السـامع صوت النار مغتاظة غاضبة وشديدة.وحرف الصاد في قوله تعالى: ﴿ **إِنا أَرسلْنَا علَيهم رِيحا صرصرا فِي يـومِ نَحـس مستَمِر**﴾ [6] يحمل صوت الريح العاصفة، كما تحمل الخـاء

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٤٥٤.

(٢) سورة الرحمن آية ٣٥.

(٣) سورة الملك آية ٧.

(٤) سورة الليل آية ١٤.

(٥) سورة الفرقان آية ١١ – ١٢.

(٦) سورة القمر آية ١٩.

في قوله تعالى: ﴿ **وترى الفلك فيه مواخر**﴾ [1] صوت الفلك تشق عباب الماء [2].

بل هناك من ألفاظ القرآن ما توحى بما فيها من حـروف مد، وتشديد لبعض حروفها:

اقرأ -مثلاً- قوله تعالى: ﴿**ياأيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضـية، فـادخلي فـي عبـادي، وادخلي جنتي** ﴾ [3].

وتأمل ما تضمنته من مدود: يا – ها – جعى – إلى – خ- لى – في – عبا – دى – خلى – تى وماتضمنت من تشـديد: أيتها – النفس – المطمئنة – جنتى.

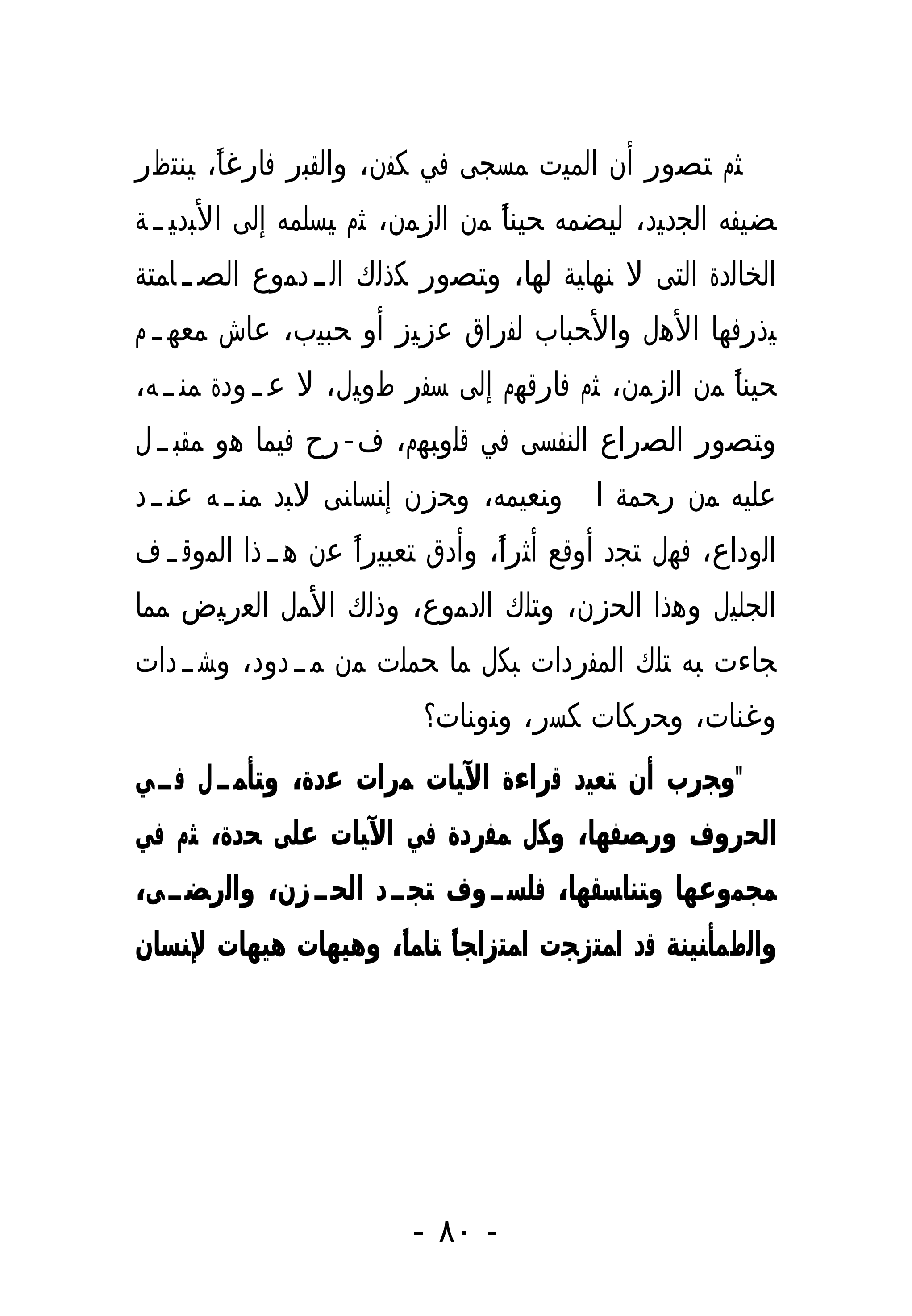
وما تضمنت من حركات الكسر: جعى – ربك – خلـى – في-دى – نتى.

---

(١) سورة فاطر آية ١٢.

(٢) إعجاز القرآن البيانى، حفنى شـرف ص ٢٢٦ مطـابع الأهـرام ١٩٧٠ وانظر من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ص ٦٩.

(٣) سورة الفجر آيات ٢٧ – ٣٠.



ثم تصور أن الميت مسجى في كفن، والقبر فارغاً، ينتظر ضيفه الجديد، ليضمه حيناً من الزمن، ثم يسلمه إلى الأبدية الخالدة التى لا نهاية لها، وتصور كذلك الدموع الصامتة يذرفها الأهل والأحباب لفراق عزيز أو حبيب، عاش معهم حيناً من الزمن، ثم فارقهم إلى سفر طويل، لا عودة منه، وتصور الصراع النفسى في قلوبهم، فرح فيما هو مقبل عليه من رحمة ا ونعيمه، وحزن إنسانى لابد منه عند الوداع، فهل تجد أوقع أثراً، وأدق تعبيراً عن هذا الموقف الجليل وهذا الحزن، وتلك الدموع، وذلك الأمل العريض مما جاءت به تلك المفردات بكل ما حملت من مدود، وشدات وغنات، وحركات كسر، وتنوينات؟

"وجرب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة، وتأمل في الحروف ورصفها، وكل مفردة في الآيات على حدة، ثم في مجموعها وتناسقها، فلسوف تجد الحزن، والرضى، والطمأنينة قد امتزجت امتزاجاً تاماً، وهيهات هيهات لإنسان

– مهما أوتى حظاً من الذوق والأدب – أن يبلغ إلى هـذا المستوى المعجز"[1].

تنفرد اللفظة القرآنية بقيمة جمالية عالية، تجعل المتأمل فيها يخر ساجداً أمام جمال القرآن وجلاله وكماله وإعجازه الذي لا يقدر على مثله مخلوق.

هذه القيمة الجمالية العالية المعجزة هى تجسيد المفردة القرآنية لمعناها، فهى تحكى وتصور – باقتدار – معناها من خلال جرسها، فاللفظة القرآنية دائماً مصورة، ناطقة بمعناها، موحية به.

ومما لا شك فيه أن التوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية من خصائص اللغة العربية، وقد نبه إلى ذلك كثير من اللغويين القدامى والدارسين المحدثين فللدكتور محمد النويهى – مثلاً – دراسة رائدة في هذا المجال[2].

---

(١) انظر: الإعجاز في نظم القرآن، د/ محمود شيخون: ص ٧٨، ٧٩ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨.

(٢) انظر: فصل (الحكاية الصوتية) في كتابه الشعر الجاهلى: منهج في دراسته وتقويمه ١/ ٦٥.

ولكن القرآن الكريم قد استثمر هذه الخصيصة إلى أبعـد حدود الاستثمار، فجاءت ألفاظه متميزة تميزاً تامـاً بجمـال جرسها، وحسن وقعها في السمع، وانسيابها إلى الوجدان من خلال هذا الظل الذي يوحى به اللفظ، فيرسـم معنـاه فـي المخيلة، حتى ولو لم يكن قارئ القرآن الكريم أو سامعه على علم بمعنى المفردة القرآنية مسبقاً.إن جسـم هـذه المفـردة وشكلها وجرسها الحاكى للمعنى يقربـه مـن جـو الدلالـة المرادة.ناهيك عن الدور البارز الذي تقوم به اللفظة القرآنية الحاكية لمعناها في روعة الموسيقى اللفظيـة وجمـال الأداء الصوتى في قراءة القرآن الكريم وترتيله.

تأمل قول ا سبحانه و تعالى: ﴿ **إنا نَخَافُ مِن ربنَا يوما عبوسا قَمطَرِيرا، فَوقَاهم الله شَر ذَلِك الْيومِ ولَقَاهم نَضـرةً وسرورا**﴾ [1] تجد أنه استعمل كلمة العبـوس أدق اسـتعمال ليكشف عن نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فـإنهم يجدونـه عابساً مكفهراً، وما أشد سواد اليوم الذي يفقد فيه المرء الأمل والرجاء.كما أن كلمة قمطريرا بجوارها وثقل طائها تشـعر بثقل هذا اليوم، وفي كلمة النضرة والسرور تعبير دقيق عن

([1]) سورة الإنسان آية ١٠ – ١١.

المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين، وما يبدو على وجوههم من الإشراق، وعما يملأ قلوبهم من البهجة [1].

ومن الألفاظ التى اختيرت بدقة فائقـة لتـؤدى المعنـى، وتصور ما حدث أو سيحدث أحسن تصوير وأبلغـه: لفظـة **(يذبحون)** في قوله تعالى: ﴿ **وإذْ نَجيناكُم مِـن آل فِرعـون يسومونَكُم سوء الْعذَابِ يذَبحون أَبنَاءكُم ويستَحيون نِساءكُم وفِي ذَلِكُم بلَاء مِـن ربكُـم عظِـيم**﴾ [2].فاختـار سـبحانه الفعل"**يذبحون**"ليصور ما حدث، وضعف عينه للدلالة علـى كثرة القتلى من بنى إسرائيل يومئذ ولا نحس بهذا المعنى إذا وضعنا مكانه كلمة يقتلون [3] فهى لفظة قوية اختيرت لمعنى قوى، وتصور بظلها وجرسها وتشديد الباء فيهـا، وكونهـا مضارعاً يفيد التجدد: العنف والشدة التى كانت تحدث لبنـى إسرائيل من الطاغية فرعون.

---

(1) إعجاز القرآن البيانى، د/ حفنى شرف: ص ٢٢٣ مطابع الأهـرام التجارية ١٩٧٠.

(2) سورة البقرة آية ٤٩.

(3) السابق والصفحة نفسها.

وانظر إلى لفظة **(كبكب)** في قوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبوا فِيهـا هم والْغَاوون، وجنُود إِبلِيس أَجمعـون**﴾ [1] فاللفظـة هنـا تصور معناها أروع تصوير؛ إذ الكبكبة: هى تكرير الكـب، فجاء التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنـه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها.

والحكاية للمعنى من خلال جرس المفردة نجد لها شـاهداً أيضاً في قوله تعالى: ﴿ **ذُقْ إِنكَ أَنْـتَ الْعزيـز الْكَـرِيم**﴾ [2] فلفظة **(ذق)** إذا وقفنا عند صوتها وخصوصاً **(قافهـا)** التـى يلتصق اللسان حين ينطقها بسـقف الفـم، ويحـدث صـوتاً مخنوقاً، يصور الغصة التى يعانى منها الأثيم المتكبر وهـو يعتل إلى سواء الجحيم.

وتأمل قوله تعالى ﴿**إِذَا رجتْ الْأَرض رجـا**﴾ [3]، وقولـه تعالى: ﴿**إِذَا زلْزِلَتْ الْأَرض زِلْزالَها**﴾ [4].

---

(1) سورة الشعراء آية ٩٤ – ٩٥.

(2) سورة الدخان آية ٤٩.

(3) سورة الواقعة آية ٤.

(4) سورة الزلزلة آية ١.

فالآيتان تصوران جانباً من مشاهد يوم القيامـة، ولفظـة **(رجت)** و**(زلزلت)** لفظتان تصوران دلالتهما فـي أصـولهما اللغوية.

وانظر إلى قوله تعالى في وصف كل من الليل والصبح: **﴿والليل إِذَا عسعس، والصبح إِذَا تَنَفس﴾** [1] ألا تشم رائحـة المعنى واضحة قوية من كل من هاتين الكلمتين: عسـعس، وتنفس؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالـك صـورة المعنـى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة؟

وهل في مقدورك أن تصور إقبال الليل، وتمدده في الآفاق المترامية بكلمة أدق وأدل من"**عسعس**".

وهل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليـل وسجنه بكلمة أروع من"**تنفس**"؟

إنك لو فتشت في معاجم اللغة وقواميسها لا تجد فيها أدق من هاتين الكلمتين في التعبير عن هذين المعنيين[2].

---

(1) سورة التكوير آية ١٧ – ١٨.

(2) من روائع القرآن لمحمد سعيد البوطى: ص ١٤٢، ١٤٣.

وتأمل لفظة**(اثاقلتم)**في قوله تعالى:**﴿يأأيها الذين آمنُوا ما لكُم إذَا قِيلَ لكُم انفِروا فِي سبِيلِ اللهِ اثاقَلْتُم إلى الْأرض﴾**[1].

فإذا تأملت هذه اللفظة **(إثاقلتم)** وجدت حروفها قد صيغت بتناسق يجسد معناها، فهذه الثاء المشددة الثقيلة الممدودة، وهذه القاف المقلقلة، بالإضافة إلى حرف اللام والميم اللذين يساهمان في رسم صورة الإنسان الملتصق بالأرض، ولا يكاد يريم عنها[2].

وانظر إلى قوله تعالى:**﴿فَمن زحزح عن النار وأُدخِلَ الْجنةَ فَقَد فَاز﴾**[3] تجد كلمة"**زحزح**"تصور بظلها وجرسها مشهد الابعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات،وما يصحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه،ولو فتشت في جميع معاجم اللغة

---

(1) سورة التوبة آية ٣٨.

(2) التصوير الفنى في القرآن: سيد قطب: ص ٦٧، ط، دار الشروق بيروت بدون تاريخ.

(3) سورة آل عمران آية ١٨٥.

وقواميسها لا تجد كلمـة تصـور هـذا المشـهد إلا كلمـة "**زحزح**"[1].

وانظر إلى القرآن حينما يصف دعوة امرأة العزيز للنسوة اللائى تحدث-ن، منتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عـن نفسه، إلى جلسة لطيفة رائعة في بيتها لتطلعهن فيـه علـى جمال يوسف الأخاذ حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه.لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام، فهذا إنما يصور شـهوة الجـوع، وينتقل بالفكر إلى"**المطبخ**" بكل ما فيه مـن ألـوان الطعـام ورائحته وأسبابه.وهى صورة لا تتفق مع ما تريد الآيـة أن تضعه أمام خيالك من مظهر المجلس الأنيق الذي يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيـه علـى حـين غـرة: يوسف.فانظر إلى الكلمة التى عبر بها البيان القرآنـى عـن الطعام في هذه الحال: ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**﴾ [2]"**متكأ**"كلمة تصور لك ذلك النوع مـن الطعام الذي إنما يقدم إلى المجلس تفكهاً وتبسطاً، وتجمـيلاً

---

(1) الإعجاز في نظم القرآن د/ محمود شيخون: ص ٧٩.

(2) سورة يوسف آية ٣١.

للمجلس، وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، ولذلك فالشأن فيـه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء.فأي تعبيـر هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى إلى هذا الحد غير تعبير القرآن الكريم[1].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وجوه يومئذٍ نَاضِرةٌ، إلى ربها نَاظِرةٌ، ووجوه يومئذٍ باسِرةٌ، تَظُن أن يفْعلَ بِها فَـاقِرةٌ**﴾ [2] تجد الآية ترسم لوحتين إحداهما للسعداء، والأخرى للأشقياء وتجد كلمة"**ناضرة**"قد استقلت في لوحة السـعداء بتصـوير، أزهى لون وأبهره، كما استقلت كلمة"**باسرة**"في لوحة الاشقياء برسم أمقت لون وأنكاه[3].

وانظر إلى القرآن حينما صور لنا كيف أنه عز وجل قـد أهلك عاداً بريح عاتية داهمتهم فأخذت تقتلعهم مـن الأرض اقتلاعاً، وتطيرهم في الفضاء، شبه جسومهم الطوال وهـى تتطاير من الأرض في سهولة وسرعة بنخيل طـوال، قـد

([1]) من روائع القرآن للبوطى ص ١٤٤ وأنظر: الإعجاز فـي نظـم القرآن: ص ٧٩، ٨٠.

([2]) سورة القيامة الآيات ٢٢ – ٢٥.

([3]) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٣٣٥.

نخرت، واقتلعت جذورها من باطن الأرض، فهى قائمة على ظاهرها لا يمسكها أي شئ.فانظر كيف عبر عن ذلك بقوله: ﴿**إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر**﴾[1] وتأمل كلمة"**منقعر**"كلمة واحدة أتى بها التعبير القرآنى لتصوير رائع، وجعلها تدل في إشراق جميل على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت، فهى تدل على أن النخيل قد انقطعت أصولها من باطن الأرض ولم تعد إلا عمدانا قائمة على سطحها، إن هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة يهتز لها رأس البليغ طرباً.[2]

وتأمل قوله تعالى واصفاً ملائكة النار: ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد**﴾ [3] وقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [4]، فلفظة **(غلاظ)** تعبر عن دلالتها أدق تعبير، بسبب إيقاعها الخاص من خلال

---

(1) سورة القمر آية ١٩ – ٢٠.

(2) الإعجاز في نظم القرآن: ص ٨٠.

(3) سورة التحريم آية ٦.

(4) سورة آل عمران آية ١٥٩.

هذه الظاء التى يجد اللسان ثقلاً وغلاظة في نطقها، ومن ثـم فإنها تحكى لنا صورة ملائكة العذاب وما في هذه الصـورة من ضخامة.فللكلمة قوة إيقاعية ملموسة، وتنفي عن رسـول ا صلى ا عليه وسلم هذه الصفة، إذ لم يكن عليه الصلاة والسلام فظ-ا ولا غليظ القلب، بـل كـان سـمحا، ودودا، ورحمة للعالمين.

وتأمل لفظة**(يصطرخون)**في قوله تعالى:﴿**وهم يصطَرِخُون فِيها**﴾ [1].

إن هذا الفعل المضارع ماضيه **(اصطرخ)**، وهذا الماضى مجرده **(صرخ)**، زيدت عليه الطاء، وهذه الطاء الزائدة مـا هى إلا تصوير لثقل الصراخ المرير الـذي يتضـاغى فيـه المجرمون من ألم العذاب في نار جهنم؛ فهو ليس صـراخاً، بل اصطراخاً عظيماً، لا تبقى معه قوة لدى هذا المخلوق إلا استنفرها من أعماقه.إن هذا التصوير الجميل مبعثه صـياغة المفردة وشكلها وعلاقة حروفها بعضها ببعض[2].

---

(1) سورة فاطر آية ٣٦.

(2) انظر: الإعجاز الفنى في القـرآن، د/ عمـر السـلامى: ص ٩٠ مؤسسة عبد الكريم تونس ١٩٨٠.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ **فَمثَلُه كَمثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحمِـلْ علَيـهِ يلْهثْ أَو تَتْركْه يلْهثْ ذَلِك مثَلُ الْقَومِ الَّذِين كَـذَّبوا بِآياتِنَـا فَاقْصصِ الْقَصص لَعلَّهم يتَفَكَّرون**﴾ [1].

لقد ضرب الله هنا مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضـال، كالكلـب إن طردتـه وزجرته فإنه يلهث، وإن تركته على حاله أيضاً يلهث!! [2].

ثم تأمل هذه اللفظة العجيبة"**الكلب**"لقد استقلت برسم لوحـة فنية رائعة أظهرت على صفحتها ضلال المكذب بآيـات الله في جميع أحواله إذ كل شئ يلهث، فإنما يلهث من إعيـاء أو عطش أو علة خلا الكلب فإنه يلهث في جميع أحوالـه، فـي حال الدلال، وفي حال الراحة، وفي حال الصحة والمـرض وحال الرى والعطش.فانظر إلى هذه الكلمة التـى اختارهـا القرآن أنها تدل في إشراق وروعة على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت، وتأمل هـذه الكلمـة وأنعـم النظر فيها هل يصلح مكانها غيرها؟.

---

(1) سورة الأعراف آية ١٧٦.

(2) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧٢٦ تحقيق السيد أحمد صقر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلب أهل الكهف، لم يذكر في القرآن إلا مضافا إليهم **(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد)** **(ثلاثة رابعهم كلبهم..الخ)** وفي هذا تشريف له، لأنه أضيف إلى فتية آمنوا بربهم فزادهم الله هدى.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون**﴾[1].

كيف دل على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر[2].

وتأمل قوله تعالى في وصف ناره الموقدة بأنها: ﴿ **تطلع على الأفئدة**﴾[3] أي توفي عليها وتشرف.يقال: طلع الجبل واطلع عليه.إذا علا

فوقه.ثم أنعم النظر في هذه الكلمة العجيبة"**الأفئدة**"إنها تصور لك هؤلاء القوم بصورة الأموات الأحياء، لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فأخبرنا القرآن بهذه اللفظة

---

(1) سورة يونس آية ٤٢ – ٤٣.

(2) تأويل مشكل القرآن: ص ٧، والإعجاز في نظم القرآن ص ٨١.

(3) سورة الهمزة آية ٧.

أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون.فهل هناك في اللغـة العربية على اتساع مفرداتها لفظة تصور لك الشئ ميتاً حيـاً إلا هذه اللفظة؟

وتأمل لفظ**(يسكن)**في قوله تعالى:**﴿إِن يشأْ يسكِن الـريح فَيظْلَلْن رواكِد علَى ظَهرِهِ﴾**[1] وكلمة"**تسوروا**"في قوله تعـالى: **﴿وهـلْ أَتَـاك نَبـأُ الْخَصـمِ إِذْ تَسـوروا الْمِحـراب﴾**[2] وكلمة"**يسفك**"في قوله تعالى:**﴿وإِذْ قَالَ ربك لِلْملَائِكَةِ إِني جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجعلُ فِيها من يفْسِد فِيها ويسـفِك الدماء ونَحن نُسبح بِحمدِك﴾**[3] وكلمة"**مكبا**"في قولـه تعـالى: **﴿أَفَمن يمشِي مكِبا علَى وجهِهِ أَهدى أَمن يمشِي سوِيا علَى صِراطٍ مستَقِيمٍ﴾**[4] وقوله"**مستسلمون**"في قوله تعالى:**﴿ما لَكُـم لا تَنَاصرون، بلْ هم اليوم مستَسلِمون﴾**[5] تأمل ذلك تجد أن

---

(١) سورة الشورى آية ٣٣.

(٢) سورة ص الآية ٢١.

(٣) سورة البقرة آية ٣٠.

(٤) سورة الملك آية ٢٢.

(٥) سورة الصافات آية ٢٥ – ٢٦.

الكلمات وضعت في موضعها المقسوم لها لتجعـل المعنـى المعقول مصوراً تكاد العين تبصره، والأيدى تلمسه[1].

وهكذا يتضح من جميع الشواهد القرآنية التى تقدم ذكرها وتحليلها: روعة تجسيد المفـردة القرآنيـة لمعناهـا بظلهـا وجرسها وإيحائها، كما يتضح جمال القرآن وجلاله وكمالـه في إيثار الكلمة المعبرة الموحية، وتفضيل اللفـظ المصـور للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور وأقواه.

وفـي إمكـان المتتبـع لوقـع اللفظـة القرآنيـة فـي السمع،وتجسيدها لمعناها بظلها وجرسها وإيحائها، أن يظفـر بعشرات الأمثلة غير ما سبق ذكره، فمثلا: حينما نقرأ سورة النازعات نجد في بدايتها تصويرا رائعا ليوم القيامة، بأنه يوم شديد الهول، ترجف فيه الراجفة، تتبعها الرادفة، وأن القلوب في هذا اليوم واجفة، والأبصار خاشعة.فكـل لفظـة تجسـد معناها تمام التجسيد.

وما من أحد يتلو هذا المشهد في المصحف الشـريف،إلا يحس قلبه بالزلزلة والرجفة والهول والاضـطراب، ويهتـز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش، ويتهيأ لإدراك ما

---

(١) إعجاز القرآن البيانى، د/ خفنى شرف: ص ٢٢٥، ٢٢٦.

يصيب القلوب يوم البعث من الفزع الذي لا قرار معـه ولا ثبات.وقد اشتمل هذا المشهد أيضا على لفظة صورت نفخـة البعث والحشر **(وهى النفخة الثانية)** بأنها زجـرة واحـدة، وهو تعبير يوحى بالسرعة والقوة وشدة الهول.

كذلك وردت في سورة النازعـات**(الآيـة ٣٤)** عبـارة **(الطامة الكبرى)** والمراد بها يوم القيامة، وهى عبارة قويـة بحروفها وحركاتها ومعناهـا، وتصـور بظلهـا وجرسـها وإيحائها صورة يوم القيامة الذي يطم على كل أمـر هائـل مفظع..الأمر الذي يجعل من يقرأ هذه العبـارة أو يسـمعها يدرك أن الحياة الدنيا متاع، ولكنه متاع ينتهى إلى أجله، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شئ، وطمت على كل شئ..على ذلك المتاع الموقوت، وعلى الكون المتين المقدر، المنظم على السماء المبنيـة، والأرض المـدحوة، والجبـال المرساة، والأحياء جميعا، والحياة كلها،وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع.وهكذا ترى لفظة**(الطامة)** قد صورت بدقة فائقة وتجسيد تام يوم القيامة يوما أكبر من كـل شـئ،ويوما يطم على كل شئ،ويعم كل شئ.

ومثل هذا اللفظة في تجسيد المعنـى لفظـة **(الصـاخة)** الواردة في سورة عبس **(الآية ٣٣)**، فهى لفظة ذات جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخا شديدا!

وقد مهد القرآن الكريم بهذا الجرس العنيف الـذي مثلتـه وصورته لفظة

(الصاخة) للمشهد الأخروى الذي عرضـته و صـورته الآيات التى جاءت بعد هذه اللفظة، والذي يفر فيـه المـرء وينسلخ من أقرب الناس إليه، وألصقهم به، فهـو يفـر مـن أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه؛ لأن هذه الصاخة تمـزق هذه الروابط تمزيقا، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا، ولاعجـب؛ فلكل واحد من الناس يومئذ شأن يغنيه.

وأنت لو قرأت سورة القلم مثلا، وما اشتملت عليـه مـن صفات لذلك الكافر الذي وقف من رسول ا صلى ا عليه وسلم موقف العداء، لوجدت كل صفة مـن هـذه الصـفات مجسدة للموصوف تمام التجسيد؛ فهذا الكافر لضعفه ومهانته، حلاف مكابر، مشاء بالنميمة بين الناس، ومناع يمنع ما عليه وما لديه من الخير، معتد فـي تنـاول مـا أحـل ا لـه،

يتجاوزالحد المشروع، أثيم يتناول المحرمات، عتل فظ غليظ جاف متنطع،زنيم دعي في القـوم فـاحش لئـيم مشـهور بالسوء.فكل لفظة وكل صفة تجسد المعنى تمـام التجسـيد، ببنائها اللغوى، وجرسها الصوتى، وإيحائها القوى المثير.

ومثل ذلك عبارة **(أنلزمكموها)** الواردة في الآية ٢٨ مـن سور هود، فإنها تصور بمعناها وظلها وجرسها وإيحائها جو الإكراه، بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشد بعضهاإلى بعض؛ كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشـدون إليـه وهم منه نافرون.

وكذلك لفظة **(ليبطئن)** الواردة في الآية ٧٢ مـن سـورة النساء، فإنها ترسم في الذهن صورة التبطئـة فـي جـرس العبارة كلها، وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها! وهذا يتوافق تماما مع الواقع الـذي يعيشه المخاطبون بهذه الآية الكريمة.

من معالم الجمال البارزة في القرآن الكريم مانراه فيه من وضع اللفظ في الموضع الذي يليق به، وإيثاره وتقديمه على مرادفه حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطـلاوة، وفاتت تلك الحلاوة.

خذ لذلك شاهداً من قوله تعالى: **﴿ما جعلَ الله لِرجلٍ مِـن قَلْبين فِي جوفِهِ﴾**[1]،وقوله في موضع آخر:**﴿ إني نَذَرتُ لَـكَ ما فِي بطْنِي محررا﴾** [2] فتراه استعمل **(الجوف)** في الأول، و**(البطن)** في الثانى مع اتفاقهما في المعنى، ولـو اسـتعمل أحدهما في موضع الآخر لم يكن له من الحسن والقبول فـي الذوق مالاستعمال كل واحد منهما في موضعه[3].وهكذا نرى القرآن يدقق في اختيار اللفظة، ويأتى بها، مراعياً المقـام إذا اقتضى لفظا بعينه.

وتأمل قوله تعـالى: **﴿ الـذِين ينْفِقُـون فِـي السـراءِ والضراءِ﴾**[4] كيف آثر التعبير بالفعل المضارع **(ينفقون)** لما تطلب المقام التعبير به، إذ المقصود هو بيان فضـل الـذين يتصدقون بأموالهم في اليسر والعسر.

([1]) سورة الأحزاب آية ٤.

([2]) سورة آل عمران آية ٣٥.

([3]) البرهان في علوم القرآن للزركشـى: ٢/ ١١٨، ١١٩ ط عيسـى البابى الحلبى.

([4]) سورة آل عمران آية ١٣٤.

فاستعمال الفعل **(ينفقون)** مناسب كل المناسبة في موقعه هذا؛ لأن الفعل – في صيغته المضارعة – يدل على التجدد والحدوث، ولم يقل"**المنفقون**"وهو تعبير بالاسم"**وهو إيجاز للاسم والفعل معاً في لفظتى (الذين ينفقون)**"، وإنما لجأ القرآن إلى التعبير بالفعل لأن الإنفاق أمر فعلى من شأنه أن يحدث ويتجدد من وقت لآخر سواء أكان في الشدة أم في الضيق، ولن يتأتى هذا المعنى الذي تهدف الآية إليه إلا مع استعمال الفعل [1].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **إنما الْمؤْمِنُون الذِين آمنُوا بِاللهِ ورسولِهِ**﴾ [2] حيث آثر المجئ بلفظ"**المؤمنون**"اسماً لأن المقام يقتضيه، ولم يأت بالفعل فمن المسلم به أن الإيمان له حقيقة ثابتة؛ فأتى لفظ"**المؤمنون**"على الاسمية، ولم يأت على الفعلية، لأن حقيقة الإيمان قائمة ما دامت مقتضياتها قائمة، واستعمال اللفظ على صيغة الاسم يدل على الثبوت والاستمرار، وهو موافق لطبيعة الإيمان؛ فهو ليس حدثاً متجدداً أو متغيراً.والآية جاءت في معرض الرد على وفد

---

(1) من علوم القرآن: مايعين على فهمه: ص ١٩٦.

(2) سورة الحجرات آية ١٥.

من بنى أسد، قدموا المدينة فـي سـنة جـدب، وأظهـروا الشهادتين، وكانوا يقولـون لرسـول ا : أتينـاك بالأثقـال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان..يريدون الصدقة، ويمنون على الرسول – كما تشـير كتـب أسـباب النزول إلى ذلك – ويقول المفسرون: إن هؤلاء هم الأعراب الذين لم يستحكم الإيمان في قلوبهم.

وأراد ا تعالى أن يبين لهم أن الإيمـان حقيقـة ثابتـة بالتصديق، واطمئنان القلب، وليس لفظاً يقال باللسان، وليس مناً على الرسول لغرض من الأغراض فجاءت الآيـة فـي صيغة لفظية تحمل تلك المعانى[1].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **كُلما أَضاء لَهم مشَوا فِيهِ وإِذَا أَظْلَم علَيهم قَاموا**﴾ [2].

وتأمل دقة الاختيار للألفاظ، ووضع اللفظ فـي موضـعه المناسب،- وفي المقام الذي يقتضيه ويستوجبه، فـأتى قبـل الفعل **(أضاء)** بـ **(كلما)**، وقبل الفعل **(أظلم)** ب- **(إذا)**، ولم

([1]) انظر صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى: ٢٣٧/٣ ط دار القرآن الكريم بيروت.

([2]) سورة البقرة آية ٢٠.

يفعل العكس، فلم يقل: **(إذا أضاء لهم مشوا فيه، وكلما أظلم عليهم قاموا)**.

وهناك أكثر من سبب لهذا:

الأول: أن تكرار الإضاءة يستلزم تكرار الإظلام، فكان تنويع الكلام أعذب.

والثانى: أن مراتب الإضاءة مختلفة متنوعة، فذكر"**كلما**"تنبيهاً على ظهور التعدد وقوته لوجوده بالصورة والنوعية، والإظلام نوع واحد، فلم يؤت بصيغة التكرار لضعف التعدد فيه، بعـدم ظهـوره بالنوعيـة، وإن حصـل بالصورة.

الثالث: قاله الزمخشرى، وفيه-كما يقول الزركشى-تكلـف-أنهم لما اشتد حرصهم على الضـوء المسـتفاد مـن النور، كانوا كلما حدث لهم نور تجـدد لهـم باعـث الضوء فيه، لا يمنعهم من ذلك تقدم فقـده واختفـاؤه منهم، وأما التوقف بالظلام فهو نوع واحد.

وهذا قريب من الجواب الثانى، لكنه بمادة أخرى.ويفترقان بأن جواب الزمخشرى يرجع التكرار فيه إلى جواب"**كلمـا**"لا إلى مشروطها الذي يليها ويباشرها، فطلب تكراره – وهـو

الأولى في مدلول التكرار، والجواب المتقدم يرجع إلى تكرار مشروطها، يتبعه الجواب من حيث هو ملزومه، وتكرره فرع تكرر الأول.

الرابع: أن إضاءة البرق منسوية إليه وإظلامه ليس منسـوباً إليه، لأن إضاءته هى لمعانه، والظلام أمر يحدث عن اختفائه؛ فظلام الأماكن كظلام الأجرام الكثائف، فأتى بأداة التكرار عند الفعل المتكرر من البرق، وبـالأداة التى لا تقتضى التكرار عند الفعل الذي ليس متكـرراً منه، ولا صادراً عنه.

الخامس: ذكره ابن المنير – أن المراد بإضاءة البرق الحياة، وبالظلام الموت، فالمنافق تمر حاله في حياته بصورة الإيمان، لأنها دار مبنية على الظاهر، فإذا صار إلـى المـوت رفعـت لـه أعمالـه، وتحقـق مقامـه، فتستقيم"كلما"في الحياة، و"إذا"في الممات، هكذا كقـول النبى ﷺ:"اللهم أحيينى ما دامت الحياة خيـراً لـى، وأمتنى إذا كانت الوفاة خيراً لى"، فاستعمل مع الحياة

لفظ التكرار والدوام، واستعمل مع لفظ الوفـاة لفـظ الاختصار والتقييد[1].

وقيل: إن ذلك لأحد معنيين: إما لأن الحياة مأثورة لازدياد العمل الصالح الذي الهمم العاليـة معقـودة بـه، فعـرض بالاستكثار منه، والدوام عليه، ونبه على أن الموت لا يتمنى، ولكن إذا نزل وقته رضى به.وإما لأن الحياة يتكرر زمانها، وأما الموت مرة واحدة.

وجواب آخر، أن الكلام في الأنوار هو الأصل المستمر، وأما خفقان البرق في أثناء ذلك فعوارض تتصل بالحـدوث والتكرار، فناسب الإتيان فيها"**بكلما**"وفي تلـك بـ-"**إذا**"، وا أعلم[2].

ومن دقة اختيار ألفاظ القرآن والتمييز بين معانيها ما نجده في التفرقة في الاستعمال بين لفظ"**يعلمون**"ولفظ"**يشـعرون**"، وقد كثر دورانهما في القرآن فنجد أنه في الأمور التى يرجع إلى العقل وحده في الفصل فيها يستعمل كلمة"**يعلمون**"لأنهـا صاحبة الحق في التعبير عنها.وأما الأمـور التـى يكـون

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٤-٢٠٢-٢٠٦ ط مكتبة دار التراث.

(2) السابق: ٢٠٦/٤.

للحواس مدخل في شأنها يستعمل كلمة يشعرون كقوله تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾**[1] فالأحياء ممن يحس بهم، وكقوله تعالى: **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** [2]، والافساد في الأرض بالغى والطغيان واستغلال الإنسان للإنسان، وعدم توفر العدالة الاجتماعية أمور يشعر بها ويحسها الإنسان إذ يرى بعينه فساد غيره، ويسمع بأذنيه شتائم الناس للناس وغيبتهم لهم، وكقوله تعالى: **﴿ قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾** [3] وقوله: **﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾** [4] فالمتأمل في هذه الآيات وغيرها مما استعمل فيها"**يشعرون**"يجد أن الألفاظ مستعملة في موضعها التى

---

(1) سورة البقرة آية ١٥٤.

(2) سورة البقرة آية ١١ – ١٢.

(3) سورة النمل آية ١٨.

(4) سورة القصص آية ١١.

خلقت له، والتى معها يكون المعنى أوضح مما لو اسـتعمل غيرها مما يؤدى معناها مكانها[1].

ومن مظاهر الدقة الفائقة في استعمال الألفـاظ بـالقرآن الكريم: استعماله الدقيق لألفاظ**(الفؤاد)**و**(اللـب)**و**(القلـب)**،إذ يحس المتأمل أنها مستعملة في أماكنها التى لو غيرت فيهـا لتأثر المعنى بهذا التغيير،فنجد لفظ الفؤاد إذا اسـتعمل فـي القرآن فلابد أن يكون مراداً به تلك الآلة التـى منحهـا ا الإنسان ليفكر بها ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة:﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾[2]وقوله:﴿ **ما كذب الفـؤاد مـا رأى**﴾ [3]، وقوله: ﴿ **نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة**﴾ [4].

واللب وجمعه الألباب، لم يستعمل في القـرآن إلا جمعـاً يراد به التفكير الذي هو من عمل تلك الآلة، كقوله تعـالى:

---

(1) إعجاز القرآن البيانى د/ حفنى شرف ص ٢٢٣، ٢٢٤ ط الأهرام التجارية ١٩٧٠.

(2) سورة الإسراء آية ٣٦.

(3) سورة النجم آية ١١.

(4) سورة الهمزة آية ٦ – ٧.

﴿ **لقد كـان فِـي قصصِـهم عِبـرةٌ لِـأُولِي الألْبـابِ**﴾ [١]

وقوله تعالى: ﴿ **وما يذكر إلا أُولُوا الألْبابِ**﴾ [٢].

أما القلب:وهو أكثر هذه الألفاظ دوراناً في القـرآن فـإذا أطلق فإنه يكون المراد به الإرادة التى تحكم الفكر.انظر إلى قوله تعالى:﴿**لهم قُلُوب لا يفْقَهون بِهـا ولهـم أَعـين لـا يبصِرون بِها**﴾[٣]وقوله:﴿**فَإِنها لَا تَعمى الْأَبصار ولَكِن تَعمـى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصدورِ**﴾[٤]كما أنه أداة الوجدان:يدل علـى ذلك قوله تعالى:﴿**إِنما الْمؤْمِنُون الَّذِين إِذَا ذُكِر اللـه وجِلَـتْ قُلُوبهم**﴾[٥]كما أنه أداة الإرادة كما يتضح من قولـه تعـالى: ﴿**إِن كَادتْ لَتُبدِي بِهِ لَولَا أَن ربطْنَا علَى قَلْبِها لِتَكُـون مِـن الْمؤْمِنِين**﴾[٦]وقوله تعالى:﴿ **ولِيربِطَ علَى قُلُوبِكُم ويثَبتَ بِـهِ الْأَقْدام**﴾[٧]وقوله:﴿**ولَيس علَيكُم جنَاح فِيما أَخْطَأْتُم بِهِ ولَكِن ما**

([١]) سورة يوسف آية ١١١.

([٢]) سورة البقرة آية ٢٦٩.

([٣]) سورة الأعراف آية ١٧٩.

([٤]) سورة الحج آية ٤٦.

([٥]) سورة الأنفال آية ٢.

([٦]) سورة القصص آية ١٠.

([٧]) سورة الأنفال آية ١١.

تَعمدتْ قُلُوبكُم﴾[1]فالقرآن يستعمل القاب فيما يطاق عليه اليوم كلمة العقل، وجعله في الجـوف مـرة فـي قولـه تعـالى: **﴿ما جعلَ الله لِرجلٍ مِن قَلْبين فِي جوفِهِ﴾**[2]وفي الصدر حينا كما في قوله:**﴿ولكِن تَعمى الْقُلُوب الِتي فِي الصدورِ﴾**[3] [4].

وهكذا يتضح مما تقدم من شواهد أن اللفظة في القـرآن الكريم تأتى دائما مطابقة تمام المطابقة للمقام الذي تذكر فيه، وهذا كما سبق القول معلم رائع، من معالم الجمال في الأداء القرآنى لما يورده من معانٍ ومقاصد.

إن القرآن الكريم كلام ا – ما في ذلك شك – وا وحده هو العليم الخبير بمقاصد الكلام الـذي أنزلـه، وبـالمواقع الموضوعية واللغوية الصالحة لإحداث الأثر النفسـى فـي المتلقى لكلامه قارئاً وسامعاً.

([1]) سورة الأحزاب آية ٥.

([2]) سورة الأحزاب آية ٤.

([3]) سورة الحج آية ٤٦.

([4]) إعجاز القرآن البيانى، د/ حفنى محمـد شـرف ص ٢٢٤، ٢٢٥ الأهرام ١٩٧٠.

لذلك كان بناء القرآن الكريم بناء دقيقاً، وضعت فيه الألفاظ الموضع اللائق بها، واختيرت اختياراً دقيقاً حسناً، بحسب ما يقتضى الحال.

خذ لذلك مثلاً من قوله تعالى – في سورة الفاتحة: ﴿ **إياك نَعبد وإياك نَستَعِين**﴾ [1] الآية ٥، حيث ترى الآية وضعت بترتيب، نرى فيه تقديم **(إياك)** مرتين، مع أنها من الناحية الإعرابية مفعول به مقدم، والمفعول به عند النحاة حكمه التأخير.

ولكن ثمة قيمة جمالية ومعنوية لمجيئ الآية على هذا النحو، إذ"**المقصود بتقديم – إياك – تعظيم الله سبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله ليصير الكلام حسناً متناسقاً، ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسباً**"[2]،"**فالأسباب التى جعلت المفعول هنا يتقدم على الفعل والفاعل هى أسباب معنوية وجمالية؛ معنوية لأن التقديم كان بسبب بيان من هو أحق**

(1) الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية: ص ٨٢.

(2) نظريات الإعجاز القرآنى للدكتور أحمد رحمانى: ص ٧٧ ط مكتبة وهبة ١٤١٨ هـ/ ١٩٨٨م.

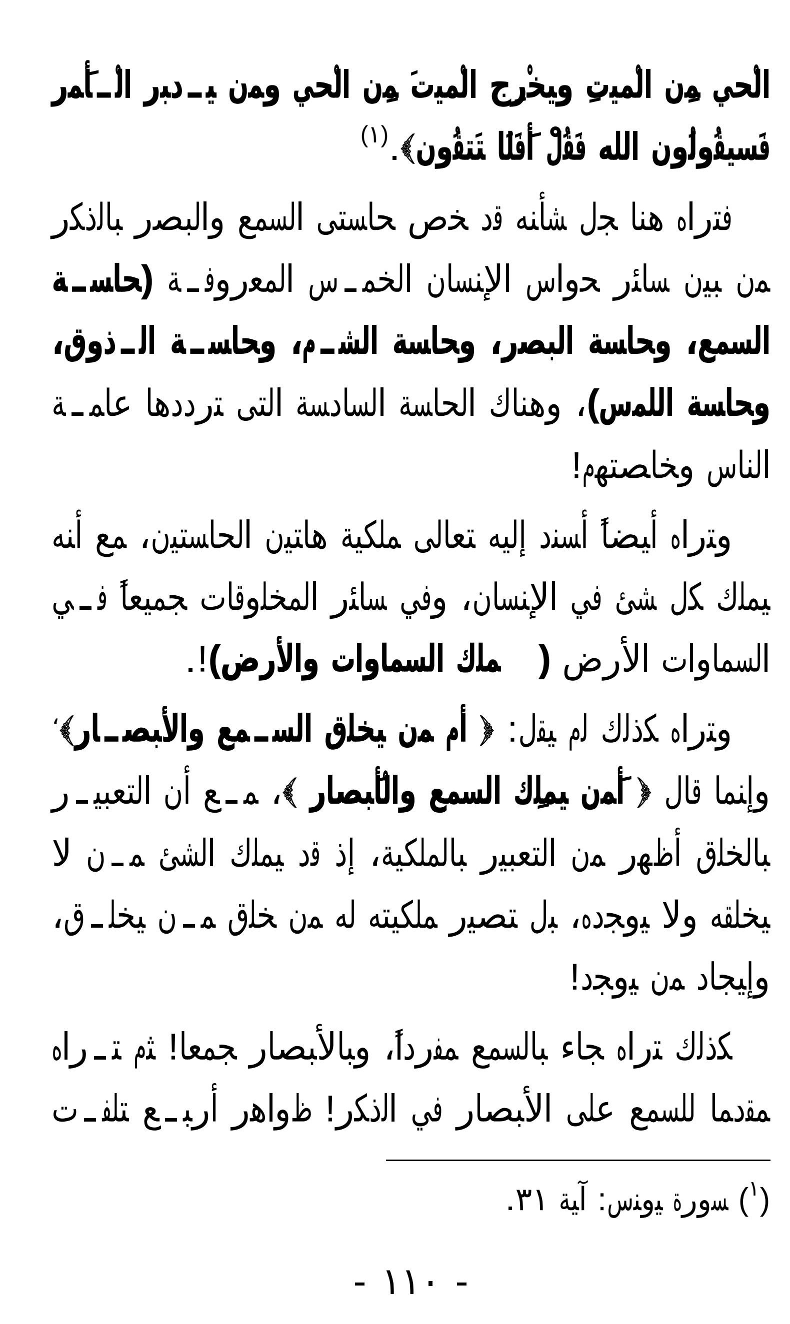
بالعبادة، وأخص بالاستعانة، وأجـدر بالـذكر والاهتمـام، وجمالية لأن السورة كلها قد بنيت صوتياً على نغمة تقتضى الوقوف على الياء والنـون، أو اليـاء والمـيم؛ لتشـابه مخارجهما ونغماتهما الص-وتية؛ مما يؤدى إلى انسـجام صوتى وتنـاس-ق جمـي-ل ي-بعـث علـى الدهشـة والإعجاب"[1].

ولذلك عد بعض القدماء مـن صـور إعجـاز القـرآن الكريم"**ما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة ومـا يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحقها من الخشية سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمـة أو عالمـة بمـا يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة؛ ولذلك قال ﷺ:"القرآن صعب مستصعب على من كرهه"**[2].

وانظر إلى قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ **قُلْ من يرزقُكُم مِن السماءِ والأرضِ أمن يملِك السمع والأبصار ومن يخْرِج**

(1) الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية: ص ٨٢.

(2) الفوائد المشوق: ص ٢٥٠.



الحي من الميتِ ويخْرِج الْميتَ من الْحي ومن يـدبر الْـأَمر فَسيقُولُون الله فَقُلْ أَفَلَا تَتقُون﴾.[1]

فتراه هنا جل شأنه قد خص حاستى السمع والبصر بالذكر من بين سائر حواس الإنسان الخمـس المعروفـة **(حاسـة السمع، وحاسة البصر، وحاسة الشـم، وحاسـة الـذوق، وحاسة اللمس)**، وهناك الحاسة السادسة التى ترددها عامـة الناس وخاصتهم!

وتراه أيضاً أسند إليه تعالى ملكية هاتين الحاستين، مع أنه يملك كل شئ في الإنسان، وفي سائر المخلوقات جميعاً فـي السماوات الأرض **(ملك السماوات والأرض)**!.

وتراه كذلك لم يقل: ﴿ **أم من يخلق الســمع والأبصـار**﴾، وإنما قال ﴿ **أَمن يملِك السمع والْأَبصار** ﴾، مـع أن التعبيـر بالخلق أظهر من التعبير بالملكية، إذ قد يملك الشئ مـن لا يخلقه ولا يوجده، بل تصير ملكيته له من خلق مـن يخلـق، وإيجاد من يوجد!

كذلك تراه جاء بالسمع مفرداً، وبالأبصار جمعا! ثم تـراه مقدما للسمع على الأبصار في الذكر! ظواهر أربـع تلفـت

([1]) سورة يونس: آية ٣١.

النظر، وتسترعى الانتباه، وتحتاج إلى بيان وجـه الحكمـة منها.

أما الحكمة من تخصيص حاستى **(السمع والبصـر)** فـي الإنسان بالذكر دون بقية حواسه، فهى أن السمع والبصـر، هما أظهر حاستين عاملتين في الإنسان، ومؤثرتـان تـأثيراً ظاهراً في حياته، فلا تكتمل صفات الإدراك للإنسان إلا بهما فإذا فقدهما سدت دونه جميع منافذ الحياة، فلا يرى شيئاً فـي هذا الوجود، ولا يسمع صوتاً من قريب أو بعيد..أنـه ميـت وإن كان يمشى على رجلين، فهو يتخبط في أمـواج الحيـاة تخبط الغريق ...

فعن طريق السمع والبصر جاءت المعرفة إلى الإنسـان، وتكونت مدركاته، وأخيلته، وتصوراته،وعن طريق السـمع والبصر، تتحول هذه المعرفة إلى قوى دافعة،تحرك الإنسان، وتوجهه إلى غاياته في الحياة...لهذا يقول ا تعـالى:**﴿ولَـا تَقْفُ ما لَيس لَك بِهِ عِلْم إِن السمع والْبصـر والْفُـؤَاد كُـل أُولَئِك كَان عنْه مسئُولًا﴾**[1]،فالسمع والبصـر،هما الحاسـتان اللتان تمدان الفؤاد–القلب–بما يبعث مشاعره،ويحرك اتجاهات

(1) سورة الإسراء: آية ٣٦.

دوافعه...وبغيرهما لا تكون للقلـب حيـاة، ولا أثـر فـي الحياة..والسمع والبصر،هما الحاملان للقلب بما يحملان من خير أو شر،ومن هدى أو ضلال [1].

وأما الحكمة من التعبير بملكية ا تعالى للسمع، والبصر، دون التعبير بخلق ا سبحانه لهما، مع أنه خالقهما وخـالق كل شئ فإن الملكية تطلق يد المالك فيما ملك ولا ينفي هـذا أن يكون المالك، هو الخالق.فهو يخلق ويملك ما خلق..

فالتعبير بملكية السمع والبصر تعـالى، يعنـى أن ا سبحانه، وإن منحهما للإنسان، فإن ذلك لا يخرجهمـا عـن سلطانه، وأنهما يعملان في خدمة الإنسان، إذ همـا يعمـلان بقدرة الخالق سبحانه، وبتصريفه لهما، وهو جل شأنه القادر على أن يسلبهما الإنسان، ويبطل عملهما، كما يقـول الحـق تبارك وتعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيتُم إِن أَخَذَ الله سـمعكُم وأَبصـاركُم وخَتَم علَى قُلُوبِكُم من إِلَه غَير اللهِ يأْتِيكُم بِهِ انظُـر كَيـفَ نُصرفُ الْآياتِ ثُم هم يصدِفُون﴾** [2].

([1]) من مقال للأستاذ عبد الكريم الخطيب عنوانه (نظرات في آية مـن كتاب ا) منشور في مجلة الوعى الإسلامى عدد صفر ١٤٠٧ هـ.

([2]) سورة الأنعام: آية ٤٦.

وأما الحكمة من إفراد السمع وجمع البصر: فهى أن بـين السمع والبصر اختلافاً في وظيفتهما، من وجوه:

أولاً: السمع هو طريق إلى شئ واحد، هو الصـوت الـذي يدخل منه إلى العصب الخاص به في المخ والصوت – وإن اختلف قوة وضعفاً، أو رقة وخشـونة – هـو على أي حال شئ واحد في النوع، وإن اختلـف فـي الدرجة..وإنه مهما تزاحمت الأصوات على السـمع، فإن السمع لا يقبل منها إلا صوتاً واحداً، أو يلفظهـا جميعاً إذا تزاحمت عليه، ولم يستطع أن يعزلها عـن بعضها..

أما البصر، فهو طريق إلى هذا الكون كله، وما فيه مـن عوالم وأكوان، وأشكال وألـوان، ومـن نـاطق وصـامت، ومتحرك وساكن، وجامد وسائل ...

فالبصر بالقياس إلى السمع هو أبصار، حيث يتعامل مـع ما لا يحصى من الأشياء، حتى إنه في النظرة الواحدة، ليفتح عشرات القوى المبصرة، فتجئ إليه بأكثر من منظور.

ولهذا جاءت آيات ا داعية الناس إلى النظر فـي هـذا الوجود، للاستدلال على وجود الخالق، وما أبدع في خلقه من

آيـات علمـه، وقدرتـه، وحكمتـه ... فقـال تعـالى: ﴿**قُلْ انظُروا ماذَا فِي السماواتِ والأَرضِ وما تُغْنِي الْآيـاتُ والنذُر عن قَومٍ لَا يؤْمِنُـون** ﴾ [1]، وقال سـبحانه وتعـالى: ﴿**وهو الَّذِي أَنزلَ مِن السماءِ ماء فَأَخْرجنَا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ فَأَخْرجنَا مِنْه خَضِرا نُخْرِج مِنْه حبا متَراكِبا ومِن النخْلِ مِـن طَلْعِها قِنْوان دانِيةٌ وجناتٍ مِن أَعنَابٍ والزيتُـون والرمـان مشْتَبِها وغَير متَشَابِهٍ انظُروا إِلَى ثَمرِهِ إِذَا أَثْمر وينْعِـهِ إِن فِي ذَلِكُم لَآياتٍ لِقَومٍ يؤْمِنُون**﴾ [2].

ويقول جل شأنه:﴿**أَفَلَا ينْظُرون إِلَى الْإِبِلِ كَيـفَ خُلِقَـتْ، وإِلَى السماءِ كَيفَ رفِعتْ،وإِلَى الْجِبالِ كَيـفَ نُصِـبتْ،وإِلَى الْأَرضِ كَيفَ سطِحتْ**﴾[3]ويقول تبارك اسمه:﴿**وفِـي أَنفُسِـكُم أَفَلَا تُبصِرون** ﴾ [4].

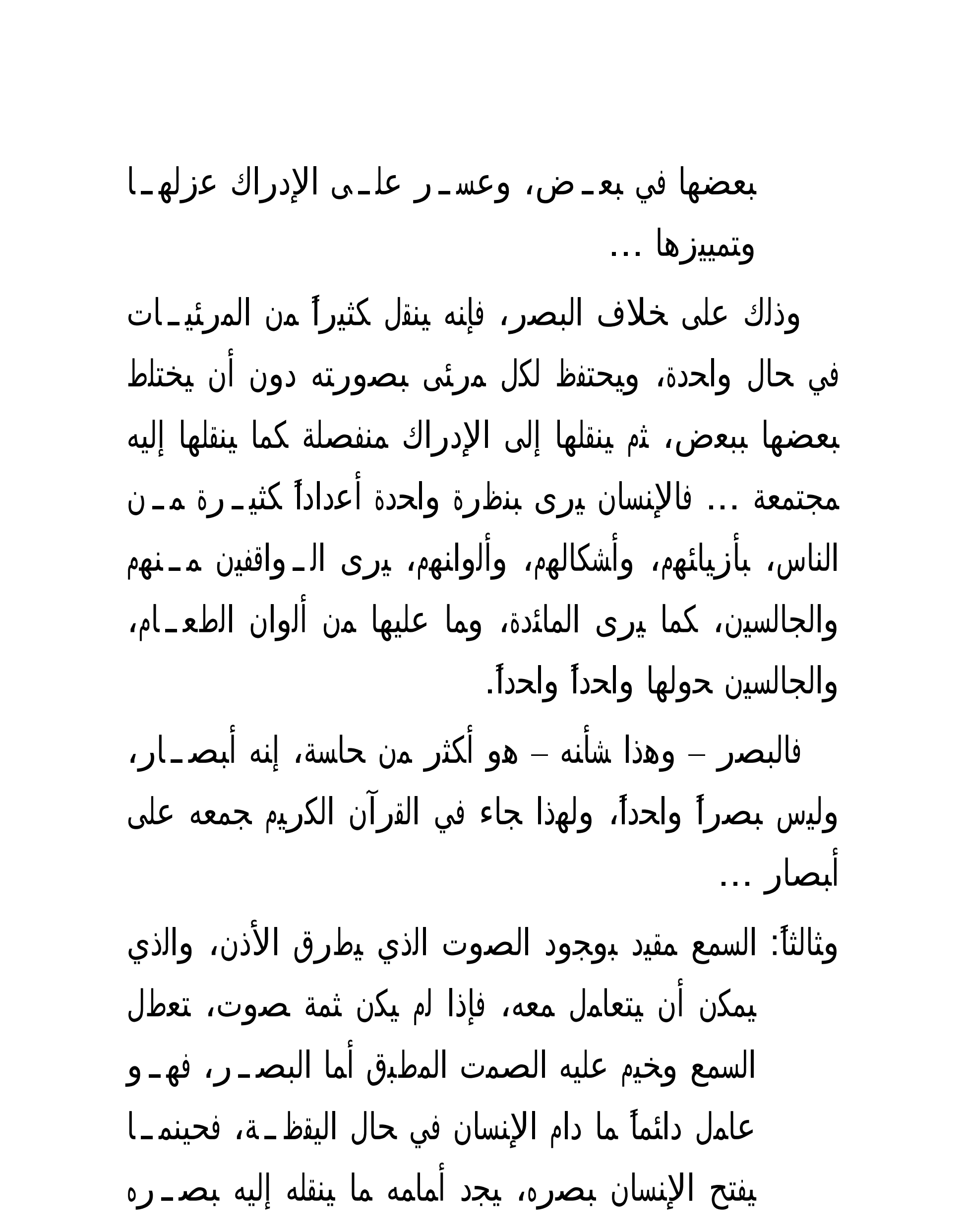
ثانياً: أن السمع لا يستطيع أن يضبط أكثر من صوت واحد، في حال واحدة، وإلا اختلطت عليه الأصوات، وذاب

([1]) سورة يونس: آية ١٠١.

([2]) سورة الأنعام: آية ٩٩.

([3]) سورة الغاشية: آية ١٧-٢٠.

([4]) سورة الذاريات: آية ٢١.



بعضها في بعـض، وعسـر علـى الإدراك عزلهـا وتمييزها ...

وذلك على خلاف البصر، فإنه ينقل كثيراً من المرئيـات في حال واحدة، ويحتفظ لكل مرئى بصورته دون أن يختلط بعضها ببعض، ثم ينقلها إلى الإدراك منفصلة كما ينقلها إليه مجتمعة ... فالإنسان يرى بنظرة واحدة أعداداً كثيـرة مـن الناس، بأزيائهم، وأشكالهم، وألوانهم، يرى الـواقفين مـنهم والجالسين، كما يرى المائدة، وما عليها من ألوان الطعـام، والجالسين حولها واحداً واحداً.

فالبصر – وهذا شأنه – هو أكثر من حاسة، إنه أبصـار، وليس بصراً واحداً، ولهذا جاء في القرآن الكريم جمعه على أبصار ...

وثالثاً: السمع مقيد بوجود الصوت الذي يطرق الأذن، والذي يمكن أن يتعامل معه، فإذا لم يكن ثمة صوت، تعطل السمع وخيم عليه الصمت المطبق أما البصـر، فهـو عامل دائماً ما دام الإنسان في حال اليقظـة، فحينمـا يفتح الإنسان بصره، يجد أمامه ما ينقله إليه بصـره

من أشياء لا تكاد تحصى، في أي مكـان، وفـي أي زمان...

رابعاً: وهو أكثر من هذا كله في النظم القرآنى بالمحل الأول – هو أن البصر، يستطيع، أن يمسك بالأشـياء التـى يراها، ويقف إزاءها ما شاء لـه الوقـوف عنـدها، فاحصا، متأملاً، متدبراً، كما يشير إلـى ذلـك قولـه تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سبع سماواتٍ طِباقًا ما تَرى فِـي خَلْقِ الرحمانِ مِن تَفَاوتٍ فَارجِع الْبصر هلْ تَرى مِن فُطُورٍ، ثُم ارجِع الْبصر كَرتَينِ ينقَلِب إِلَيـك الْبصـر خَاسِئًا وهو حسِير﴾ (١)،ويقول الحق سبحانه:﴿ **ولَقَـد جعلْنَا فِي السماءِ بروجا وزيناها لِلناظِرِين**﴾ [٢].

وهذا إبراهيم – عليه السلام – قد تعرف إلى ربه قبـل أن تأتيه رسالة السماء، بالنظر في ملكوت السـموات والأرض، وفي هذا يقول تعـالى: ﴿**وكَـذَلِك نُـرِي إِبـراهِيم ملَكُـوتَ السماواتِ والْأَرضِ ولِيكُون مِن الْموقِنِين، فَلَما جـن علَيـهِ اللَّيلُ رأَى كَوكَبا قَالَ هذَا ربي فَلَما أَفَلَ قَالَ لا أُحِب الْآفِلِين-**

---

(١) سورة الملك: آية ٣-٤.

(٢) سورة الحجر: آية ١٦.

فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلتْ قال ياقوم إني بريء مما تُشْركُون ﴾ [1].

وهكذا وصل إبراهيم – عليه السلام – إلى التعرف على ربه، من خلال ما خلق ا ، بعد أن فرغ من النظر فيما على الأرض ورأي أن ليس فيها من خلق شيئاً منها، رفع بصره إلى السماء، فلما رأي كوكباً أي نجماً، قال هذا ربى، فلما غرب هذا النجم، صرف بصره عنه، وقال: لا أحب الآفلين..ثم رأي القمر بازغاً، فقال: هذا ربى، فلما رآه يغرب، توجه إلى ربه ليهديه إلى سواء السبيل..فلما رأي الشمس بازغة، قال هذا ربى، هذا أكبر، فلما غربت الشمس، تهاوت في نظره تلك الآلهة جميعاً في الأرض وفي السماء، وقال: إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، فإن الإله لا يظهر في صورة من الصور، ولا يختفي أبداً، بل هو ظاهر في

---

(١) سورة الأنعام: أية ٧٥-٧٨.

مخلوقاته، باطن بذاته: ﴿ **هو الأولُ والآخِر والظاهِر والباطِن وهو بِكُل شَيءٍ عِلِيم**﴾ (الحديد: آية ٣).

وينبغى التنبيه – هنا – على أن هذا المكان المكين للبصر في حياة الإنسان، لا ينقص من قدر السمع، ولا يجور علـى مكانته العظيمة من الإنسان، لأن البصر إذا كانت له مكانتـه في تلقى المعارف من هذا الوجود، وفي تغذية العقل والقلـب بها، فإن السمع أيضاً له مكانته في إمداد الإنسـان بـالكثير الموفور من العلوم والمعارف، بل إن السمع – في هذا المقام – أطول يداً، وأمكن مكانة من البصر.

ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أن المرسلين تلقوا الوحى السماوى بسمعهم، وتلقاه النـاس مـنهم بـآذانهم، وسـمعوه بأسماعهم، فهدى ا من هداه وضل منهم من ضـل واتبـع هواه.

ولهذا يقول ا تعالى: ﴿ **وإذَا قُرِئَ الْقُرآن فَاستَمِعوا لَـه وأَنصِتُوا لَعلَّكُم تُرحمون**﴾ **(سورة الأعراف آية ٢٠٤)** فـا تعالى يدعو عباده المؤمنين إلى الاستماع لما يتلى من آيـات ا ، لا إلى مجرد السماع، كما يدعو إلى الإنصات وسـكون الجوارح، حتى تتصل كلمات ا بالقلوب، فيزداد المؤمنـون

إيماناً إلى إيمانهم ... ويقول سبحانه: ﴿ **فَبشر عِبادِي، الذِين يستَمِعون الْقَولَ فَيتبِعون َأحسنَه ُأولَئِك الذِين هـداهم اللـه وُأولَئِك هم ُأولُوا الْأَلْبابِ﴾ (سورة الزمر آية ١٧ – ١٨).**

وفي أهل البغى والضلال، يقول ا تعالى: ﴿**ويـلٌ لِكُـل َأفاكٍ َأثِيمٍ، يسمع آياتِ اللهِ تُتْلَى علَيهِ ثُم يصِر مستَكْبِرا كَأَن لَم يسمعها فَبشره بِعذَابٍ َألِيمٍ﴾ (سورة الجاثية آيـة ٧ – ٨)** ويقول سبحانه وتعالى فيهم أيضاً: ﴿**وإِذَا تُتْلَى علَيـهِ آياتُنَـا ولى مستَكْبِرا كَأَن لَم يسمعها كَأَن فِي ُأذُنَيهِ وقْـرا فَبشـره بِعذَابٍ َألِيمٍ ﴾ (لقمان آية ٧)**..ويقـول جـل شـأنه محـذراً المؤمنين من حال أهل الضلال مع ما يلقى إليهم مـن كـلام ا : ﴿ **ولَا تَكُونُوا كَالذِين قَالُوا سمِعنَا وهم لَا يسـمعون، إِن شَر الدواب عِنْد اللهِ الصم الْبكْم الذِين لَا يعقِلُون، ولَو علِـم الله فِيهِم خَيرا لَأسمعهم ولَو َأسمعهم لتَولوا وهم معرِضون﴾ (الأنفال آية ٢١ – ٢٣).**

وهكذا تكشف آيات ا تعالى عن السمع وآثـاره، حيـث يكون رسول هدى يحمل إلى صاحبه نور الهدى والإيمـان، على حين يكون شيطاناً مريداً يلقى في قلب صاحبه الهـوى، والضلال ...

أما إذا تحدث القرآن الكريم عن البصر، فإنه يتحدث عنه باعتبار أنه عضو من أعضاء الجسد وحاسة من حواسه، فهو عين كما يتحدث عنه باعتبار أنه جهاز متصل بالقلب فهـو بصر، وأبصار، وبصيرة أيضاً...فقـال تعـالى:**﴿فَـاعتَبِروا يأُولِي الأبصار﴾ (سورة الحشر آيـة ٢)**وقال سبحانه وتعالى **﴿والله يؤَيد بِنَصرهِ من يشَاء إن فِي ذَلِـك لَعِبـرةً لِـأُولِي الأبصار﴾ (سورة آل عمران آية ١٣).**

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول بأن السمع قـدم علـى البصر ليأخذ كل منهما مزية، فإذا كان البصر قد أخذ مزيـة الجمع، فإن السمع أخذ مزية التقديم.

ولهذا اشتق من البصر: البصيرة، والبصائر، والتبصـرة، فقال تعالى:**﴿ بلْ الْإِنسان علَى نَفْسِهِ بصِيرةٌ﴾ (سورة القيامة آية ١٤)** وقال سبحانه وتعالى **﴿ قَد جاءكُم بصائِر مِن ربكُم فَمن أَبصر فَلِنَفْسِهِ ومن عمِي فَعلَيها وما أَنَا علَيكُم بِحفِيظٍ ﴾ (سورة الأنعام آية ١٠٤)** وقال جل شأنه**﴿ والْأَرض مددنَاها وأَلْقَينَا فِيها رواسِي وأَنْبتْنَا فِيها مِـن كُـل زوجٍ بهِـيجٍ * تَبصِرةً وذِكْرى لِكُل عبدٍ منِيبٍ﴾ (سورة ق آية ٧ و٨).**

وأما الحكمة من تقديم السمع على البصر في القرآن **(من الناحية العلمية البيولوجية)** فهى – كما يقول الدكتور مصطفي محمود وهو طبيب: "**لأن السمع أكثر إرهافاً وكمالاً من البصر ... إننا نسمع الجن ولا نراه، والأنبياء سمعوا ا وكلموه، ولم يره أحد، وقد تلقى محمد ﷺ القرآن سمعاً. والأم تميز بكاء ابنها في الزحام، ولا تستطيع أن تميز وجهه.والسمع يصاحب الإنسان أثناء النوم، فيظل صاحياً في حين تنام عيناه، ومن حاول تشريح جهاز السمع يعلم أنه أعظم دقة وإرهافاً من جهاز البصر، ولهذا نرى السمع في القرآن دائماً أولاً ومقدماً على البصر في أكثر من ١٦ مكاناً**"[١].

وقال بدر الدين الزركشى:"**إن شرف الإدراك اقتضى تقديم السمع على البصر، والسميع على البصير، إذ السمع أشرف على أرجح القولين عند جماعة، وقدم القلب عليهما في قوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ**

(١) حوار مع صديقى الملحد للدكتور مصطفي محمود: ص ٩٦، ٩٧ ط دار المعارف (الثالثة).

غِشَاوةٌ﴾ [1]، لأن الحواس خدمة القلب، وموصلة إليه؛ وهو المقصود؛ وأما قوله: ﴿ وختم على سمعه وقلبه﴾ [2]، فأخر القلب فيها؛ لأن العناية هناك بذم المتصامين عن السماع؛ ومنهم الذين كانوا يجعلون القطن في آذانهم حتى لا يسمعوا، ولهذا صدرت السورة بذكرهم في قوله: ﴿ ويلٌ لِكُل أفاكٍ أثيمٍ، يسمع آياتِ اللهِ تُتْلى عليهِ ثُم يصِر مستكْبِرا كأن لم يسمعها فبشره بِعذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [3]"الجاثية: ٧، ٨.

لذلك قدم السمع على البصر في القرآن الكريم، كما رأينا في الآية التى سبق ذكرها والتعليق عليها، وغيرها كثير في القرآن الكريم مثل:

- ﴿**وجعلَ لكُم السمع والأبصار والأفْئِدةَ**﴾سورة النحل: ٧٨.
- ﴿**وجعلْنَا لهم سمعا وأبصارا وأفْئِدةً**﴾ سورة الأحقاف: ٢٦
- ﴿**إن السمع والبصر والفُؤَاد كُل أولئِك كان عنْه مسئُولا**﴾ سورة الإسراء: آية ٣٦.

([1]) سورة البقرة: الآية ٧.

([2]) سورة الجاثية: آية ٢٣.

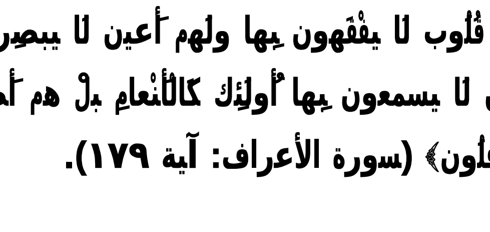
([3]) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٥٤ ط مكتبة دار التراث."**بتصرف يسير**".

- ﴿**وما كُنْتُم تَستَتِرون أَن يشْهد علَيكُم سمعكُم ولَا أَبصاركُم و**﴾ سورة فصلت: آية ٢٢.

- ﴿**أَسمِع بِهِم وأَبصِر**﴾ سورة مريم: آية ٣٨.

ويمكن القول في النهاية: إن الذي يتتبع الآيات القرآنيـة التى تتحدث عن السمع والبصر أو ورد فيها ذكرهمـا يجـد أربع ظواهر واضحة:

الأولى:: أنهما يذكران في معرض الحديث عن ا باعتبـار (السميع البصير) اسمين من أسماء ا الحسنى، كمـا يذكر أن في معرض الحديث عن قـدرة ا وعظـيم حكمته فيما أبدع وصور في هذا الوجود، وما أقام بين يدى الإنسان من دلائل ناطقة بتلك القدرة، شاهدة على تلك الحكمة ...

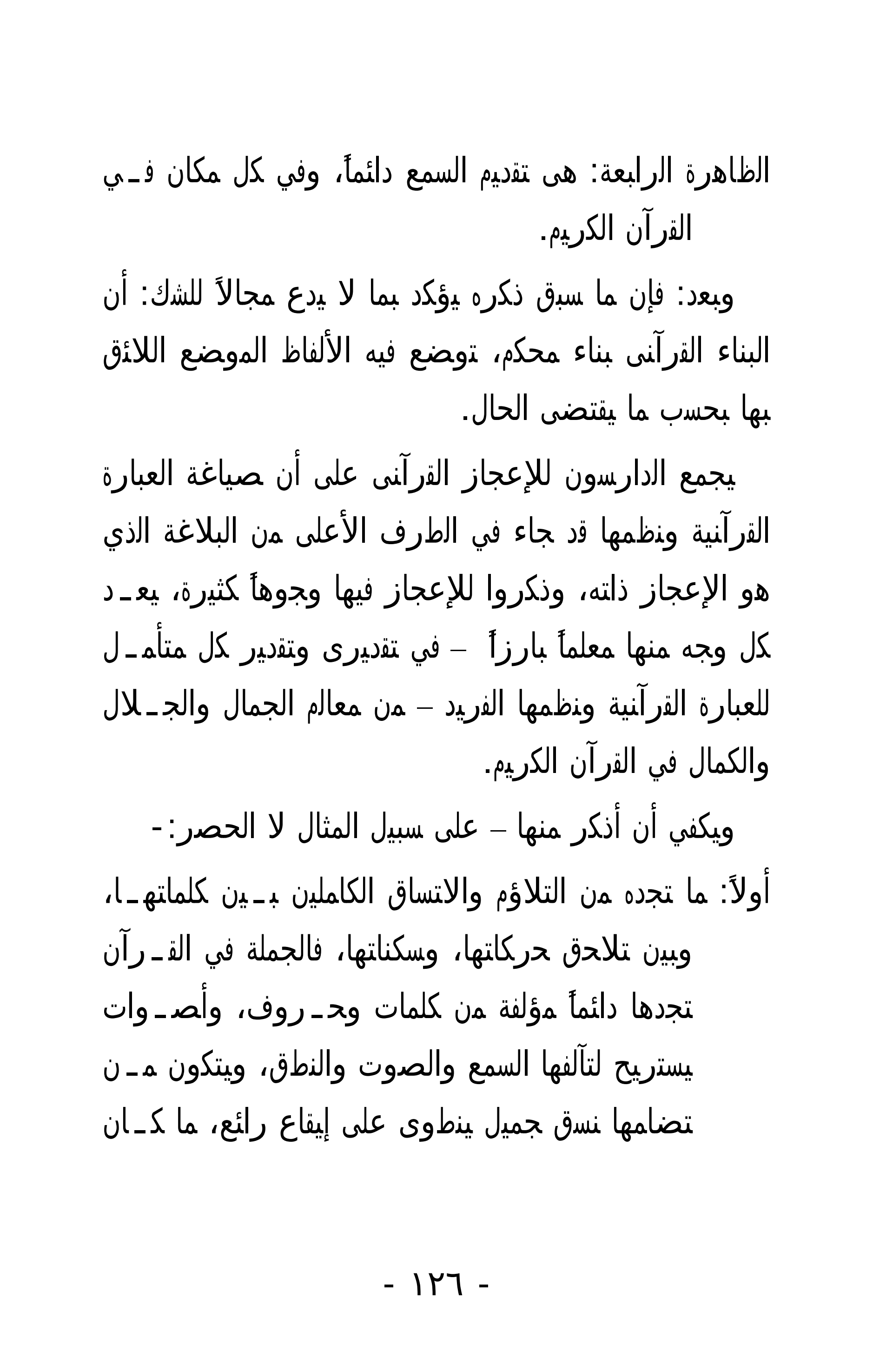
ومع هذا فقد ضل عنها كثير من الناس، فصـرفوا عنهـا عيونهم، وأغلقوا دونها عقولهم، وقلوبهم فكانوا من الذين قال ا تعالى فيهم: ﴿ **ولَقَد ذَرأْنَا لِجهنم كَثِيرا مِن الْجِن والْإِنسِ لَهم قُلُوب لَا يفْقَهون بِها ولَهم أَعين لَا يبصِرون بِها ولَهـم آذَان لَا يسمعون بِها أُولَئِك كَالْأَنْعامِ بلْ هم أَضل أُولَئِك هـم الْغَافِلُون**﴾ **(سورة الأعراف: آية ١٧٩).**

ويذكران أيضاً في معرض الحديث عن نعم ا التى أنعم بها على الإنسان ومنها نعمتا السمع والبصر اللتان يسـر ا بهما للإنسان سبيل الحياة.

الظاهرة الثانية هى: الجمع غالباً بين هاتين الحاسـتين، مـع تقديم السمع على البصر دائماً، كما في قولـه تعـالى ﴿حتى إِذَا ما جاءوها شَهد علَيهم سمعهم وأَبصـارهم وجلُودهم بِما كَانُوا يعملُون﴾ (سورة فصلت: آية ٢٠) ويقـ ـ ـ ـ ـ ـ ـول جـ ـ ـ ـ ـ ـ ـل شـ ـ ـ ـ ـ ـ ـأنه: ﴿ وما كُنْتُم تَستَتِرون أَن يشْهد علَيكُم سـمعكُم ولَـا أَبصاركُم ولَا جلُودكُم ولَكِن ظَنَنْتُم أَن الله لَا يعلَم كَثِيرا مِما تَعملُون﴾ (سورة فصلت آية ٢٢)..ويقـول جـل شأنه:﴿ولَقَد مكناهم فِيما إِن مكناكُم فِيهِ وجعلْنَـا لَهـم سمعا وأَبصارا وأَفْئِدةً فَما أَغْنَى عـنْهم سـمعهم ولَـا أَبصارهم ولَا أَفْئِدتُهم مِن شَـيءٍ إِذْ كَـانُوا يجحـدون بِآياتِ اللهِ وحاقَ بِهِم ما كَانُوا بِهِ يستَهزِئُون﴾ (سورة الأحقاف آية ٢٦) وهكذا من آيات ا التى تجمع بين هاتين الحاستين، مقدمة حاسة السمع على البصر!

الظاهرة الثالثة هى: مجئ السمع مفرداً دائماً، حيث لم يـرد في القرآن الكريم جمع هذه الحاسة على (أسماع) مع مجئ البصر، مفرداً حيناً، وجمعاً على"أبصار"أحيانـاً أخرى.كما نرى ذلك في الآيات السابقة، وفي كثيـر غيرها..وكذلك إذا عدل عن لفظ البصر، إلـى لفـظ (العين) فإنه يأتى مفرداً ومثنى وجمعاً، كمـا يقـول تعالى على لسان امرأة فرعون في شأن موسى عليه السلام:﴿وقَالَتْ امرَأَةُ فِرعون قُرةُ عينٍ لِي ولَـك لَـا تَقْتُلُوه عسى أَن ينفَعنَا أَو نَتخِذَه ولَدا﴾(سورة القصص آية ٩)وكما يقول سبحانه وتعالى فيما أنعم بـه علـى الإنسان:﴿أَلَم نَجعلْ لَه عينَين،ولِسانًا وشَـفَتَين،وهديناَه النجدين﴾(سـورة البلـد آيـة ٨ -١٠)ويقـول جـل شأنه:﴿يعلَم خَائِنَةَ الْأَعينِ وما تُخْفِي الصدور﴾(سـورة غافر آية ١٩) ...

وهكذا جاء وضع السمع في كلام ا تعالى مخالفاً بينـه وبين البصر، حيث يجئ السمع مفرداً دائماً، ويجئ البصـر مفرداً أو مثنى أو جمعاً.



الظاهرة الرابعة: هى تقديم السمع دائماً، وفي كل مكان فـي القرآن الكريم.

وبعد: فإن ما سبق ذكره يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك: أن البناء القرآنى بناء محكم، توضع فيه الألفاظ الموضع اللائق بها بحسب ما يقتضى الحال.

يجمع الدارسون للإعجاز القرآنى على أن صياغة العبارة القرآنية ونظمها قد جاء في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته، وذكروا للإعجاز فيها وجوهاً كثيرة، يعـد كل وجه منها معلماً بارزاً – في تقديرى وتقدير كل متأمـل للعبارة القرآنية ونظمها الفريد – من معالم الجمال والجـلال والكمال في القرآن الكريم.

ويكفي أن أذكر منها – على سبيل المثال لا الحصر:-

أولاً: ما تجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بـين كلماتهـا، وبين تلاحق حركاتها، وسكناتها، فالجملة في القـرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحـروف، وأصـوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق، ويتكون مـن تضامها نسق جميل ينطوى على إيقاع رائع، ما كـان

ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلاف ترتيب ما بينها بشكل من الاشكال(١).

ثانياً: أنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة، دون أن تجد فيها اختصاراً مخلاً، أو ضعفاً في الدلالة(٢).

ثالثاً: إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه.

ومكمن الإعجاز في ذلك، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنيط بها من المعانى، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصب المعانى الفكرية المجردة في قوالب من الشخوص والأجرام والمحسوسات، تتحرك داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة.

---

(١)،(٢) الإعجاز في نظم القرآن، د/ محمود شيخون: ص ٨٦.

ومقياس هذا الذي نقول، أنك إذا أقبلت تقرأ شيئاً من كتاب ا عز وجل بإمعان، رأيت نفسك تستقبل معانى الآيات بكل من عقلك وخيالك معاً، فالعقل يفهم والخيال يتصور، وذلـك على خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أي كلام أو كتاب آخر، فالعقل وحده الذي يتفاعل مع الكلام والمعانى، اللهم إلا تلك المواضيع الأخرى التى تقوم في جوهرها الأصلى على التخييل والتصوير، ولكن القرآن، في مواضيعه كلها، إنمـا تقوم أداته التعبيرية على التصوير والتجسيم[1].

فالتلاؤم بين كلمات العبارة القرآنية، ومجيئها رافلة فـي حلة الإيجاز، وروعتها فـي تصـوير المعـانى المجـردة وتجسيمها في مظهر المحسوس الملمـوس: هـذه الثلاثيـة الرائعة تمثل أبرز معالم الجمال، وملامح الإعجاز البلاغـى في العبارة القرآنية.

والمراد بالتلاؤم في الجملة أو الأسلوب: ائتلاف مخـارج الحروف والكلمات والانسجام في النغم بينها.

ويذكر أبو عيسى الرمانى فائدة التلاؤم فيقول:"**والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبـل**

---

(1) السابق ص ٨٧، ٨٨.

المعنى له في النفس، لما يرد عليها من حسـن الصـورة، وطريق الدلالة، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن مـا يكون الخط والحرف وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط، فذلك متفاوت فـي الصـورة.وإن كانـت المعـانى واحدة"[1].

ويقول أبو بكر الباقلانى:-

واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظـيم المكـان قليـل الطلاب ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر..وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح، في موضع الفجر يحسن في كل كلام، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيـه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجـدها فـي غيـر

---

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (رسالة الرمانى): ص ٨٨ ط دار المعارف بمصر.

منازعة في أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت في محل نفار، ومرمى شرار، ونابية عن استقرار[1].

هذا ما ذكره الرمانى في رسالته، والباقلانى في كتابه، وإذا اتجهنا إلى ما يرميان إليه، وجدناه سليماً دقيقاً، وأنه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على أسلوب القرآن الكريم، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام، فالتلاؤم فيه ليس في نسق الألفاظ ونغمها فحسب، بل إنه يشمل التآخى في المعانى كالتآخى في المبانى.

اقرأ -مثلاً- قوله تعالى: ﴿ **فَفَتَحنَا أَبواب السماءِ بِماءٍ منْهمِرٍ، وفَجرنَا الْأرض عيونًا فَالْتَقَى الْماء علَى أَمرٍ قَد قُدِر**﴾ [2] وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها.ثم دقق نظرك، وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة مع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم حاول أن تمعن في تآلف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها.فإنك إذا تأملت في ذلك، علمت أن هذه الجمل القرآنية، إنما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما

---

(1) إعجاز القرآن للباقلانى: ص ٢٨٠ ط دار المعارف بمصر.

(2) سورة القمر آية ١١ – ١٢.

قدر تقديراً بعلم اللطيف الخبير.وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة[1].

وأما سمة **(الإيجاز)** التى تتميز بها الجملة القرآنية، فهـى أخص خصائص القرآن الكريم، وإعجاز الإعجاز فيـه، ولا عجب فهو يتميز بالقصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.

يقول الشيخ محمد عبد ا   دراز في شرح هذه المزية: إن كل من يجمع في أسلوبه بين هاتين النهايتين، لم يقـو علـى العدل بينهما، فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منـه إلا على حد الضرورة، لا ينفك من أن يحيف على المعنـى قليلاً أو كثيراً.

"والذي يعمد إلى الوفاء بحـق المعنـى وتحليلـه إلـى عناصره، وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمـه ومـا يؤديه إليه الهامه لا يجد له بدا من أن يمد في نفسه مـداً، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صـدره، ويـؤدى عن نفسه رسالتها كاملة.فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامـه، ويبطـئ بـك فـي

---

(1) من روائع القرآن للبوطى ص ١٣٧.

الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال!"[1]

ثم بعد أن أوضح الدكتور دراز أن عامة الفصحاء قدامى ومحدثين يؤتون من هذا الجانب غالباً، أعنى جانب الاملال والإسراف، لا جانب الإخلال والإجحاف، أوضح أن كمال البلغاء في عملهم هذا كمال نسبى"**بقدر ما يحيط به علمه، وما يؤديه إليه إلهامه في الحال".أما الوفاء بالمعنى حق وفائه بحيث لا يخطئه عنصر منه ولا حلية من حلاه ولا ينضاف إليه عرض غريب عنه يعد رقعة ثوبه، ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغض من حسن تقويمه، بحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد، فذلك أمر لا يستطيع أن ينتحله رجل اكتوى بنار البيان، قال:"وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد فيه زائداً يمحوه، وناقصاً يثبته، ويجد فيه ما يهذب ويبدل، وما يقدم أو يؤخر حتى يسلك سبيله إلى النفس سوياً".[2]**

---

(1)،(2) النبأ العظيم للشيخ محمد عبد ا دراز، ص ١٣٨ وما بعدها ط دار طيبة ١٤١٧ه- – ١٩٩٧م.

ثم يقول: ولئن ظفرت بأحد وفـق لتقريب تينك الغايتين إلى حد ما في جملة أو جملتين، فتربص به كيف يكون أمره بعد ذلك. وانظر كيف يدركه الكلال والإعـياء وفـترة الطـبع الإنـسانى فينحل من عـقدة كلامـه ما كان وثيقاً، ويذبل من زهرته ما كان غضاً طرياً، ثم لا يعود إلى قوته إلا فـي الشئ بعد الشئ كما تصادف في التراب قطعة من هـا هنـا وقطعة هنالك. فتقول: هذا نفيس جيد، وهذا أنفـس وأجـود، وهذا واسطة العقد وبيت القصيد ... [1]

وأخيراً يقول الدكتور دراز: "**فإن سرك أن ترى كيف تـجمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فتـرة ولا انقطـاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدر علـى حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسـراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدى لك من كل معنى صورة نقيـة وافية: "نقية" لا يشوبها شئ مما هو غريب عنهـا، "وافيـة" لا يشذ عنها شئ من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه".** [2]

---

(1) السابق: ص ١٤٠، ١٤١.

(2) السابق: ص ١٤١.

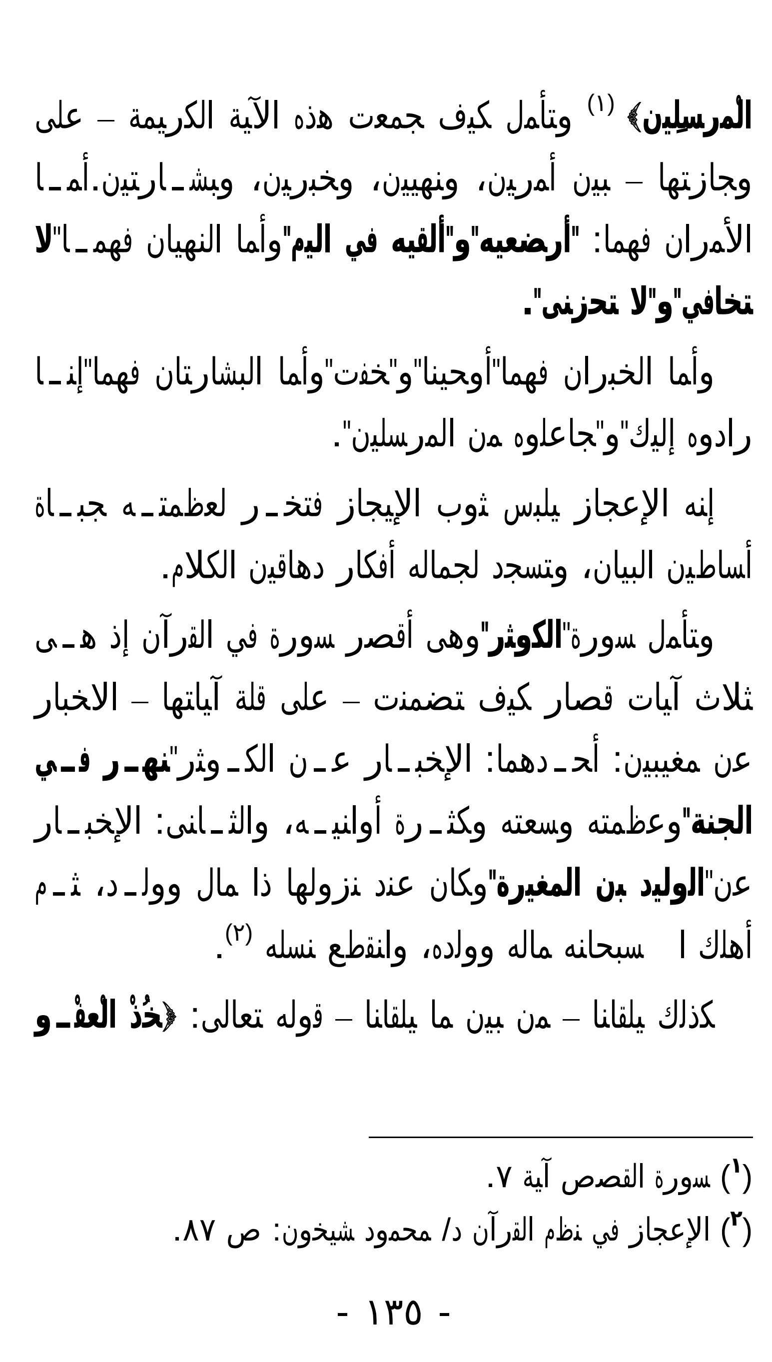
ضع يدك حيث شئت من المصحف،وعد ما أحصته كفـك من الكلمات عدا،ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين وانظر نسبة ماحواه هذا الكلام من المعانى إلـى ذاك،**ثم انظر:**كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هـذا الكلام دون إخلال بغـرض قائلـه؟وأي كلمـة تسـتطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية: لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسـن منها لم توجد، بل هو كما وصفه الله **﴿كِتَاب أُحكِمتْ آياتُه ثُم فُصلَتْ مِن لَدن حكِيمٍ خَبِيرٍ﴾**[1] .[2]

هذا ما قاله الدكتور دراز يرحمه الله عن تميز الجملـة أو الأسلوب القرآنى بالقصد في اللفظ والوفـاء بـالمعنى، وإذا اتجهنا إلى روضة القرآن الفيحاء لنقتطـف منهـا زهـوراً نستشهد بها على ذلك المعلم الجمـالى، وتلـك الخصيصـة الأسلوبية العالية للقرآن الكريم، سيلقانا – مثلاً – قوله تعالى: **﴿ وأَوحينَا إِلَى أُم موسى أَن أَرضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ علَيهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيم ولَا تَخَافِي ولا تَحزنِي إِنا رادوه إِلَيكِ وجاعِلُوه مِـن**

---

(1) سورة هود آية ١.

(2) النبأ العظيم: ص ١٤٢.



المرسلين﴾ [1] وتأمل كيف جمعت هذه الآية الكريمة – على وجازتها – بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين.أما الأمران فهما: "**أرضعيه**"و"**ألقيه في اليم**"وأما النهيان فهما"**لا تخافي**"و"**لا تحزني**".

وأما الخبران فهما"أوحينا"و"خفت"وأما البشارتان فهما"إنا رادوه إليك"و"جاعلوه من المرسلين".

إنه الإعجاز يلبس ثوب الإيجاز فتخر لعظمته جباة أساطين البيان، وتسجد لجماله أفكار دهاقين الكلام.

وتأمل سورة"**الكوثر**"وهى أقصر سورة في القرآن إذ هى ثلاث آيات قصار كيف تضمنت – على قلة آياتها – الاخبار عن مغيبين: أحدهما: الإخبار عن الكوثر"**نهر في الجنة**"وعظمته وسعته وكثرة أوانيه، والثانى: الإخبار عن"**الوليد بن المغيرة**"وكان عند نزولها ذا مال وولد، ثم أهلك ا سبحانه ماله وولده، وانقطع نسله [2].

كذلك يلقانا – من بين ما يلقانا – قوله تعالى: ﴿**خُذْ الْعَفْو**

(1) سورة القصص آية ٧.

(2) الإعجاز في نظم القرآن د/ محمود شيخون: ص ٨٧.

وأْمر بِالْعرفِ وأَعرِض عن الْجاهِلِين﴾ [1].

تأمل كيف جمع ا بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن فـي أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظـالمين، وإعطـاء المـانعين.وفـي"**الأمـر بـالمعروف**"تقـوى ا ، وصـلة الرحم.وصون اللسان عن الكـذب.وغـض الطـرف عـن الحرمات.وفي"**الإعراض عن الجاهلين**"الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج[2].

واقرأ قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام: ﴿**إِن لَـك أَلـا تَجوع فِيها ولَا تَعرى، وأَنك لَا تَظْمأُ فِيها ولَا تَضحى﴾** [3] ثم تأمل كيف جمع ا بهذا الكلام أصول معايش الإنسان كلهـا من طعام وشراب وملبس، ومأوى.

ومن بديع إيجاز القصر في القرآن الكريم قولـه تعـالى: ﴿**ولَكُم فِي الْقِصاصِ حياةٌ﴾** [4] فمعنى هذه الجملـة القرآنيـة كبير، أداه لفظ يسير.

---

(1) سورة الأعراف آية ١٩٩.

(2) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص ٥.

(3) سورة طه آية ١١٨ – ١١٩.

(4) سورة البقرة آية ١٧٩.

وأما روعة القرآن الكريم في إخراج المعانى المجردة في مظهر الأمر المحس الملموس، فهى من أبـرز خصـائص العبارة القرآنية، وتمثل قيمة جمالية كبرى فيه.وقـد وقـف المرحوم سيد قطب عندها طويلاً في كتابه **(التصوير الفنـى في القرآن)**، فأوضح -من بين ما أوضح- أن للأداء القرآنـى طابعاً بارزاً في القدرة على استحضار المشـاهد، والتعبيـر المواجه كما لو كان المشهد حاضراً، بطريقة ليست معهـودة على الإطلاق في كلام البشـر، ولا يملـك الأداء البشـرى تقليدها.لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مسـتقيم مـع أسلوب الكتابة.[1]

وإلا فكيف يمكن للأداء البشرى أن يعبر علـى طريقـة الأداء القرآنى مثلاً في مثل هذه المواضع: وجاوزنـا ببنـى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده، بغياً وعدواً، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا ا الذي آمنت به بنو إسرائيل.وأنا من المسلمين..**(وإلى هنا هى قصة تحكـى)** ... ثم يعقبها مباشرة خطاب موجـه فـي مشـهد حاضـر ...

---

(1) انظر: التصوير الفنى في القرآن لسيد قطب: ص ٣٤، ٤٥ ط دار المعارف (الثامنة).

﴿ ءالآن وقد عصيتَ قبلُ وكُنْتَ مِن الْمفْسِدِين، فَالْيوم نُنَجيك بِبدنِك لِتكُون لِمن خَلْفَك آية ﴾ ... ثم يعـود الأداء للتعقيـب على المشهد الحاضر: **﴿ وإِن كَثِيرا مِن الناس عـن آياتِنَـا لَغَافِلُون﴾** [1].

وقال تعالى في سورة الأنعام: **﴿ قُلْ أَي شَيءٍ أَكْبر شَهادةً قُلْ الله شَهيد بينِي وبينَكُم وأُوحِي إِلَي هذَا الْقُرآن لِأُنـذِركُم بِهِ ومن بلَغَ أَئِنكُم لَتَشْهدون أَن مـع اللـهِ آلِهـةٌ أُخْـرى﴾** [2].وإذا به يعود للتلقى في شأن هذا الذي سأل عنـه قومـه وأجـــــــــــــــــــــــــــــابوه **﴿ قُلْ لَا أَشْهد قُلْ إِنما هو إِله واحِـد وإِننِـي بـرِيء مِمـا تُشْرِكُون﴾**. ومثل هذه الالتفاتات المتكررة في مثـل هـذه الآيـات: **﴿ويوم يحشُرهم جمِيعا يامعشَر الْجِن قَد استَكْثَرتُم مِن الْإِنس وقَالَ أَولياؤُهم مِن الْإِنس ربنَا استَمتَع بعضنَا بِبعضٍ وبلَغْنَا أَجلَنَا الَّذِي أَجلْتَ لَنَا قَالَ النار مثْواكُم خَالِدِين فِيها إِلـا مـا شَاء الله إِن ربك حكِيم علِيم، وكَذَلِك نُولي بعض الظـالِمِين بعضا بِما كَانُوا يكْسِبون، يامعشَر الْجِن والْإِنس أَلَـم يـأْتِكُم**

---

[1] سورة يونس آية ٩٢.

[2] سورة الأنعام آية ١٩.

رسلٌ مِنْكُم يقُصون علَيكُم آياتِي وينذِرونَكُم لِقَاء يومِكُم هـذَا قَالُوا شَهدنَا علَى أَنفُسِنَا وغَرتْهم الْحياةُ الدنْيا وشَهدوا علَى أَنفُسِهِم أَنهم كَانُوا كَافِرِين، ذَلِك أَن لَم يكُن ربك مهلِك الْقُرى بِظُلْمٍ وأَهلُها غَافِلُون﴾ [1].

وانظر بعقلك وخيالك إلى القرآن الكريم حينمـا يصـور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحـه عـن السبيل الصحيح فيقول: ﴿ **إِنا جعلْنَا فِي أَعنَاقِهِم أَغْلَالًا فَهِـي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهم مقْمحون وجعلْنَا مِن بينِ أَيدِيهِم سدا ومِـن خَلْفِهِم سدا فَأَغْشَينَاهم فَهم لَا يبصِرون﴾** [2].

إنه تعبير بلغ أسمى درجات الروعة،إنه يجعلـك تتخيـل إنساناً التف حول عنقه غل عريض مرتفع إلى الذقن جعـل رأسه صاعداً إلى الأعلى لا يتحرك،ثم هو يقف في مكان قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه،وقد غشـى الظلام على بصره،فهو لا يملك حراكاً نحو أي اتجاه،تلك هى

---

(1) سورة الأنعام الآيات ١٢٨ – ١٣١.

(2) سورة يس آية ٨ – ٩.

صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل،وظـل مع ذلك عاكفاً على غيه وضلاله[1].

ثم انظر إلى القرآن الكريم وهو يصور الهزيمة والجـبن والرعب والقلق النفسى الذي يسيطر على قلـوب المنـافقين فيقول: ﴿ **لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّـوْا إِلَيْـهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**﴾ [2].

تأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحـة التصويرية الرائعة، وأخرج هذا المعنى الفكرى في صـورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما يسيطر عليها مـن الرعب، فهى تتقذف هنا وهناك بحثاً عن المأمن والمهـرب في حركات عجيبة غريبة.ثم تأمل الكلمات التى استقلت برسم هذه الصورة الرائعة العجيبة.تأمل الكلمات"**ملجأ، مغـارات، مدخلاً**"إنها تصور في ذهنك شكلاً معيناً للملاذ الذي يبحـث عنه المنهزم والخائف.بدءاً من الشكل الطبيعى المألوف وهو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من النـاس، إلـى الشكل الذي لا يألفه ولايرتضيه إلا من اشـتد خوفـه وهـو

([1]) الإعجاز في نظم القرآن لمحمود شيخون ص ٨٨.

([2]) سورة التوبة آية ٥٧.

المغارة في باطن الأرض أو بطن الجبل، إلى الشكل الـذي هو أبعد في القبول والألف من كليهما: وهـو المـدخل، أي المكان الضيق الذي لا يكاد يستطيع هذا الخائف أن يقتحمـه إلا بجهد، ولا يكاد يسـتطيع أن يسـتقر فيـه إلا تضـاؤلاً والتصاقاً، ثم تأمل كلمة"**يجمحون**"إنها ترسم في خيالك صورة مضحكة ساخرة لهؤلاء المنافقين.إن هـذه الكلمـات التـى اختارها الخالق جل وعلا، وصاغها هذه الصياغة العجيبة قد أبرزت هذا المعنى الفكرى في صـورة متحركـة سـاخرة تجسدت في الخيال حتى لتكاد العين الباصرة تراهـا، واليـد اللامسة تتقراها[1].

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لك قيام الكون علـى أساس من النظام الرتيب والتنسيق البديع الذي لا يتخلـف، ولا يلحقه الفساد.فيقول: ﴿**إِن ربكُم الله الـذِي خلَـقَ الســماواتِ والْأَرض فِي سِتةِ أَيامٍ ثُم استَوى علَى الْعرش يغْشِـي الليـلَ النهار يطْلُبه حثِيثًا والشمس والْقَمر والنجوم مسخراتٍ بِـأَمرِهِ أَلَا لَه الْخَلْقُ والْأَمر تَبارك الله رب الْعلَمِين**﴾[2].

---

(1) السابق ص ٨٩.

(2) سورة الأعراف آية ٥٤.

إنه يصور لك هذا المعنـى فـي مظهـر مـن الحركـة المحسوسة الدائرة بين عينيك، وكأنـك أمـام آلات تتحـرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيهـا ويتصـورها الشـعور والخيال[1].

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لك كراهية أهـل الجاهلية للأنثى إذ ت-ول-د في دار أحدهم، ويكشف لك عما يعتمل في صدر من بشر بها من الكرب والغيظ والعصـبية والصراع بين القسوة الشديدة المتولدة عن الغـيظ العنيـف، والرحمة الضعيفة الصادرة عن العاطفة الأبوية، إنه يصـور ذلك كله بأسلوب رائع تجسد له البلاغة في أسمى مظاهرهـا وألوانها فيقول: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [2].

تأمل بعقلك وخيالك هذا الأسلوب العجيب كيف أخرج هذه المعانى النفسية الخفية في صورة حسية متحركة ملموسة؟ ثم

---

(1) السابق ص ٨٨.

(2) سورة النحل آية ٥٨ – ٥٩.

أنعم النظر في الكلمات التى استقلت برسـم هـذه الصـورة البديعة.

وتأمل كلمة"**بشر**"فقد صورت بصوتها وظلها، وجرسـها تهكم من حوله به.وتأمل قوله:"**ظل وجهـه مسـوداً وهـو كظيم**"فقد صور بنظمه العجيب شدة الكـرب الـذي انتابـه، وتأمل قوله:"**يتوارى من القوم من سوء ما بشر بـه**"، فقـد صور بدقة تركيبه وإحكام صياغته وقع النبأ الذي حمله إليه القوم مبشرين، أي متهكمين به ومشفقين عليه.

وتأمل قوله تعالى:"**أيمسكه علـى هـون أم يدسـه فـي التراب؟**" فقد صور القرآن الكريم بجمال نظمه وروعة بيانه تلك الحيرة التى كانت تراود من يرزق ببنت فـي العصـر الجاهلى،أيبقيها حية، ويعيش في ذل وعار، أم يتخلص منهـا بدفنها في التراب؟.

وتأمل المفردة القرآنية الرائعة:"**يدسـه**"كيف أنها تشـف لك عن الغيظ والعصبية والشدة التى تلبست بها حالة الرجـل الجاهلى وأعضاؤه [١]، وكيف تصور لـك مقاومـة الـدفع المغتاظ للرحمة في مظهرها الضعيف المتألم المسالم.

---

(١) السابق ص ٩٠.

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعمد إلى معنـى فكـرى مجرد، فيخرجه لك في مظهر حرب متلاحمة بـين طـرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة.في قول الله تعـالى:﴿ **بَـلْ نَقْذِفُ بِالْحَق عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدمغُه فَإِذَا هو زاهِقٌ ولَكُم الْويـلُ مِما تَصِفُون** ﴾ [1].

فالقذف والدمغ والزهق كلمات ما كان ليخطر في بال أي متأمل أن يستعملها القرآن الكريم في مجال التعبير عـن الحق هو الذي تتقبله النفوس والعقول الحرة دائمـاً، ولكـن المعجزة القرآنية هى التى طوعـت مختلـف ألفـاظ اللغـة لمختلف المعانى والأفكار [2].

وانظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **مثَلُ الَّذِين حمِلُوا التوراةَ ثُم لَم يحمِلُوها كَمثَلِ الْحِمارِ يحمِلُ أَسفَارا** ﴾ [3] ،

وتأمل كيف صور بهذا المثل الرائع أولئك اليهود الـذين جاءهم رسولهم موسى _عليه السلام _ بالتوراة، فحفظـوا ألفاظها، ولم يتفهموها، ولاعملـوا بأحكامهـا، بـل أولوهـا

---

(1) سورة الأنبياء آية ١٢.

(2) من روائع القرآن ص ١٥٢.

(3) سورة الجمعة: آية ٥.

وحرفوها وبدلوها، فكانت صورتهم هذه أسوأ مـن صـورة الحمار الذي يحمل أسفارا وأثقالاً لايفهمها، ولاينتفع بها، فهو يحملها حملاً حسيا، ولايدرى ماعلى ظهره!! إن هذه الصورة التمثيلية الرائعة الذامة لليهود، لايقدر على نظمها بهذا الشكل إلا الحكيم الخبير.

حسبنا من الشواهد القرآنية الدالة على جمـال التصـوير القرآنى ماتقدم من شواهد؛ ففيما ذكرناه دلالة واضحة علـى البراعة القرآنية في إخراج المعانى المجـردة فـي صـورة محسة ملموسة.

ولا أرانى مجافيا للحقيقة إذا قررت أن التصوير القرآنـى البديع هو **(إعجاز الإعجاز في القرآن الكريم)**؛ لأن التصوير القرآنى يفيض بكل ذلك، فهو جسـد وروح معـا، لا ينفـك أحدهما عن الآخر، ولأن التصوير القرآنى كائن حى خالـد، يلتقى فيه مااجتمع في الانسان من كل وسائل الحيـاة، فـي ارتباط شكلى بمضمونه جملة، وما وراء ذلك مـن مشـاعر النفس وخوالجها وعواطفها، والصدق فيها، وغير ذلك مـن عناصر التصويرالتى تملك زمام التأثير في الـنفس، وتـدفع صاحبها إلى الإقناع العقلى والإمتاع العاطفي.

يعد تجسيد الصفة للموصوف وجعله أكثر حضـوراً فـي ذهن المتلقى للقرآن الكريم ووجدانه من أبرز عناصر الجمال في القرآن، فلو حذفنا هذه الصفة لبدا الموصوف غيـر ذى تأثير في النفس، ولبدا غير واضح الملامح.

خذ لذلك شاهداً من قول ا تعالى – مخاطباً سيدنا محمد ﷺ -**(فأصبر صبراً جميلاً)** سورة المعارج: الآية ٥، وقـول ا تعالى – على لسان يعقوب في خطابه لأولاده بعد فعلتهم التى فعلوها بأخيهم يوسف- ﴿ **فَصبر جمِيلٌ والله الْمسـتَعان علَى ما تَصِفُون** ﴾[١].

فأي وظيفة معنوية لهذا الوصف الإلهى؟ إن الصبر مـن أشق التكاليف على النفس، ولهذا قال ا تعالى في الثناء على الصابرين: ﴿ **إِنما يوفي الصابِرون أَجرهم بِغَير حِسابٍ**﴾ [٢] فهل يمكن أن يترك الصبر دون صفة تغرى بـالالتزام بـه؟ فهو صبر موصوف بأنه جميل"**لأن فـي الجمـال اهتمامـاً واعتناء ورعاية**"[٣].

---

(١) سورة يوسف آية ١٨.

(٢) سورة الزمر آية ١٠.

(٣) الإعجاز الفنى في القرآن لعمر السلامى: ص ٨٢.

وبهذا فالوصف هنا يعمق المعنى، ويصيب الهدف بدقة.

وخذ شاهداً من قول ا تعالى لحبيبه محمـدﷺ: **﴿وإنـك لعلى خُلُقٍ عظِيمٍ﴾** [1]،فوصف خلق رسول ا ﷺ بأنه عظيم، يجسد الموصوف، ويجعلـه أكثـر حضـوراً فـي الـذهن والوجدان،"**ويعجز كل قلم، وكل مصور، عن وصف قيمة هذا الثناء الفريد من ا على حبيبه محمد، وهو شهادة من ا في ميزان ا ، لعبد ا محمد يقول فيها: ﴿ وإنـك لعلـى خُلُقٍ عظِيمٍ ﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند ا ، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين ... ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة النبوية، وعلـى لسـان أصـحابه روايات منوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة مـن كل ما روى عنه، ولكن هذه الكلمة القرآنية أعظم بـدلالتها من كل شئ آخر.أعظم بصدورها مـن ا العلـى الكبيـر، وأعظم بتلقى محمد لها وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً لا يتكبـر، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم..ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد**

---

(1) سورة القلم آية ٤.

العنصر الأخلاقى في ميزان ا ، وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية"[1].

وخذ شاهداً من قوله تعالى: ﴿ **وإلهكُم إلَه واحِد** ﴾ [2]، حيث لم يقل: **(وإلهكم واحد)** مع أنه أوجز، وإنما أتى بلفظة **(إله)** موصوفاً بأنه واحد.والحكمة من هذا: أنه لو قال:"**وإلهكم واحد**"لكن ظاهره إخبار عن كونه واحداً في إلهيته، يعنى لا إله غيره، ولم يكن إخباراً عن توحده في ذاته، بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله، والآية إنما سيقت لإثبات أحديته في ذاته ونفي ما يقوله النصارى إنه إله واحد والأقانيم ثلاثة، أي الأصول، كما أن زيداً واحداً وأعضاؤه متعددة، فلما قال:﴿**إله واحِد** ﴾ دل على أحدية الذات والصفة.

ولقائل أن يقول:قوله**(واحداً)**يحتمل الأحدية في الذات والأحدية في الصفات،سواء ذكر"**الإله**"أولاً،فلا يتم الجواب [3].

وخذ شاهداً من قوله تعالى: ﴿**أفَرَأيتُم اللاّتَ والْعزى ومنَاةَ**

([1]) في ظلال القرآن لسيد قطب: مجلد ٦ ص ٣٦٥٦، ٣٦٥٧"**بتصرف يسير**".

([2]) سورة البقرة آية ١٦٣.

([3]) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٢/ ٤٤٢ ط عيسى البابى الحلبى.

الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى﴾ [1].

فتراه قال الأخرى مع أنه معلوم بقوله **(الثالثة)** أنها الأخرى، وذلك للتأكيد[2]، وخذ شاهدا من قوله تعالى: ﴿**فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾.سورة النحل: آية ٢٦، فقال: **(من فوقهم)** مع أنه معلوم بأن السقف يكون من فوق، لا من تحت ولا من أي أخرى.

والحكمة من هذا: أن يدل قوله **(من فوقهم)** على الفوقية الحقيقية، وما أحسن هذه المقابلة بالفوقية بما تقدم من قوله: ﴿**فأتى ا بنياتهم من القواعد**﴾.كما تقول: أخذ برجله فسقط على رأسه [3].

---

(1) سورة النجم آية ١٩ – ٢٢.

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشى ص: ٤٤٣٠ ط عيسى البابى الحلبى.

(3) انظر السابق والصفحة نفسها.

وخذ شاهداً من قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصورِ نَفْخَـةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ [1].

قال ابن عمرون: لما فهم منها التأكيد ظن بعضـهم أنهـا ليست بصفة.وليس بجيد،لأنها دلالة على بعض أحوال الذات؛ وليس في (**واحدة**)دلالة على نفخ، فدل على أنها ليست تأكيداً.

وفي فائدة **(واحدة)** خمسة أقوال:

أحدها: التوكيد، مثل قولهم:"أمس الدابر".

الثاني: وصفها ليصح أن تقوم مقام الفاعل؛ لأنهـا مصـدر والمصدر لا يقوم مقام الفاعل إلا إذا وصف.ورد بأن تحديدها بتاء التأنيث مصحح لقيامها مقام الفاعل.

الثالث: أن الوحدة لم تعلم من"نفخـة"إلا ضـمناً وتبعـاً، لأن قولك:"نفخة"يفهـم منـه أمـران: الـنفخ والوحـدة، فليست"نفخة"موضوعة للوحدة، فلذاك صح وصفها.

الرابع: وصفة النفخة بواحدة لأجل (نفي) توهم الكثرة، كقوله تعالى: ﴿ وإن تَعدوا نِعمةَ اللـهِ لَـا تُحصـوها﴾ (٢)

([1]) سورة الحاقة آية ١٣.

([2]) بعض من آية في سورة إبراهيم: آية ٣٤ وفي سورة النمل: آية ١٨.

فالنعمة في اللفظ واحدة وقد علـق عـدم الإحصـاء بعدها.

الخامس: أتى بالوحدة ليدل على أن النفخة لا اخـتلاف فـي حقيقتها، فهى واحدة بالنوع كقوله تعالى﴿وما أمرنَا إلا واحِدةٌ﴾ (١).أي لا اختلاف في حقيقته (٢).

وخذ شاهداً من قول ا تعالى على لسان ملأ بلقيس ملكة سبأ: ﴿ **نَحن أُولُوا قُوةٍ وأُولُوا بأْس شَدِيدٍ** ﴾ [٣] حيث تـرى الصفة تكسب الموصوف وضوحاً وقوة تأثير.

وهكذا ترد صفات مثل **(الصراط المسـتقيم) و(الصـرح الممرد) و(الجبال الراسيات) و(الألسنة الحـداد) و(العـروة الوثقى) و(شديد العقاب) و(غافر الذنب)** ... وغيـر ذلـك كثير.

وفي كل هذه الشواهد ونحوها نجـد الموصـوف مثبتـاً والصفة تزيده دقة ووضوحه.

---

(١) سورة القمر آية ٥٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٢/ ٤٤١، ٤٤٢ ط عيسى البابى الحلبى.

(٣) سورة النمل آية ٣٣.

فما أجمل القرآن فيما يخلعه على الموصوفين من صفات وما أروعه فيما أتى به من نعوت!

هذا وفي القرآن الكريم شواهد نجـد فيهـا الموصـوف محذوفاً لتقوم الصفة مقامه"**وباب الحـذف دقيـق المسـلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر**"كما قـال عبـد القاهر الجرجانى [1].

لأنك تجد في حذف المذكور إبهاماً يعـين علـى سـعة التصور والتأويل.وهذا ألصق بالأدب الرفيع الذي يثير فـي المتلقى غريزة البحث والفضول، ويكسـب التعبيـر ثـراء وغنى، ويبعده عن التقريرية التى لا يحتاج معها الإنسان إلى إعمال فكر، أو إمعان نظر.

وفي القرآن الكريم منازع كثيرة للحذف، كحذف المفعول، أو متعلق بالجار والمجرور، أو المبتدأ والخبر.

ومن الشواهد الرائعة لترك الموصوف لتقوم الصفة مقامه قوله تعـالى: ﴿ **والنازعـاتِ غَرقًـا، والناشِـطاتِ نَشْـطًا، والسابِحاتِ سبحا، فَالسابِقَاتِ سبقًا، فَالْمدبراتِ أَمرا**﴾ [2].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٨.

(٢) سورة النازعات آية ١ – ٥.

وقد بلغت تأويلات المفسرين للنازعات سبعة أقوال: فهى الملائكة، النجوم، النفوس، الجماعات النازعة بالقسى، المنايا، الوحش، خيل الغزاة.

ومثلها: السابحات والسابقات والمدبرات مع اختلاف بينها في الدلالة[1].

فالقرآن الكريم هنا يعبر عن اسم جامد بآخر مشتق لهدف فنى أو بلاغى، فيعدل عن ذكر اسم جامد من أسماء الذوات، لأن له تصوراً محدداً في الذهن، ويذكر اسماً مشتقاً يشـتمل على صفة من صفات هذا الاسم الجامد، ومـن ثـم تتعـدد الاحتمالات الذهنية لهذا الاسم الجامد [2] وهذا النـوع مـن الحذف في القرآن كثير.

خذ لحذف الموصوف وقيام الصفة مقامه شاهداً من قولـه تعالى:﴿ **فَمن يعملْ مِن الصالِحاتِ وهو مؤْمِن فَلَا كُفْـران لِسعيِهِ**﴾ [3].

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشرى ٢١٢/٤.

(٢) لغة القرآن الكريم في جزء عم د/ محمد أحمد نحلة ص ٤٢٨ ط دار النهضة العربية بيروت ط أولى ١٩٨١ م.

(٣) سورة الأنبياء آية ٩٤.

فالصالحات هنا صفة قد لا نجهد أنفسنا في التعرف على موصوفها، ولكننا نقرر أن هذا الموصوف قد حذف للإشعار بأن الصالحات ليست أمراً واحداً.

وغنى عن البيان أن نذكر أن هذه الصفة كثيرة الورود في كتاب ا عزوجل، ويتكرر قوله تعالى **(وعملوا الصالحات)** عشرات المرات في القرآن، وهى تعنى **(كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة)** [1].

وخذ شاهداً ثانياً من صفة **(الراكع والساجد)** التى كررت في القرآن الكريم كثيراً؛ فإن هذه الصفة جرت مجرى الاسم والموصوف، وقامت مقامه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وطَهر بيتِي لِلطائِفِين والْقَائِمِين والركعِ السجودِ**﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ **ركعا سجدا**﴾ [3]، ولم يقل: الراكعين الساجدين وإنما الركع السجد للدلالة على كثرة الركوع والسجود سبحانه وتعالى، وكأن الركوع والسجود صفتان ملازمتان لهم.

---

(١) في سورة (العصر) شاهد لذاك.

(٢) سورة الحج الآية ٢٦.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

وخذ شاهداً ثالثاً من صفات ا تعـالى مثـل الـرحمن والرحيم والقهار والجبار، حيث تراها ونحوها فـي بعـض الآيات القرآنية مذكورة وحدها، وكل صفة منها تـدل علـى ذاته تعالى، مغنية عن ذكر لفظ الجلالة.فذكر صـفة ا دون ذكر لفظ الجلالة، لأن صفاته ملازمة لذاته تعـالى، أو هـى عين ذاته، كما يقول المعتزلة؛ ولهذا يكتفي القرآن في بعض مواضعه بذكر الصفة وحدها.

ومن شواهد الصـفات التـى أغنـت عـن موصـوفها: **(الجوارى الكنس)** و**(الجوارى المنشآت)** و**(سـبعاً طباقـاً)**، وهى مما يعين على تكثيف اللغة، ويشيع في نفـس المتلقـى الرغبة في الكشف والتأويل.

ومن شواهد حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قولـه تعالى:**﴿الله نَزلَ أَحسن الْحدِيثِ كِتَابا متَشَابِها مثَانِي﴾** [(١)].

(١) الزمر: ٢٣.

فالأصل **(كتاباً متشابهاً فصولاً مثانى)** فحذف الموصوف **(فصولاً)** وأقام الصفة **(مثانى)** مقام الموصوف، ومـن هنـا صح وصف الواحد **(كتاباً)** بالجمع **(مثانى)**،"**وقد صح ذلـك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشئ هى جملته لا غير، ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات، وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، ونظيـره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب.ويجـوز أن يكـون كقولك: برمة أعشار وثوب أخلاق.ويجوز أن لا يكون مثانى صفة ويكون منتصباً على التمييز من ﴿متشابهاً﴾، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى (علـى هـذا) متشـابهة مثانية**"[1].

هذا وأحب أن أتطرق في ختام هـذا المبحـث لأمـرين مهمين، يجدر الحديث عنهما:

الأمر الأول: يتصل بالبسملة التى جاءت فـي أول كـل سورة من سور القرآن الكريم في المصحف الشريف**(ماعـدا سورة التوبة)**، فقد وصف ا نفسه في هذه البسملة بصفتى **(الرحمن الرحيم)**، وقد آثرهما الحق سبحانه بالذكر مـن

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٩٥.

بين سائر صفاته الجليلة، وأسمائه الحسـنى، للدلالـة علـى رحمته التى كتبها على نفسه، والتى وسعت كل شئ.

ولابد من التنبيه هنا على أن هذين الوصفين قد جاءا للثناء عليه سبحانه وتعالى، ولم يذكرا للتمييز؛ لأنه ليس له مثـل- تعالى ا عن ذلك-حتى يوضح بالصفة.

ومن عجائب القرآن الكريم: أن وصفه سبحانه بـالرحمن قد تكرر سبعا وخمسين مرة، أي ما يعـادل نصـف سـور المصحف الشريف، ووصفه سبحانه بالرحيم قد تكرر مائـة وأربع عشرة مرة، أي ما يعادل سور القرآن الكريم جميعها.

والأمر الثانى الذي أحب أن أوضـحه هـو: أن القـرآن الكريم لم يتحدث عن سيدنا الخضر-عليه السلام بهذا الاسـم الذى ذكره المفسرون، و بينته السنة النبوية، وإنما تحدث عنه بالصفات التى تجسد شخصيته تمام التجسيد، وهى عبوديتـه

رب العالمين، والرحمة التى آتاه ا إياها من عنده، ثـم العلم اللدنى الذي ميزه ا به، والذي علـى ضـوئه كانـت الحكمة من الخ-وارق الثلاث التى قام بها وتعجب منها سيدنا موسى-عليه السلام أعنى: **(خرق السفينة، وقتـل الغـلام، وبناء جدار اليتيمين).**

ومما لا شك فيه: أن التعبير عن شخصية الخضر بصفاته المذكورة، دون اسمه يعطى دلالات أكبـر مـن التصـريح باسمه، فالصفة الأولى تقدمه لنا عبدا من عباد ا ، والعبودية هى أشرف المقامات، وأعلى الدرجات، بدليل وصف رسولنا بها في ص-در سورة الإسراء، كما وصف بها في سـورة ص كل من: داود وسـليمان وأيـوب وإبـراهيم وإسـحق ويعقوب.

والصفة الثانية من صفات الخضر هى الأسـاس الـذي غلفت به أفعاله التى رآها رسول ا موسى-عليـه الصـلاة والسلام فخرقه للسفينة إنما كان رحمة بأصحابها المسـاكين من ذلك الملك الظالم الذي كان يغتصب كل سـفينة سـليمة تجرى في البحر.وقتله للغلام إنما كان رحمة بوالديه، وخشية من أن يرهقهما لوعاش طغيانا وكفرا.

والصفة الثالثة **(العلم اللدنى)** هى أخص الخصـائص التى تميز بها الخضر عليه السلام.

روعة
الإجمال بعد التفصيل

في القرآن الكريمتعد روعة الإجمال بعد التفصـيل مـن معالم الجمال البارزة في القرآن الكريم، ويكفي أن نقف فـي الاستشهاد على هذا المعلم الجمالى عند بعض الآيات التـى تضمنت كلمات من ألفاظ العدد.

والقرآن الكريم فيه كل الأعداد المفردة، من واحد وواحدة إلى عشرة وعشر.وفيه من الأعداد المركبة: أحد عشر، واثنا عشر واثنتا عشرة، وتسعة عشر.وفيه من العقود: عشـرون وثلاثون وأربعون وخمسون وسـتون وسـبعون وثمـانون، ومعها العدد: تسع وتسـعون.والأعـداد: مائـة، ومئتـان، وثلاثمائة وتسع، وألف، وألفان، وثلاثة آلاف، وخمسة آلاف، ومائة ألف أو يزيدون.

وفيه من كسور العدد: الثلثان والنصف والثلـث والربـع والخمس والسدس والثمن، كلها في آيات الأحكام.

وفي دراسة جامعية عن **(العدد ودلالاته القرآنية)** أنجزتها الدكتورة **(الجوهرة الفهد بـن عبـد الـرحمن آل سـعود)** بإشراف الدكتورة عائشة عبد الرحمن **(بنت الشاطئ)** هـدى الاستقراء الكامل لكل الأعداد القرآنية، وتدبر سـياقها، إلـى ضوابط عامة لدلالات الأعداد في القرآن الكريم، مجملها:

١- **حيث جاء العدد في آيات الأحكام، أو الإخبار من ا تعالى، فدلالته رقمية محددة.وبهذه الدلالة كل كسور العدد في القرآن: آيات الأحكام.**

٢- **وحيث جاء العدد في آيات العظة والاعتبار وضرب الأمثال، فبدلالة بيانية تفيد القلة أو التعدد أو الكثرة، وليس بدلالة العدد تحديداً برقمه.**

٣- **وأما الأعداد الغيبية، فكما جاءت في القرآن الكريم، لا يحل لأحد أن يخوض فيها بتأويل، رجماً بالغيب.**

المهم: أن من آيات الأحكام التى جاء فيها العدد قـول ا تعالى: ﴿ **....فَإِذَا أَمِنتُم فَمن تَمتع بِالْعمرةِ إِلى الْحـج فَمـا استَيسر مِن الْهديِ فَمن لَم يجِد فَصِيام ثَلَاثَةِ أَيامٍ فِي الْحـج**

وسبعةٍ إِذَا رجعتُم تِلْك عشَرةٌ كَامِلَةٌ ذَلِك لِمن لَم يكُن أَهلُه حاضِرِي الْمسجِدِ الْحرامِ ﴾ [1].

ومن آيات الإخبار من الله تعالى التى جاء فيها العدد قوله تعالى: ﴿ **وواعدنَا موسى ثَلاثِين لَيلَةً وأَتْممنَاها بِعشْرٍ فَتَم مِيقَاتُ ربهِ أَربعِين لَيلَةً﴾**[2].

وهذان الشاهدان من الروائع القرآنية لذلك المعلم الجمالى الذي أسميناه **(الاجمال بعد التفصيل)**، وهو عكس التفصيل بعد الإجمال الذي نراه مثلا في قوله تعالى:﴿**إِن عِدةَ الشهورِ عِنْد اللهِ اثْنَا عشَر شَهرا فِي كِتَابِ اللهِ يوم خَلَقَ السماواتِ والْأَرض مِنْها أَربعةٌ حرم ...** ﴾.[3]

ففي قوله تعالى: ﴿**فَصِيام ثَلَاثَةِ أَيامٍ فِي الْحج وسبعةٍ إِذَا رجعتُم تِلْك عشَرةٌ كَامِلَةٌ**﴾.أعاد ذكر العشرة، وإن كان معلوماً من الثلاثة والسبعة **(فهو مجموع العددين)**،وفي قوله تعالى: ﴿**وواعدنَا موسى ثَلاثِين لَيلَةً وأَتْممنَاها بِعشْرٍ فَتَم مِيقَاتُ ربهِ أَربعِين لَيلَةً**﴾أعاد ذكر **(الأربعين)** وإن كان معلوماً من

---

[1] من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

[2] سورة الأعراف: آية ١٤٢.

[3] من الآية ٣٦ من سورة التوبة.

الثلاثين والعشر **(فهو مجموع هذين العددين)**، وهذا الشـاهد وذاك من أروع النماذج للإجمال بعد التفصيل في لغة القرآن الجليل.

وليست المسألة هنا مجرد جمع للعددين، كما هو الحال في علم الحساب المعروف، كما أنها ليست مجرد إجمـال فـي القول بعد تفصيل، وإنما ذلك لحكمة جليلة، وسر عظيم.فقـد أعاد ذكر العشرة بعد الثلاثة والسبعة لما كانت الواو تجئ في بعض المواضع للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابـن سيرين، ألا ترى أنه لو جالسهما جميعاً أو واحداً منهما كـان متمثلاً، فجاء هذا الجمع للثلاثة والسبعة بلفظة عشـرة نفيـاً لتوهم الإباحة، وبياناً بأن المتمع من الحجاج إذا عجز عـن هدى المتعة صام ثلاثة أيام في وقت الحج، وسبعة أيـام إذا نفر وفرغ من أفعال الحج **(هذا عند أبـى حنيفـة)** أو عنـد الرجوع إلى أهله **(عند الشافعى)**.على أن هناك حكمة أخرى من ذكر العشرة بعد الثلاثة والسبعة جمعاً لهما، وهى أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتـين، فيتأكـد العلم، وفي أمثال العرب **(علمان خير من علم واحد)**، وقوله تعالى: **(كاملة)** تحقيق لذلك وتأكيداً له، وفيه زيادة توصـية

بصيامها، وأن لا يتهاون بها، ولا ينقص من عـددها، كمـا تقول للرجل؛ إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به، وكان منـك بمنزلة: **(ا ا لا تقصر)** وقيل: كاملة في وقوعها، بدلاً من الهدى[1]. وقيل: معنى كاملة الأمر بإكمالها وإتمامها، وقيـل معنى كاملة أي مجزئة عن الهدى[2] وأياً كان المـراد فهـى تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعينـى، وسـمعت بـأذنى، وكتبت بيدى، وقال ا تعالى: **(ولا طائر يطيـر بجناحيـه)** وقال: **(ولا تخطه بيمينك)** فهو ينص علـى العشـرة نصـاً للتوكيد وزيادة البيان.

وإذا كنا نخرج مما سبق ذكره بحكمتين لذكر العشرة بعد الثلاثة والسبعة وهما الإجمال بعد التفصيل، ورفع الالتباس، فإنه يضاف إلى ذلك ما يلى رصده:

أولاً: أنه قصد رفع ما قد يهجس في النفـوس، مـن أن المتمتع إنما عليه صوم سبعة أيام لا أكثر، ثلاثة منهـا فـي الحج، ويكمل سبعاً إذا رجع.

---

(1) الكشاف للزمخشرى: ١/ ٣٤٥ ط دار المعرفة بيروت.

(2) سورة البقرة: آية ١٩٦.

ثانياً: أن قاعدة الشريعة أن الجنسين في الكفارة لا يجب على المكفر الجمع بينهما، فلا يلزم الحالف أن يطعم المساكين ويكسوهم؛ ولا المظاهر العتق والصوم؛ فلما اختلف محل هذين الصومين فكانت ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع، صارا باختلاف المحلين كالجنسين، والجنسان لا يجمع بينهما. وأفادت هذه الزيادة – وهى قوله: ﴿ **تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ رفع ما قد يهجس في النفوس، من أنه إنما عليه أحد النوعين: إما الثلاث وإما السبع.

ثالثاً: أن المقصود ذكر كمال لا ذكر العشرة، فليست العشرة مقصودة بالذات، لأنها لم تذكر إلا للإعلام بأن التفصيل المتقدم عشرة، لأن ذلك من المعلوم بالضرورة، وإنما ذكرت لتوصف بالكمال الذي هو مطلوب في القصة.

رابعاً: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: فصيام عشرة أيام: ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجعتم؛ وهذا وإن كان خلاف الأصل، لكن الإشكال ألجأنا إليه.

خامساً: أن الكفارات في الغالب إنما تجب متتابعة ككفـارات الجنايات، ولما فصل هاهنا بين صوم هـذه الكفـارة بالإفطار قبل صومها بذكر الفدية ليعلم أنهـا وإنمـا كانت منفصلة فهى كالمتصلة.

فإن قلت: فكفارة اليمين لا تجب متتابعة، ومن جنس هذه الكفارة ما يجب على المحرم إذا حلق ثلاث شعرات، ومـن عجز عن الفدية فإنه يصوم ثلاثة أيام ولا يشترط التتابع.

قلت: هى في حكم المتتابعة بالنسبة إلـى الثـواب؛ إلا أن الشرع خفف بالتفريق.

سادساً: أن السبع قد تذكر والمراد به الكثرة لا العدد؛ والذي فوق الستة ودون الثمانية، وروى أبو عمرو بن العلاء وابن الأعرابى عن العرب: سبع ا لك الأجـر، أي أكثر ذلك، يريدون التضعيف.

وقال الأزهرى في قوله تعالى: ﴿ **إِن تَستَغْفِر لَهم سبعِين مرةً** ﴾ [1] هو جمع السبع، الذي يستعمل للكثرة، وإذا كـان كذلك فاحتمل أن يتوهم أن المراد بالسبع ما هو أكثـر مـن

(1) سورة التوبة آية ٨٠.

السبع؛ ولفظها معطوف على الثلاثة بآلة الجمع، فيفضى إلى الزيادة في الكفارة على العدد المشروع، فيجب حينئـذٍ رفـع هذا الاحتمال بذكر الفذلكة؛ وللعرب مستند قوى في إطـلاق السبع والسبعة، وهى تريد الكثرة ليس هذا موضع ذكره.

سابعاً: أن الثلاثة لما عطف عليها السبعة احتمـل أن يـأتى بعدها ثلاثة أو غيرها من الأعداد، فقيد بالعشرة ليعلم أن المراد كمل، وقطع الزيادة المفضية للتسلسل.

ثامناً: أن السبعة المذكورة عقب الثلاثـة يحتمـل أن تكـون الثلاثة داخلة فيها، كما في قوله: ﴿وقَدر فِيها أَقْواتَهـا فِي أَربعةِ أَيامٍ﴾(١)أي مع اليومين اللذين خلق الأرض فيهما، فلابد من اعتقاد هذا التأويـل لينـدفع ظـاهر التناقض، فجاء التقييد بالعشرة لرفع توهم التداخل.

وهذا الجواب أشار إليه الزمخشرى؛ ونقول عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ترجيحه؛ ورده ابن أبى الإصبع بـأن احتمال التداخل لا يظن إلا بعددين منفصلين لم يـأت بهمـا جملة، فلو اقتصر على التفصيل احتمل ذلك؛ فالتقييد مانع من هذا الاحتمال.

---

(١) سورة فصلت آية ١٠٠.

وهذا أعجب منه، فإن مجئ الجملة رافع لذلك الاحتمال.

تاسعاً: أن حروف السبعة والتسعة مشتبهة، فأزيل الإشـكال بقوله:﴿ تِلْكَ عشَرةٌ كَامِلَةٌ ﴾ لئلا يقرؤهـا"تسـعة"، فيصير العدد اثنى عشر.ونظير هـذا قولـهﷺ:"إن تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً"(١).

هذا عن قوله تعالى: ﴿ **فَصِيام ثَلَاثَةِ أَيامٍ فِي الْحج وسبعةٍ إِذَا رجعتُم تِلْكَ عشَرةٌ كَامِلَةٌ** ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ **وواعدنَا موسى ثَلَاثِين لَيلَةً وأَتْممنَاهـا بِعشْرٍ فَتَم مِيقَاتُ ربهِ أَربعِين لَيلَةً**﴾ **(سورة الأعـراف: آيـة ١٤٢)** فقد أعاد فيه قوله: **(أربعين)** وإن كان معلومـاً مـن الثلاثين والعشر أنها أربعون، لنفي اللبس؛ لأن العشـر لمـا أتت بعد الثلاثين، التى هى نص في المواعدة دخلها الإحتمال أن تكون من غير المواعدة، فأعاد ذكر **(الأربعين)** نفياً لهـذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة [٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى ٢(٤٨٠ – ٤٨٢ ط عيسى البابى الحلبى.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٢/ ٤٧٨ ط عيسى البابى الحلبى (الثانية).

وإذا كانت لفظة **(أربعين)** في هذه الآية إجمال لمـا تقـدم عليها في الآية نفسها من ذكر الثلاثين والعشر، فإن هذه الآية قد فصلت بالثلاثين والعشر ذكر الأربعين المجملة في سورة البقرة، حيث يقول ا تعالى: ﴿ **وإذْ واعدنَا موسى أَربعِـين ليلَةً**﴾ [1]، ففي الأعراف: الثلاثون ثم العشر، وفـي البقـرة أربعون، ولم يفصل العشر منها.ومن وراء هذا وذاك حكمـة جليلة، وسر عظيم.

لقد ذكر في سورة الأعراف الثلاثين ثم العشر؛ لأنه قصد في الأعراف ذكر صفة المواعـدة والإخبـار عـن كيفيـة وقوعها، فذكر على صفتها، وقال في البقرة ﴿ **وإذْ واعـدنَا موسى أَربعِين ليلَةً**﴾ ولم يفصل العشر منها، لأنه ذكر فـي البقرة الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم به علـيهم، فـذكر نعمه عليهم مجملة، فقال: ﴿ **وإذْ فَرقْنَا بِكُم الْبحـر** ﴾ [2]،﴿**وإذْ أَنجينَاكُم مِن آل فِرعون** ﴾ [3] [4].

---

(1) سورة البقرة: آية ٥١.

(2) سورة البقرة آية ٥٠.

(3) سورة البقرة آية ٤٩.

(4) السابق: ص ٤٧٩.

أما حكمة جعل زمن المواعدة وهو الأربعون ثلاثين ثم عشراً فهى: "**أن العشر إنما فصل من أولئك ليتحدد قرب انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي، حاضر الذهن؛ لأنه لو ذكر الأربعين أولاً لكانت متساوية؛ فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم... وهذا شبيه بالتلوم الذي جعله الفقهاء في الآجال المضروبة في الأحكام، ويفصلونه من أيام الأجل، ولا يجعلونها شيئاً واحداً، ولعلهم استنبطوه من هذا**"[1].

وقد ذكر المفسرون "**أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمر بصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذى القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوك بلحاء شجرة، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه (أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك؟) فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك،**

---

(1) البرهان للزركشى ٢/ ٤٧٩ ط عيسى البابى الحلبى.

وقيل: أمره ا أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بمـا يقربه من ا ، ثم أنزلت عليه التوراة فـي العشـر، وكلـم فيها"[(١)].

وعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيـه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل ا الدين لمحمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ **الْيومَ أَكْملْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْممـتُ علَـيكُم نِعمتِي ورضِيتُ لَكُم الْإِسلَام**﴾ [(٢)].

وإتماما للفائدة نذكر هنا أننا نرى القرآن الكريم يفصـل أحيانا في سورة من سوره ما أجمله في سورة أخرى، وهذا أيضا معلم من معالم الجمال البارزة فيه، والأمثلة على ذلـك جد كثيرة في كتاب ا عز وجل.

خذ مثلاً من قوله تعالى: ﴿**وإِذَا بشر أَحدهم بِمـا ضـرب لِلرحمن مثَلاً..**﴾ [(٣)].وقد بين ذلك بقوله في سـورة النمـل: ﴿**وإِذَا بشر أَحدهم بِالْأُنثَى...**﴾ [(١)].

([١]) الكشاف ٢/١١ ط دار المعرفة بيروت وأنظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٢ ط دار إحياء التراث العربى.

([٢]) سورة المائدة: آية ٣.ابن كثير ٢/ ٤٠٢ ط دار إحياء التراث.

([٣]) سورة الزخرف آية ٦

وخذ مثلاً ثانياً من قوله تعالى: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**﴾ [2]، فلم يستثن امرأة لوط في هذا الموضع، وهي مستثناة في المعنى بقوله في الآية الأخرى: ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ** ﴾ [3] فأظهر الاستثناء في هذه الآية [4].

وخذ مثلاً ثالثاً من قوله تعالى: ﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ [5]، حيث اختصر هنا جواب إبراهيم على الملائكة، وبينه في موضع آخر: ﴿ **فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ** ﴾ [6] [7].

---

(1) سورة النحل: آية ٥٨.

(2) سورة الحجر آية ٦٥.

(3) سورة هود آية ٨١.

(4) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٩١ ط الحلبى.

(5) سورة الحجر: آية ٥٢.

(6) سورة الذاريات آية ٢٥.

(7) البرهان في علوم القرآن ١٩١/٢ ط الحلبى.

وخذ مثلا رابعاً من قوله تعالى: ﴿ **لِلرجال نَصِيب مِما تَرك الْوالِدان والأَقْربون ولِلنساءِ نَصِيب ...**﴾ [1].

فهذه الآية مجملة، لا يعلم منها من يرث من الرجال والنساء بالفرض والتعصيب، ومن يرث ومن لا يرث، ثم بينه وفصله في آية أخرى بقوله:﴿**يوصِيكُم الله فِي أَولَادِكُم لِلذكَر مِثْلُ حظ الأُنثَيين**﴾[2].

وخذ مثلا خامساً من قوله تعالى:﴿ **أُحِلتْ لَكُم بهيمةُ الأَنْعامِ إِلا ما يتْلَى علَيكُم**﴾[3]فهذا الاستثناء مجمل، بينه وفصله في آية أخرى بقوله:﴿**حرمتْ علَيكُم الْميتَةُ والدم ولَحم الْخِنزِير**﴾[4].

وخذ مثلا سادسا من قوله تعالى:﴿**ولَقَد أَرسلْنَا إِلَى ثَمود أَخَاهم صالِحا أَن اعبدوا اللَّه فَإِذَا هم فَرِيقَان يخْتَصِمون**﴾[5]فهنا إشارة في إجمال إلى الاختصام،وتفصيله ما قال في سورة أخرى:﴿**قَالَ الْملأُ الَّذِين استَكْبروا مِن قَومِهِ**

(١) سورة النساء آية ٧.

(٢) سورة النساء آية ١١.

(٣) سورة المائدة آية ٣.

(٤) سورة المائدة آية ٤.

(٥) سورة النمل آية ٤٥.

لِلذِين استُضعِفُوا لِمن آمن مِنْهم أَتَعلَمون أَن صالِحا مرسَـلٌ مِن ربهِ﴾[1].

وخذ مثلا سابعا من قوله تعالى: ﴿ **لهم الْبشْرى فِي الْحياةِ الدنْيا وفِي الْآخِرةِ﴾** [2]، فهنا إشارة – فـي إجمـال – إلـى البشرى، وقد بينها – تفصيلاً – في موضـع آخـر بقولـه: **﴿تَتَنَزلُ عليهم الْملَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا ولَـا تَحزنُـوا وأَبشِـروا بِالْجنةِ الَتِي كُنْتُم تُوعدون﴾** [3].

هذا وقد يكون التفصيل بعد الإجمال في آية واحدة، علـى شاكلة ما جاء في الآية السادسة والثلاثين في سورة التوبـة من إجمال لعدد شهور العام الهجرى بقوله تعالى: **(إن عـدة الشهور عند ا اثنا عشر شهرا في كتاب ا يـوم خلـق السموات والأرض)**، ثم ذكر بعد ذلك أن من هـذه الشـهور الاثنى عشر أربعة حرما.

---

(1) سورة الأعراف آية ٧٥.

(2) سورة يونس آية ٦٤.

(3) سورة فصلت آية ٣٠.

وفي السنة النبوية تفصيل للأربعة الحرم، إذ قال رسـول ا -ﷺ- في ثنايا خطبته الشهيرة التى ألقاها في حجة الوداع: **(ألا إن الزمان قد استدار اليـوم كهيئتـه يـوم خلـق ا السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجـب مضر الذي بين جمادى وشعبان).**

وغنى عن البيان أن نذكر أن قوله -ﷺ : **(إن الزمان قـد استدار اليوم كهيئته يوم خلق ا السموات والأرض)** تقرير منه صلوات ا وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعلـه ا ، وتثبيت في أول الأمر من غير تقـديم ولا تـأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسئ ولا تبديل.

وقد أضاف شهر رجب إلى مضر ليبين صحة قولهم فـي رجب: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين -ﷺ- أنه رجب مضر لا رجـب ربيعـة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة **(ثلاثـة منهـا متواليـات، وواحد فرد)**، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم

شهر ذى الحجة لأنهم يؤدون فيه الحج، ويشتغلون فيـه بـأداء المناسك، وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط العام؛ لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيـرة العـرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.(١)

تنوعت صيغ الخطاب، والمخاطبون في القرآن الكـريم، فهناك خطاب ا للناس عامة ب- **(يا أيها النـاس)** علـى شاكلة ما نراه في مطلعى سورتى النساء والحـج، وهنـاك خطاب ا للذين آمنوا، كما في قوله تعالى: ﴿**ياأيهـا الـذِين آمنُوا كُتِب علَيكُم الصيام ....**﴾ (٢).

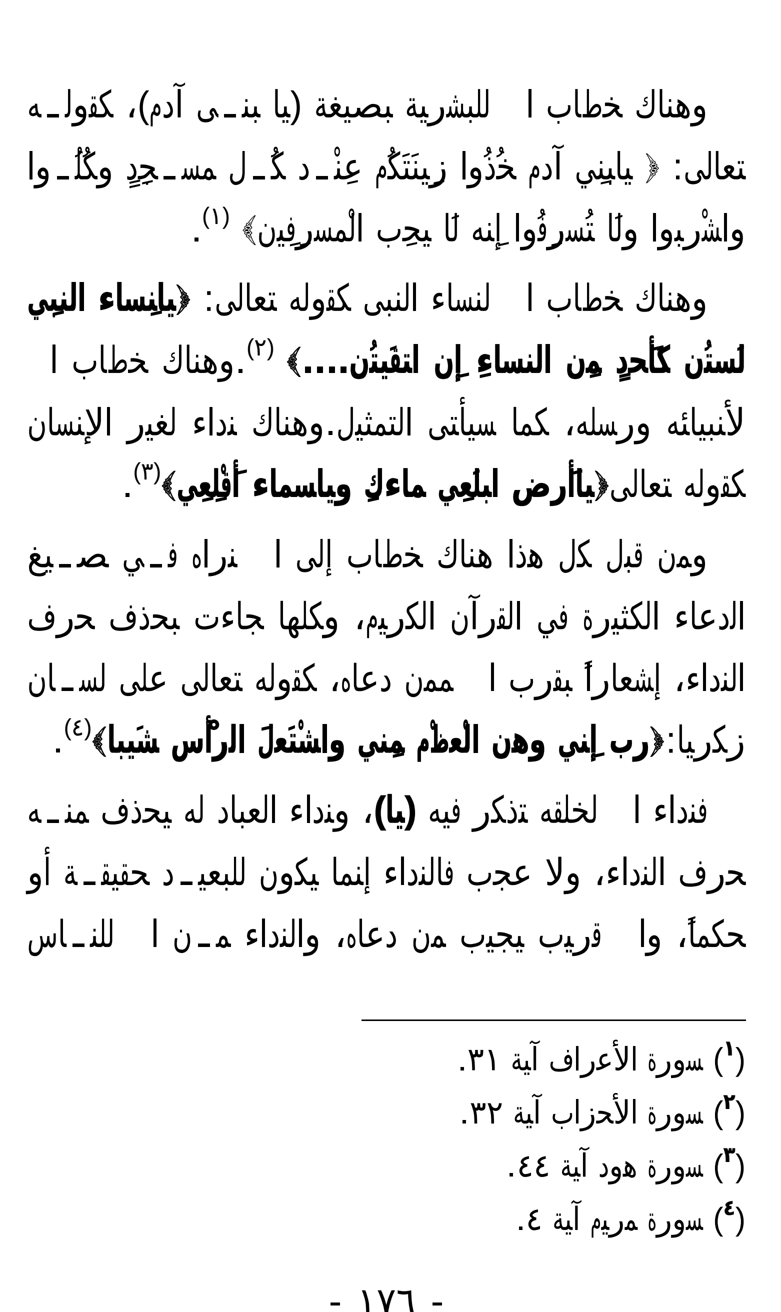
وهناك خطاب ا للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿**ياأيهـا الذِين كفَروا لَا تعتَـذِروا الْيـوم إِنمـا تُجـزون مـا كُنـتُم تَعملُون**﴾(٣).

---

(١)انظر: تفسير ابن كثير ٥٧٧/٢

(٢) سورة البقرة آية ١٨٣.

(٣) سورة التحريم آية ٧.



وهناك خطاب ا للبشرية بصيغة (يا بنـى آدم)، كقولـه تعالى: ﴿ يابنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُم عِنْـد كُـل مسـجِدٍ وكُلُـوا واشْربوا ولَا تُسرِفُوا إِنه لَا يحِب الْمسرِفين﴾ [1].

وهناك خطاب ا لنساء النبى كقوله تعالى: ﴿**يانِساء النبِي لَستُن كَأَحدٍ مِن النساءِ إِن اتقَيتُن....**﴾ [2].وهناك خطاب ا لأنبيائه ورسله، كما سيأتى التمثيل.وهناك نداء لغير الإنسان كقوله تعالى﴿**ياأَرض ابلَعِي ماءكِ وياسماء أَقْلِعِي**﴾[3].

ومن قبل كل هذا هناك خطاب إلى ا نراه فـي صـيغ الدعاء الكثيرة في القرآن الكريم، وكلها جاءت بحذف حرف النداء، إشعاراً بقرب ا ممن دعاه، كقوله تعالى على لسـان زكريا:﴿**رب إِني وهن الْعظْم مِني واشْتَعلَ الرأْس شَيبا**﴾[4].

فنداء ا لخلقه تذكر فيه **(يا)**، ونداء العباد له يحذف منـه حرف النداء، ولا عجب فالنداء إنما يكون للبعيـد حقيقـة أو حكماً، وا قريب يجيب من دعاه، والنداء مـن ا للنـاس

---

(1) سورة الأعراف آية ٣١.

(2) سورة الأحزاب آية ٣٢.

(3) سورة هود آية ٤٤.

(4) سورة مريم آية ٤.

مخاطبة، ونداؤه للأنبياء مناجاة، قال تعـالى عـن رسـوله موسى عليه السلام ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِـبِ الطُّـورِ الْـأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** ﴾ [(١)]،"**فبين تعالى أنه كما ناداه ناجـاه أيضـاً؛ والنداء مخاطبة الأبعد، والمناجاة مخاطبة الأقرب؛ ولأجـل هذه اللطيفة أخبر سبحانه عن مخاطبته لآدم وحواء بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [(٢)]،وفـي موضـع ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ ﴾[(٣)]، ثم لما حكى عنهما ملابسة المخالفـة، قال في وصف خطابه لهما: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ [(٤)]، فأشعر هذا اللفظ بالبعد لأجل المخالفة، كمـا أشـعر اللفـظ الأول بالقرب عند السلامة منها**"[(٥)].

ومن صيغ الدعاء الرائعة في القرآن الكريم: صيغة سلام عليكم، التى نراها مثلاً في ثنايا قوله تعالى:**﴿وَسِـيقَ الَّـذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**

([١]) سورة مريم ٥٢.

([٢]) سورة البقرة آية ٣٥.

([٣]) سورة الأعراف آية ١٩.

([٤]) سورة الأعراف آية ٢٢.

([٥]) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٢/ ٣٢٤، ٣٢٥ ط عيسى البابى الحلبى (الثانية).

وقَالَ لَهم خَزنَتُها سلَام علَيكُم طِبتُم فَادخُلُوها خَالِدِين﴾[1]فهى تحية الملائكة للمؤمنين لحظة دخولهم الجنة.

ولا يخفي على المتذوق مـا فـي لفـظ **(السـلام)** مـن الخصائص الموسيقية الفياضة، والظلال الموحية ما يجعلـه حلو الوقع في الآذان، سريع التمكن مـن الاسـتقرار فـي القلوب.وإذا كان القرآن الكريم أغنى أثر أدبى في لغة الضاد من حيث الموسيقى اللفظية، وإذا كان هذا القرآن اتخذ مـن هذا اللفظ – السلام – لغة لأهل الجنة، ولأهل الـوحى مـن الأنبياء والمرسلين حين يقول: **(ادخلوها بسلام آمنين)** وحين يقول: **(وتحيتهم فيها سلام)** فلأن القرآن ما يـزال مجـالاً عبقرياً للعروض البلاغية العليا التى لا يتعلق بها قلم كاتـب من كتاب العربية.

وجاء في القرآن على لسان عيسى ﴿ **وسلَام علَيـهِ يـوم ولِد﴾** [2].وجاء على لسان إبراهيم ﴿**قَالَ سلَام علَيك سأَستَغْفِر لَك ربي﴾** [3].

---

(1) سورة الزمر آية ٧٣.

(2) سورة مريم آية ١٥.

(3) سورة مريم آية ٤٧.

وصيغ الدعاء في القرآن ضربان.

١- **دعاء مباركة ورضا مثل سلام عليكم – يصلون على النبى.**

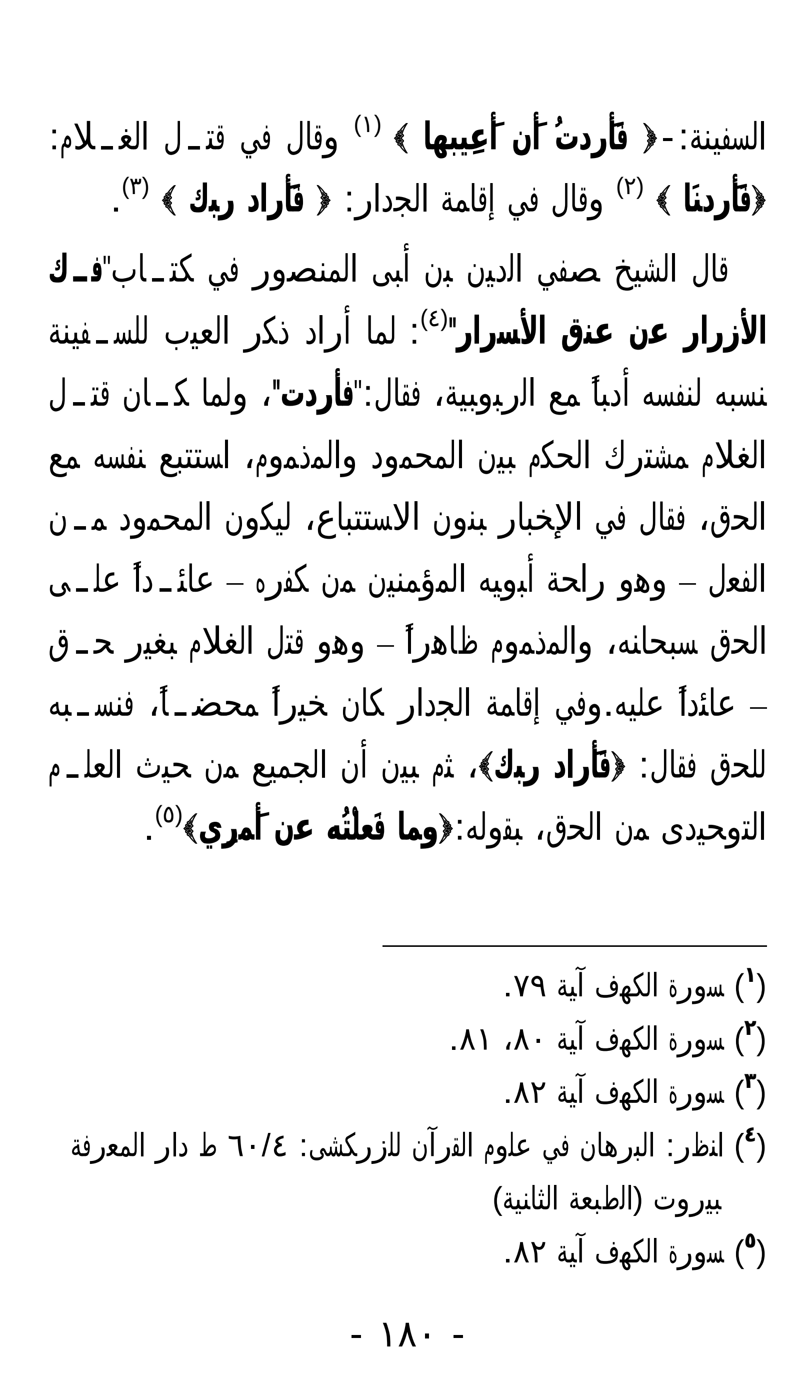
٢- **دعاء غضب ونقمة مثل تبت يدا أبى لهب وتب.وهو دعاء على أبى لهب بالهلاك.**

وفي القرآن الكريم شواهد عدة للتأدب في خطاب ا ، ففضلاً عن دعائه بحذف حرف النداء، كقول نوح عليه السلام: ﴿ **رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ [(١)]، فيه: التأدب في خطاب ا بإضافة الخير إليه في كل الأحوال.ومن ذلك قول سيدنا إبراهيم في ثنايا دعواته التى عرضتها سورة الشعراء: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ [(٢)] ولم يقل: أمرضنى، ويماثله في الأدب جواب الخضر لموسى عما فعله، حيث قال – في إعابة

---

(١) سورة هود آية ٤٥.

(٢) سورة الشعراء آية ٨٠.



السفينة: -﴿ **فَأَردتُ أَن أَعِيبها** ﴾ [١] وقال في قتـل الغـلام: ﴿**فَأَردنَا** ﴾ [٢] وقال في إقامة الجدار: ﴿ **فَأَراد ربك** ﴾ [٣].

قال الشيخ صفي الدين بن أبى المنصور في كتـاب"**فـك الأزرار عن عنق الأسرار**"[٤]: لما أراد ذكر العيب للسـفينة نسبه لنفسه أدباً مع الربوبية، فقال:"**فأردت**"، ولما كـان قتـل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم، استتبع نفسه مع الحق، فقال في الإخبار بنون الاستتباع، ليكون المحمود مـن الفعل – وهو راحة أبويه المؤمنين من كفره – عائـداً علـى الحق سبحانه، والمذموم ظاهراً – وهو قتل الغلام بغير حـق – عائداً عليه.وفي إقامة الجدار كان خيراً محضـاً، فنسـبه للحق فقال: ﴿**فَأَراد ربك**﴾، ثم بين أن الجميع من حيث العلـم التوحيدى من الحق، بقوله:﴿**وما فَعلْتُه عن أَمري**﴾[٥].

---

(١) سورة الكهف آية ٧٩.

(٢) سورة الكهف آية ٨٠، ٨١.

(٣) سورة الكهف آية ٨٢.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٦٠/٤ ط دار المعرفة بيروت (الطبعة الثانية)

(٥) سورة الكهف آية ٨٢.

وقال ابن عطية: إنما أفرد أولاً في الإرادة لأنها لفظ غيب، وتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [1]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى ا ، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقص ومعابة، وليس من جنس النعم المتقدمة.

وهذا النوع مطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى:﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [2]! وتقديم فعل ا في قوله تعالى:﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾[3]؛ وإنما قال الخضر في الثانية:﴿**فَأَرَدْنَا**﴾، لأنه قد رواه ا وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين، وتمنى التبديل لهما؛ وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى ا تعالى لأنها أمر مستأنف في الزمن طويل، غيب من الغيوب، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر ا تعالى.

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٠.

(٢) سورة الصف آية ٥.

(٣) سورة التوبة آية ١١٨.

"ومثله قول مؤمنى الجن:﴿وأَنا لَا نَدرِي أَشَر أُرِيد بِمن فِي الْأَرضِ أَم أَراد بِهِم ربهم رشَداً﴾[1].فحذفوا الفاعل في إرادة الشر تأدباً مع ا ، وأضافوا إرادة الرشد إليه"[2].

والقرآن الكريم يراعى حسن الأدب مع المخاطب إذا كان مقامه يقتضى ذلك.

خذ لذلك شاهداً من قوله تعالى:**﴿واذْكُر فِي الْكِتَابِ موسى إِنه كَان مخْلَصا وكَان رسولًا نَبِيا، ونَاديناه مِن جانِبِ الطورِ الْأَيمنِ وقَربنَاه نَجِيا ﴾**[3].

فلما نفي سبحانه عن رسوله ﷺ أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان بالغربى، فقال:**﴿وما كُنتَ بِجانِبِ الْغَربِي إِذْ قَضينَا إِلَى موسى الْأَمر وما كُنتَ مِن الشاهِدِين﴾**[4].

ولم يقل في هذا الموضع"**الأيمن**"كما قال:**(وناديناه من جانب الطور الأيمن)**أدباً مع النبىﷺأن ينفي عنه كونه

---

(1) سورة الجن: آية ١٠.

(2) البرهان في علوم القرآن: ٤/٦٠، ٦١.

(3) سورة مريم آية ٥١، ٥٢.

(4) سورة القصص آية ٤٤.

بالجانب الأيمن،أو يسلب عنه لفظاً مشـتقاً مـن الـيمن،أو مشاركاً لمادته.ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى،فراعى فـي المقـامين حسـن الأدب معهما، تعليماً للأمـة،وهو أصـل عظـيم فـي الأدب فـي الخطاب[1].

وإلى هذا أشار السهيلى بقوله: وجه الفرق بين الخطـابين أن الأيمن إما مشتق من اليمن،وهو البركة،أو مشارك له في المادة، فلما حكاه عن موسى في سياق الإثبات أتى بلفظـه، ولما خاطب محمـداً ﷺ فـي سـياق النفـي عـدل إلـى لفظ"**الغربى**"،لئلا يخاطبه،فيسلب عنه فيه لفظاً مشتقاً من اليمن أو مشاركاً في المادة، رفقاً بهما فـي الخطـاب، وإكرامـاً لهما[2].

ومن هذا الباب نداء النبى بوصفه لا باسمه: ﴿**يـا أيهـا النبى**﴾[3]﴿ **يا أيها الرسول**﴾[1]ولم يقل**(يا محمـد)**أبـداً فـي

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٦٦/٣ ط مكتبة دار التراث.

(٢) التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام: ص ٩٨، ٩٩.

(٣) كما في أوائل سور الأحزاب والطلاق والتحريم.

القرآن، على حين نادى المرسلين الآخرين بأسـمائهم نحـو **﴿يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبـل سمياً﴾**[2]**﴿ يانوح اهبط بسلام منـا وبركـات﴾**[3]....إلـخ. **﴿ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس...﴾**[4]**﴿ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**[5]...وهكذا بقية من ناداهم من المرسلين.

وخذ شاهداً أيضاً لأدب الخطاب من قوله تعـالى للنبـى صلى ا عليه وسلم:**﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾** [6]، فقد جاء الحق سبحانه وتعالى ب- **(كاد)** التى تقتضى المقاربة للفعل، بقدر الظاهرة للتقليل، فصار المعنـى على النفي، وأن الحبيب محمداً ﷺ لم يركن إليهم لا قلـيلاً ولا كثيراً، من جهة أن **(لولا)** الامتناعية تقتضى ذلك، وأنـه

([1]) كما في قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...) المائدة: ٦٧.

([2]) سورة مريم آية ٧.

([3]) سورة هود آية ٤٨.

([4]) سورة المائدة: ١١٦.

([5]) سورة البقرة: آية ٣٥..وفي سور كثيرة مثل البقرة وطه.

([6]) سورة الإسراء آية ٧٤.

امتنع مقاربة الركون القليل لأجل وجـود التثبيـت، لينتفـي الكثير من طريق الأولى.

كل ذلك تعظيماً لشأن الحبيب محمد ﷺ، وما جبلت عليه نفسه الزكية من كونه لا يكاد يركن إليهم شيئاً قليلاً، للتثبيت مع ماجبلت عليه [1].

وهكذا الأمر في بقية السور والآيات التى خوطـب بهـا النبىﷺ، وبخاصة ما نزلت عليه عتاباً من ربه لـه علـى موقف كان منه، ففي قصته الشهيرة مع ابن أم مكتوم عاتبـه بقوله: **(عبس وتولى.أن جاءه الأعمى)** فآثر صـيغة الغيبـة، وكأنه إخبار عن واحد غيره، مع أنه المقصود بالعتاب، ولـم يقل له: عبست وتوليت، حتى لا يسند العبوس والإعـراض إليه، وكذا في قصة النبى مع أسرى بدر، حين أخذ برأي أبى بكر، ولم يأخذ برأي عمر فعاتبه بقوله ﴿**ماكان لِنَبِي أَن يكُون لَه أَسرى حتى يثْخِن فِي الْأَرضِ تُريدون عرض الدنْيا والله يريد الْآخِرةَ**﴾سورة الأنفال:آية ٦٧ وكذا في قصته مع الـذين

([1]) أنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشى ٤/ ١٣٧ ط مكتبة دار التراث.

تخلفوا عن غزوة تبوك، حين أذن لهم بالبقاء فـي المدينـة، فعوتب من ربه بقوله:﴿**عفَا الله عنْكَ لِم أَذِنتَ لهم**﴾ [1].

فقدم العفو عنه، قبـل أن يوجـه إليـه السـؤال المنبـئ بالعتاب..كل هذا ونحوه تعظيماً لقدره ﷺ، وحباً له.

هذا وقد استرعى انتباهنا قوله تعـالى يخاطـب حبيبـه محمداً ﷺ:﴿ **سنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسى، إِلا ما شَاء الله إِنه يعلَـم الْجهر وما يخْفي، ونُيسرك لِلْيسرى**﴾[2] وهذا إخبار مـن ا تعالى ووعد منه لحبيبه محمد ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها إلا ما شاء ا ، فكان رسول ا فعلاً لا ينسى شيئاً إلا ما شاء ا ، وجعل بعض المفسرين معنى الاستثناء: مـا يقـع مـن النسخ، أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء ا رفعه، فلا عليك أن تتركه.وقوله: ونيسرك لليسرى، أي نسهل عليك أفعالـه وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سـمحاً مسـتقيماً عـدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر [3].

---

(1) سورة التوبة آية ٤٣.

(2) سورة الأعلى آية ٦ – ٨.

(3) أنظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٨٢٨.

وتعظيماً لرسول ا ﷺ فـإن الحـق خاطبـه بقولـه: **(ونيسرك لليسرى)** ولم يصدر الفعل **(نيسرك)** بالسين، كمـا صدره بالسين في قوله تعالى بسورة الليل: **(فأما من أعطـى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)** أي من أعطى ما أُمر بإخراجه من الزكاة والصدقة واتقـى ا فـي أمـوره، وصدق بالمجازاة والثواب على ذلك، فسييسره ا إلى الخير والجنة.فتراه هنا أتى بالسين التى هى حرف استقبال، بينما لم يأت بها في خطاب النبى ﷺ تعظيماً له وتكريماً؛ فالرسول ميسر لليسرى وفعل الخير والصالحات منذ خلقه ا .

ولما كان وعد ا لمن يعطى ويتقى ويصدق بالحسنى بأن ييسره لليسرى لا يتأخر لم يقـل الحـق: **(فسـوف نيسـره لليسرى)** لأن سوف حرف يدل علـى التـأخير والتنفـيس، وزمانه أبعد من زمان السين لما فيها مـن إرادة التسـويف، وحاش أن يسوف فيما يعد بـه، سـواء كـان ثوابـاً أو عقاباً.وإذا كانت ثمة مواقف جاءت فيها سوف مكان السـين مثل قوله تعالى: ﴿**ولسوفَ يعطِيك ربك فتَرضـى**﴾ [1]وقولـه

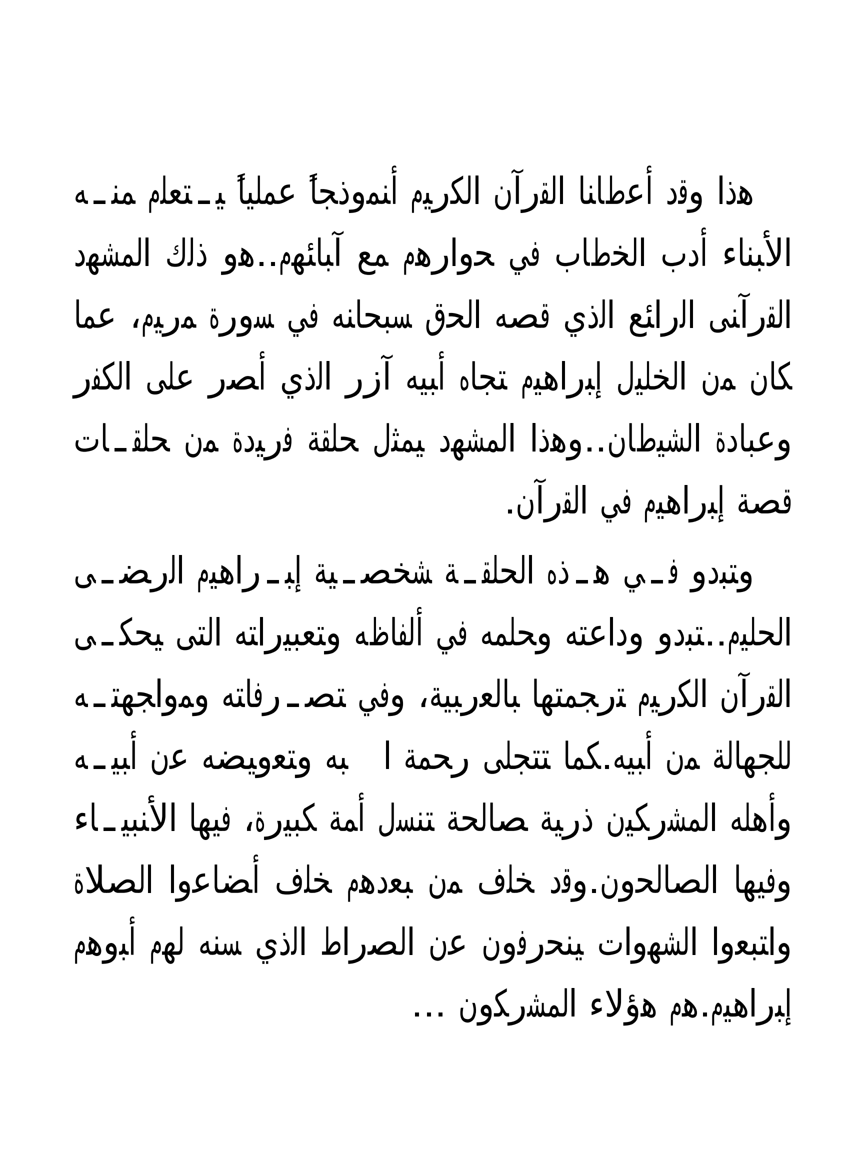
---

(1) سورة الضحى آية ٥.

﴿**وسوفَ يؤْتِ الله الْمؤْمِنِين أَجرا عظِيما**﴾[1]،فينبغى أن نعلم أن ا وعد المؤمنين والرسول أحـوال خيـر فـي الـدنيا والآخرة، فيجوز أن يكون ما قرن بالسين لما في الدنيا، وما قرن بسوف لما في الآخرة.قال ابن كثير في تفسير **(ولسوف يعطيك ربك فترضى)** أي في الدار الآخـرة يعطيـه حتـى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر، وألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغـى لـه مـن الأزواج والخدم ... قال رسول ﷺ **(إنا أهل بيت اختار لنـا ا الآخرة على الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى)** [2].

(١) سورة النساء آية ١٤٦.

(٢) أنظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٨٦٩.



هذا وقد أعطانا القرآن الكريم أنموذجاً عملياً يتعلم منه الأبناء أدب الخطاب في حوارهم مع آبائهم..هو ذلك المشهد القرآنى الرائع الذي قصه الحق سبحانه في سورة مريم، عما كان من الخليل إبراهيم تجاه أبيه آزر الذي أصر على الكفر وعبادة الشيطان..وهذا المشهد يمثل حلقة فريدة من حلقات قصة إبراهيم في القرآن.

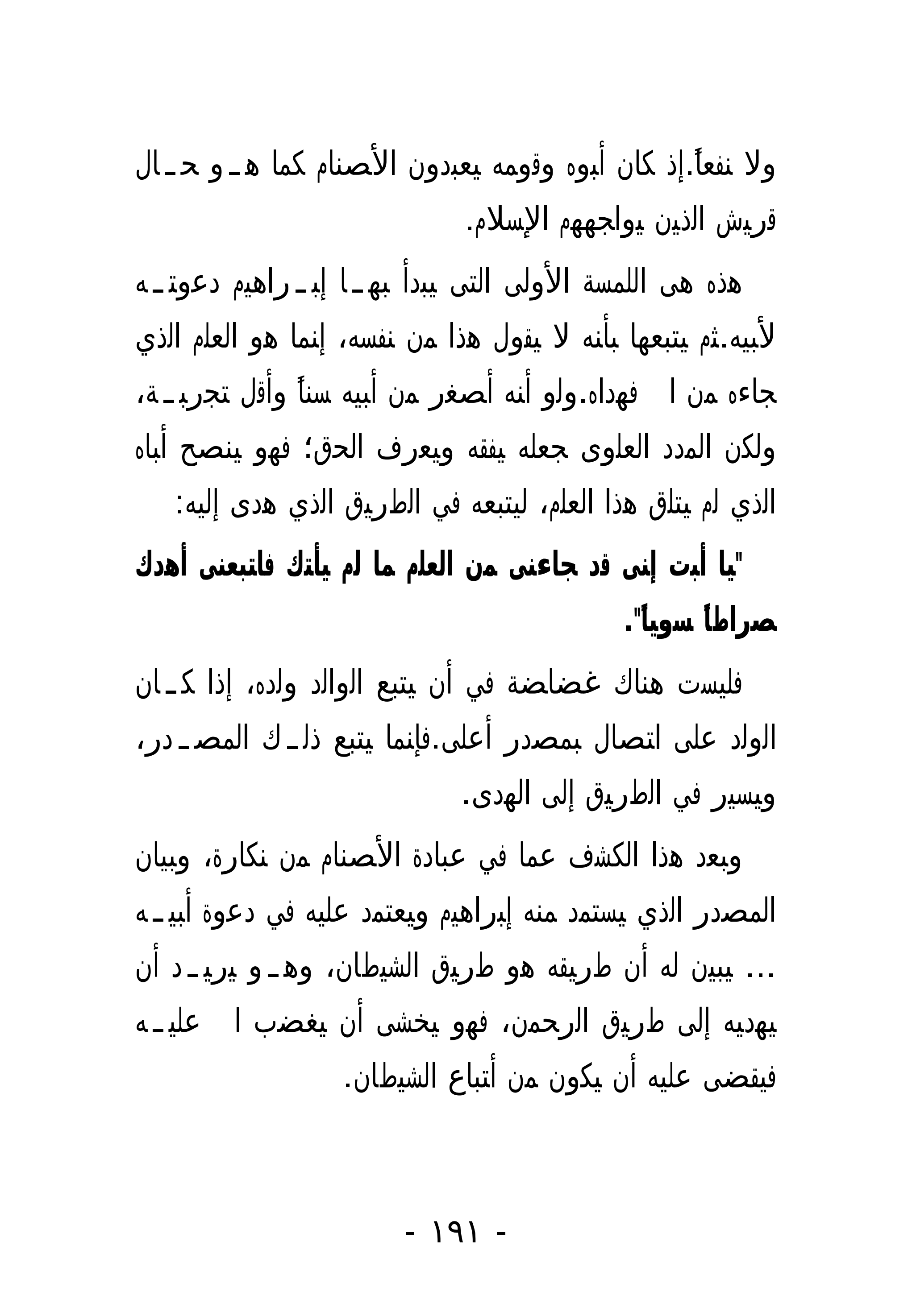
وتبدو في هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرضى الحليم..تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التى يحكى القرآن الكريم ترجمتها بالعربية، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه.كما تتجلى رحمة ا به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفيها الصالحون.وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنه لهم أبوهم إبراهيم.هم هؤلاء المشركون ...

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقاً نبياً. ولفظـة صـديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق. وكلتاهمـا تناسب شخصية إبراهيم: ﴿ **واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِبراهِيم إِنه كَان صِديقًا نَبِيا، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ياأَبتِ لِم تَعبد ما لَا يسمع ولَا يبصِر ولَا يغْنِي عنْك شَيئًا، ياأَبتِ إِني قَد جاءنِي مِن الْعِلْمِ مـا لَـم يأْتِك فَاتبِعنِي أَهدِك صِراطًا سوِيا، ياأَبتِ لَا تَعبد الشيطَان إِن الشيطَان كَان لِلرحمان عصِيا، ياأَبتِ إِني أَخَافُ أَن يمسـك عذَاب مِن الرحمان فَتَكُون لِلشيطَان ولِيا..** ﴾[١]

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحـاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إيـاه؛ وهـو يتحبب إليه فيخاطبه: "**يا أبت**" ويسأله: "**لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً؟**" والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلـم وأقـوى. وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى. فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان، بل إلى ما هو في مرتبـة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً

---

(١) سورة مريم: آية ٤١-٤٥.



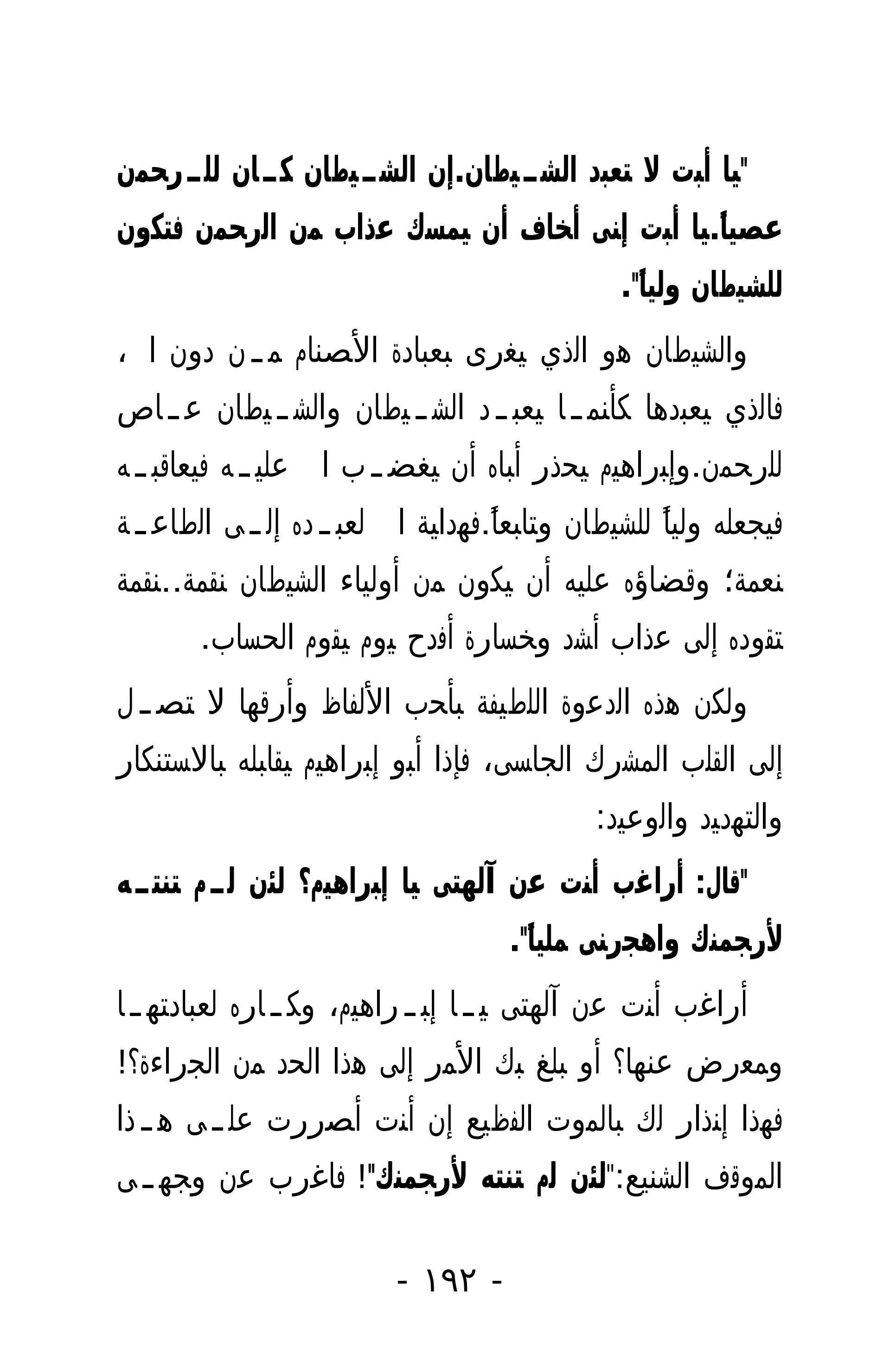
ولا نفعاً.إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام.

هذه هى اللمسة الأولى التى يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه.ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم الذي جاءه من ا فهداه.ولو أنه أصغر من أبيه سناً وأقل تجربة، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم، ليتبعه في الطريق الذي هدى إليه:

"يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً".

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى.فإنما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدى.

وبعد هذا الكشف عما في عبادة الأصنام من نكارة، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه ... يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن، فهو يخشى أن يغضب ا عليه فيقضى عليه أن يكون من أتباع الشيطان.



"يا أبت لا تعبد الشيطان.إن الشيطان كان للرحمن عصياً.يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً".

والشيطان هو الذي يغرى بعبادة الأصنام من دون ا ، فالذي يعبدها كأنما يعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن.وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب ا عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً.فهداية ا لعبده إلى الطاعة نعمة؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة..نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب.

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد:

"قال: أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً".

أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم، وكاره لعبادتها ومعرض عنها؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة؟! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع:"**لئن لم تنته لأرجمنك**"! فاغرب عن وجهى

وابعـد عنـى طـويلاً.اسـتبقاء لحياتـك إن كنـت تريـد النجاة:"**واهجرنى ملياً**"...

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى.وبهذه القسـوة قابل القول المؤدب المهذب.وذلك شأن الإيمان مـع الكفـر؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم.ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه:"**قال: سلام عليك.سأستغفر لك ربـى إنـه كـان بـى حفياً.وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً**".

ســلام عليــك.فــلا جــدال ولا أذى ولا رد للتهديــد والوعيد.سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار فـي الضلال وتولى الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهـدى.وقـد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى.وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى لك إلى الإيمان تؤذيـك فسـأعتزلك أنـت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة.وأدعـو ربى وحده، راجياً – بسبب دعائى الله – ألا يجعلنى شقياً.

فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة..وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره.فهو لا يرى لنفسه فضلاً، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!.

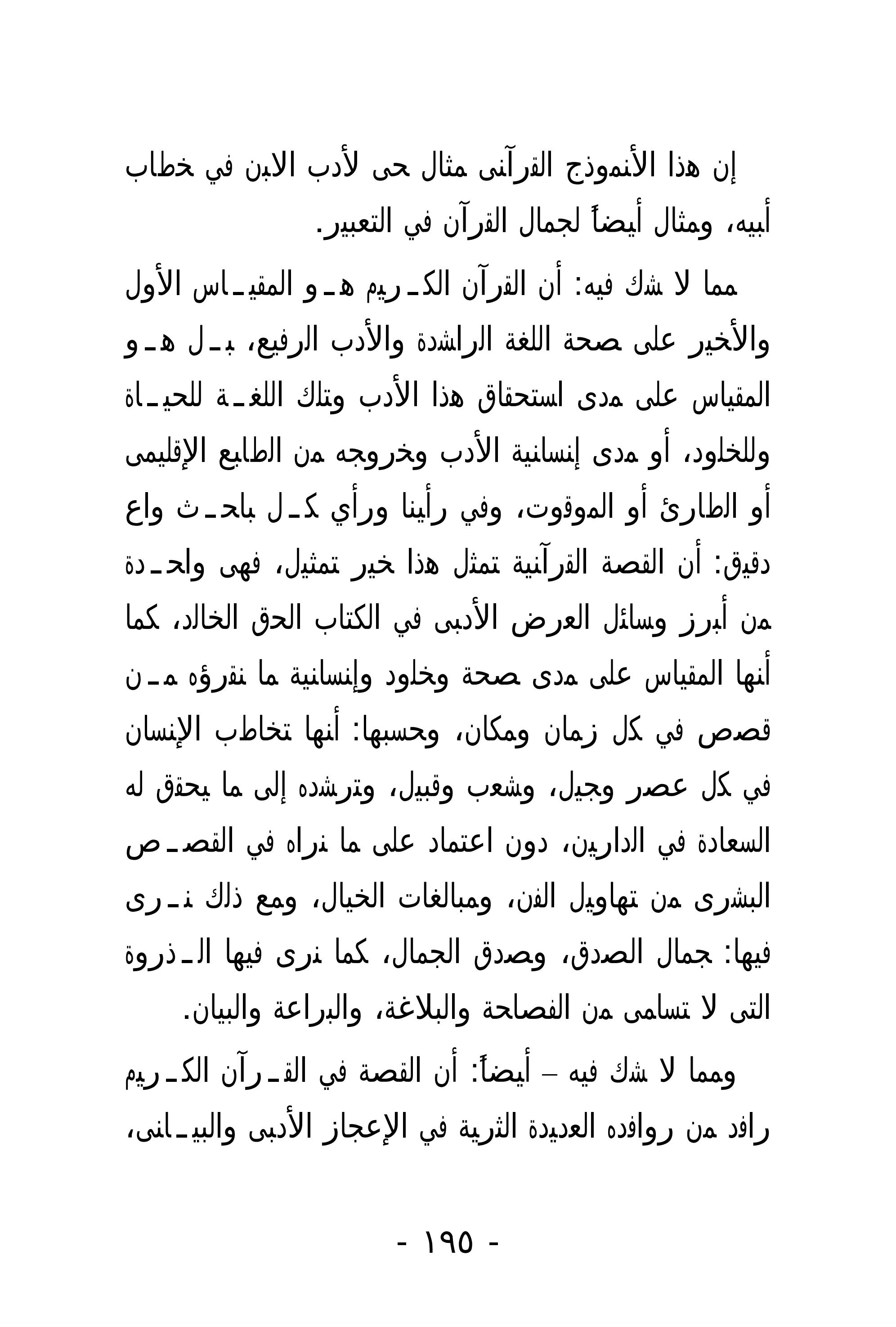
وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره، فلم يتركه ا وحيداً.بل وهب له ذرية وعوضه خيراً:

"فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون ا وهبنا له إسحاق ويعقوب.وكلاً جعلنا نبياً.ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق علياً"[1].

والرائع حقاً في هذا الحوار اللطيف، أنك ترى الخليل يقول مما قال فيه:**(يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن)**وكل لفظة هنا مختارة بعناية لتترجم عن أدب إبراهيم مع أبيه، وخوفه عليه، فهو يؤكد هذا الخوف بإن، ويعبر بالمس لأنه أقل في العذاب من**(يصيبك)**،وينكر لفظة عذاب، والتنكير هنا للتقليل، ولم يقل**(العذاب)**ويختار من أسماء ا **(الرحمن)** المشع بالرحمة، ولم يقل – مثلاً-: العزيز أو الجبار أو المنتقم ...

---

(1) في ظلال القرآن: مجلد ٤ ص ٢٣١١، ٢٣١٢.



إن هذا الأنموذج القرآنى مثال حى لأدب الابن في خطاب أبيه، ومثال أيضاً لجمال القرآن في التعبير.

مما لا شك فيه: أن القرآن الكـريم هـو المقيـاس الأول والأخير على صحة اللغة الراشدة والأدب الرفيع، بـل هـو المقياس على مدى استحقاق هذا الأدب وتلك اللغـة للحيـاة وللخلود، أو مدى إنسانية الأدب وخروجه من الطابع الإقليمى أو الطارئ أو الموقوت، وفي رأينا ورأي كـل باحـث واع دقيق: أن القصة القرآنية تمثل هذا خير تمثيل، فهى واحـدة من أبرز وسائل العرض الأدبى في الكتاب الحق الخالد، كما أنها المقياس على مدى صحة وخلود وإنسانية ما نقرؤه مـن قصص في كل زمان ومكان، وحسبها: أنها تخاطب الإنسان في كل عصر وجيل، وشعب وقبيل، وترشده إلى ما يحقق له السعادة في الدارين، دون اعتماد على ما نراه في القصـص البشرى من تهاويل الفن، ومبالغات الخيال، ومع ذلك نـرى فيها: جمال الصدق، وصدق الجمال، كما نرى فيها الـذروة التى لا تسامى من الفصاحة والبلاغة، والبراعة والبيان.

ومما لا شك فيه – أيضاً: أن القصة في القـرآن الكـريم رافد من روافده العديدة الثرية في الإعجاز الأدبى والبيـانى،

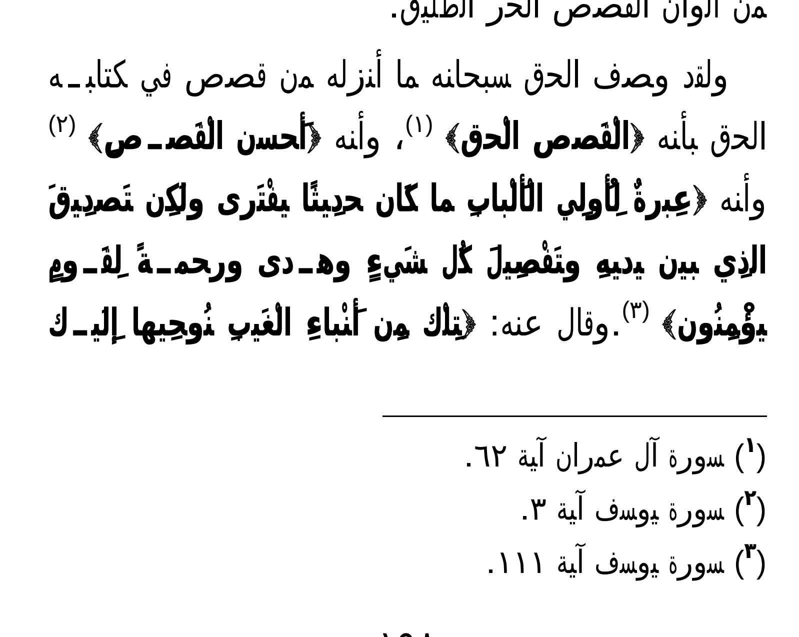
فضلاً عما فيها من إعجاز تاريخى، وإنباء عما مضى مـن أحداث الزمان، وإخبار عما انطوى من أحوال الأمم، وأنباء الرسل، وسائر ما قصه الحق جل شأنه على خـاتم أنبيائـه، وسيد رسله، بأسلوب ما زال الناظرون في إعجازه يقفون كل يوم على دقائق وخفايا في تركيب آياته، واختيـار كلماتـه، وصوغ عباراته، وطريقة نظمه الخارجة عن حدود القـدرة البشرية، والدالة على أن القرآن الكريم كان بما احتواه مـن قصص رائد الأدب القصصى، أياً كـان نمطـه واتجاهاتـه ومذهبه وغاياته.

وعلى الرغم مما نراه في عصـرنا مـن ارتقـاء اللغـة القصصية، وتعدد الأجناس الأدبية، ووجود الكثير من النتاج الأدبى القصصى الذي يرقى بعضـه إلـى مسـتوى الآداب العالمية – فإن ناصية البيان العربى ما تزال، وسـتظل بيـد القرآن الكريم وقصصه المعجز، يقبل الناس على قراءته فلا يملون، ويرتاحون للاستماع إليه ولا يسأمون، ويقتبس الأدباء من آياته، ليزينوا بها أساليبهم الأدبيـة، فـإذا هـى الـدرر المضيئة الساطعة، والنجوم الزاهرة اللامعة، في سماء تلـك الأساليب.

لقد بلغ القصص القرآنى في مجال التصوير الأدبى قمـة الإعجاز، وذروة الإبداع، وفاق كـل أسـاليب القصـاص – قديمها وحديثها – حتى ليستحيل كل الاستحالة أن ترى قصة فنية من وضع البشر تفوقه بياناً وإبداعاً، وجمالاً وإعجـازاً، فهو في مجال الأدب القصصى ذلك الأنمـوذج القصصـى المعجز الخالد الذي سيبقى أبداً قمة البيان القصصى المعجـز الفائق الذي فهمه العرب وأعجبوا به، وعجزوا فـي الوقـت ذاته عن الإتيان بمثله، ووجدوا أنفسهم أمام معجـزة بيانيـة فريدة تخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمـال الأدبيـة، وأمام وثيقة هى أوثق ما يكون بين يدى التاريخ من وثـائق على مر العصور وكر الدهور.

والقصة القرآنية هى أول قصة في لغتنا العربية وتراثنـا الأدبى عرفت ما يسميه الأدباء والنقاد اليوم ب- **(الالتـزام)**، وحددت رسالة الأدب بمعناه الإنسانى الذي يفهم الأدب على أساس وظيفته الاجتماعية التى تدعو الناس جميعاً إلى الخير والفضيلة، وتنفرهم من الشر والرذيلة، وتبعدهم عما ألفوه من أخلاق فاسدة، وعادات سيئة، وعقائد زائفـة، وآراء ضـالة، وأفكار شاردة.فالناظر في القصص القرآنـى يجـد أن هـذا

القصص قد تناول شتى الجوانب التى تقـوم عليهـا الحيـاة الفردية السديدة، والحياة الاجتماعية الرشيدة، سـواء أكانـت هذه الجوانب تتصل بالعقيدة، أو بالقيم، أو بالفكر والأدب، أو بالمعاملات في مختلف صورها وأشكالها.ولا يوجد فـي أي قصص كان ما تراه في القصـص القرآنـى مـن المعـانى التاريخية، والقيم الاجتماعية والنفسية، والقواعد الأخلاقيـة، والتوجيهات الدينية، فهو قصص يحتوى على أعظـم ثـروة فكرية دينية تاريخية أدبية، وفيه الكثير والكثير من السـمات الرفيعة، والمزايا البديعة، التى يتميز بها وينفرد عن غيـره من ألوان القصص الحر الطليق.



ولقد وصف الحق سبحانه ما أنزله من قصص في كتابـه الحق بأنه ﴿**الْقَصص الْحق**﴾ [1]، وأنه ﴿**أَحسن الْقَصـص**﴾ [2] وأنه ﴿**عِبرةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كَان حدِيثًا يفْتَرى ولَكِن تَصدِيقَ الَّذِي بين يديهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ وهـدى ورحمـةً لِقَـومٍ يؤْمِنُون**﴾ [3].وقال عنه: ﴿**تِلْك مِن أَنْباءِ الْغَيبِ نُوحِيها إِلَيـك**

---

(1) سورة آل عمران آية ٦٢.

(2) سورة يوسف آية ٣.

(3) سورة يوسف آية ١١١.

ما كُنتَ تَعلَمها أَنْتَ ولا قَومك مِن قَبل هذَا فَاصبِر إِن الْعاقِبةَ لِلْمتقِين﴾ [1].

فالقصص القرآنى إذن قصص واقعى صـادق هـادف، ورافد من روافد **(الإعجاز الغيبى في القرآن الكريم)**، وكلها سمات جمالية فيه، ومعالم تميزه عن أي قصص آخر، فهـو قصص يختلف عن كل قصص مفهومـا وأسـلوباً، وغايـة ومنهاجاً، وحسبه أنه قصص يجمع تلـك الثلاثيـة البديعـة: **(الدين والأدب والتاريخ)**.

لقد كان القصص المألوف في الحياة العربية قبل القـرآن قصصاً خالياً خرافياً، يساق للهو، ويزجى للترفيه عن النفس، وللتخفيف من قسوة الحياة في البادية، أو الهروب منها، حيث لا متنفس للناس في هذه الحياة الجافية القاسـية إلا الأوهـام والخيالات، يتخذونها مركباً تنتقل بهم لحظـات إلـى عـالم الأمانى والأحلام، ثم يصحون بعدها كما يصحو النائم مـن حلم..لا يمسك منه بشئ!

هكذا كان القصص العربى، قبـل القـرآن، لا يسـتدعى العقل، ولا يتجه إليه...إذا كان كله تقريباً حديثاً جارياً علـى

---

(1) سورة هود آية ٤٩.

ألسنة الحيوان، أو الجن..وهذا من شأنه أن يدعو المرء إلـى أن يلقاه في غفلة من عقله، حتى يمكن أن يستمع إليه، وتقبل أذنه ما فيه من شحطات ومفارقات!

ومثل هذا القصص لا يمكن أن يتلقى منه الإنسان عبرة أو عظة، كما لا يمكن أن يلتقى به الإنسان إلا على لهو أو مـا يشبه اللهو، ولا يأخذه مأخذ الجد بحال.

أما قصص القرآن فقد جاء على غير هذا الضـرب مـن الأحاجى الواهية، والحكايات المهملة.

جاء هذا القصص معرضاً حياً لكثير من أحـداث الحيـاة الماضية ووقائعها.

فلقد تخير من تلك الأحداث والوقائع التى غبرت – ما كان فيه موضع عبرة وعظة، فبعثها من مرقـدها، بمشخصـاتها كلها..بأحوالها، وأزمانها، وأمكنتها، حتى لكأنها لأول مولدها في الحياة..لم يغب منها شئ، ولم يذهب الماضى بشئ مـن جدتها وحيويتها ...

إنك تقرأ القصة من كتاب ا ، فإذا أنت في حيـاة غيـر الحياة التى أنت فيها.وفي زمن غير زمانك.وفي مكان غيـر

مكانك..إنك في الحياة التى عاشت فيها تلك القصـة، وفـي زمانها، ومكانها، ومع أهلها، وما يتقلبون فيه من حياة!

تقرأ قصة موسى وفرعون مثلاً فإذا بك قد انتقلـت مـن القرن العشرين الذي تعيش فيه، إلى ما قبل الميلاد بعدد عديد من القرون ... وإذا أنت في مصر، ومع فراعنة مصـر ... وإذا أنـت مـع الأحـداث التـى وقعـت بـين موسـى وفرعون..تراها، وتسمعها وتشارك فيها، وتنفعل معها.

"وتقرأ قصة أصحاب الكهف..وقد انطوى فيهـا عنصـر الزمن، فلم يكن في القصة ذكر لحدث تاريخى، أو لشـخص من أشخاص التاريخ يشير إلى حدود الزمن في هذه القصة – ومع ذلك فأنت تشم من القصة ريحاً ينبعث مـن أعمـاق الماضى السحيق ... ريحاً يشير إلى مهـاب ذلـك الـزمن ومطلعه"[1].

ومعالم الحسن والجمال في القصص القرآنى أكثر من أن تحصى في هذا المقام، ومنها على سبيل المثـال والحصـر: روعته في إخضاع وقائع التاريخ إلـى مقاصـده التربويـة

(1) القصص القرآني في منطوقة ومفهومه لعبد الكريم الخطيب: ص ١٤٠، ١٤١.مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٤هـ-/١٩٦٤م.

وحقائقه الدينية، وغايته السامية من الربط بين الدين وأحداث الأمم الغابرة، وأنباء المرسلين والصالحين.

ولقد بلغ القرآن في قصصه القمة – تصويراً وتأثيراً فـي وصف الحضارات البائدة، وبخاصة حضارة عاد وثمود وأتى القرآن في قصصه بما يـدعم قضـية التوحيـد، والأحكـام الشرعية المختلفة التى نادت بها الدعوة المحمديـة الخالـدة، على النحو الذي سنراه بعد قليل في تحليلنا لقصة ابنـى آدم قابيل وهابيل **(وهى النموذج الذي اخترناه للتمثيل).**

ويكتشف المتتبع لما جاء في القرآن من قصص أن القرآن كان هو الرائد السباق لكل ما نعرفه اليوم من أنمـاط الفـن القصصى، ففيه القصة الطويلة، كقصة يوسف، وقصة موسى عليهما السلام، وفيه قصص متوسطة الطول، كقصة أصحاب الفيل، وقصة إلياس، وفيه الأقصوصة، كقصة إدريس عليـه السلام.

على أنه أيضاً كان الرائد السابق لما يسميه الأدباء اليـوم بـ- **(قصص الإصلاح الاجتمـاعى)**، وما يسمونه اليوم بأدب الرحلات، ففيه مثلاً قصة موسى مع الخضر، وهـى رحلـة عظيمة في طلب العلم. وكان الرائد السابق إلى ذلك الضـرب

القصصى المسمى في عصرنا الحديث ب- **(قصص الكفاح)** وأحياناً ب- **(قصص النجاح)** التى تنتهى نهاية سعيدة بتحقيق الآمال، وقصة موسى مع بنتى شعيب التى انتهت بزواجه من إحداهما خير مثال لهذا ... لا أريد أن أتحدث كثيـراً عـن التنويع الجميل في القصص القرآنى، وعن أسبقيته لكل مـا يتشدق به النقاد اليوم في عالم القصة، وحسـبى أن أقـرر – مطمئناً – أن القصص القرآنى الحق هو الأستاذ الأكبر الذي ينبغى أن يتعلم منه كل أدباء القصة، أينما حلـوا، وفـي أي زمان هلوا، لأنه القصص الوحيـد الجـامع بـين **(الجمـال والجلال والكمال)**، والقصص الوحيد الجامع لسائر مقومـات القوة التعبيرية والتأثيرية والموضوعية في أرقى درجاتهـا، وأسمى منازلها.

والرائع حقاً: أننا نجد في بنـاء القصـة القرآنيـة كـل العناصر القصصية التى يقوم عليها هذا البناء، مـن سـرد وحوار، وشخصيات، وتشويق، وزمان، ومكان، وصـراع، وينفرد عن بقية القصص بعناصر خاصة به، مثـل عنصـر المناجاة، وعنصر الخوارق والمعجزات، وعنصر القضـاء والقدر.

وإذا كان كتاب القصة والرواية يحتفون بـالمرأة احتفـاء كبيراً، ويعدونها عنصراً أصيلاً في شخصيات القصة، فـإن القرآن – في قصصه – قد سبقهم إلى ذلك، فرأينا فيه نماذج نسائية تؤدى كل منها دوراً في القصة التى تجيئ بها، سواء كانت مؤمنة أو كافرة، ومن هذه النماذج – مـثلاً – امـرأة نوح، وامرأة العزيز، وامرأة فرعون، وامرأة عمران، وبنتها مريم، وبنتا شعيب ... وهلم جرا.

وشتان بين المرأة في هذا وذاك، فالمرأة فـي القصـص القرآنى لم تستجاب – كما هو الحال في القصص البشرى – لتحقيق المتاع الفنى والتسلية، ولا جاءت في قصة قرآنية إلا حيث كانت درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر.

وفي القصص القرآنى عناصر من عالم الطيـر كهدهـد سليمان، وغراب قابيل وهابيل، ومن عالم الحشرات، كنملـة سليمان، ومن عالم البحار كحوت يونس، ومن عالم الـوحش كفيل أبرهة وجنده، ومن عالم الحيوان المستأنس، كبقرة بنى إسرائيل، وفيه: كلب أصحاب الكهف والرقيم، وحمار عزير، ونحو ذلك...والرائع حقاً: أن هذا العنصر له قيمته البـارزة

في القصة التى يجئ فيها، ولا يختار الحيـوان إلا للقصـة الملائمة له، بحيث لا يصلح غيره فيها، فمثلاً: ترى الهدهـد جاء في مقام الهدى والهداية، وترى الغراب جاء فـي مقـام الغربة والغرابة...وهكذا.

وفي القصص القرآنـى عناصـر ممـا وراء الطبيعـة كالملائكة والجن والشياطين، ولكل منها دوره البـارز فـي القصة التى يظهر فيها، كالملائكة في قصـص: آدم ومـريم وزكريا وإبراهيم ولوط، ومثل الجن والشياطين فـي قصـة سليمان.

وفي قصة يوسف عليه السلام: نرى الذئب، ونرى عنصر الرؤى والأحلام يشيع في القصة شيوعاً واضحاً، حتى كادت قصة يوسف أن تكون هى قصة الرؤيا في القـرآن، ونـرى القميص في أوائل القصة، وفي ثناياها، ثم في خاتمتها، حتى ليمكن القول: إن قصة يوسف كلها في قميصه!.

هذا وقد كان القصص القرآنى موضـع عنايـة فائقـة، واهتمام بالغ من الباحثين والدارسين والكتاب، فكتبـت عنـه عشرات البحوث والدراسات والكتب، وكان من أبرزها:-

١- القصة في القرآن الكريم بـين حقـائق الإعجـاز وأباطيل الخصوم، وهى رسالة دكتوراه مخطوطـة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقـاهرة لمؤلـف هـذا الكتاب.
٢- بحوث في قصص القرآن: للسيد عبد الحافظ عبـد ربه، منشورات دار الكتاب اللبنانى، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
٣- البيان القصصى في القرآن الكريم: للدكتور إبراهيم عوضـين، مطبعـة السـعادة، الطبعـة الأولـى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
٤- السرد القصصى في القرآن الكريم: لثروت أباظة، مطبعة نهضة مصر بالفجالة.
٥- سيكولوجية القصة في القرآن: للـدكتور التهـامى نقرة، طبعة الشركة التونسية لفنون الرسم بتـونس، ١٩٧٤م
٦- القصص القرآنى: للدكتور عبـده بلبـول، رسـالة دكتوراه مخطوطة بكلية أصول الدين القاهرة.

٧- القصص القرآنى في منطوقه ومفهومه: لعبد الكريم الخطيـب، مطبعـة السـنة المحمديـة، الطبعـة الأولى،١٣٨٤ه-١٩٦٤م.

كذلك كان القصص القرآنى موضع عناية واهتمـام مـن الشعراء، فقد اقتبسوا من آياته مـا حلـوا بـه أشـعارهم، وصوروا به أفكارهم، ووظفوا العديد من القصص القرآنيـة توظيفا فنيا في التعبيـر عـن تجـاربهم الخاصـة، كقـول الزهاوى-موظفا قصة نوح عليه السلام-للتعبير عما يريد أن يقوله بشأن المنافقين في بغداد:-

رب إن المنافقين ببغداد كثير، وقد أرادوا ضرارا.

رب إنى نصحتهم أن يتوبوا ثم إنى أنذرتهم إنذارا.

رب إنى دعوت قومى سرا ثم إنى دعوت قومى جهارا.

إن تذرهم يا رب فى غيتهم لا يلدوا إلا فاجرا كفارا.

إنهم في ضلالهم في تبار لا تزدهم يا رب إلا تبارا.

على أن الزهاوىكما ترىقد وظف الفصلة القرآنية التـى بنيت عليها سورة نوح واستحضرها في خـاطره واتخـذها قافية لقصيدته، وهذا توظيف فنى أخر لقصة سيدنا نوح عليه السلام.

يكفي هذا العرض المكثف لأبرز ما نراه فـي القصـص القرآنى العظيم من معالم الجمال الباهر، ووجـوه الإعجـاز الفائق، وملامح ما فيه من الجمال والجلال والكمال.

الطابع المتفرد لجمال يوسـف وسـورته فـي القـرآن الكريمفي القرآن الكريم مواضع كثيرة نرى فيهـا الاحتفـاء بالجمال، على شاكلة وصف الحدائق التي أنبت ا شـجرها بأنها **(ذات بهجة)** في قوله تعإلي: **﴿أمن خلَـقَ السـماواتِ والأرض وأنزلَ لكُم مِن السماءِ ماء فأنبْتْنَا بِهِ حـدائِقَ ذَاتَ بهجةٍ ما كان لكُم أَن تُنْبِتُوا شَجرها أَئِلَه مع اللهِ بلْ هم قَوم يعدِلُون﴾** [1]، ومثل قوله تعإلي عـن الأنعـام التـي خلقهـا للعباد:**﴿ولكُم فِيها جمالٌ حِين تُريحون وحِين تَسرحون﴾**[2].

وفي ميدان الشخصيات التي جاء ذكرهـا فـي القـرآن الكريم، تفرد سيدنا يوسف عليه السلام بالثناء علـى حسـنه الباهر وجماله الفائق في قول النسوة الـذي قصـه القـرآن الكريم: **﴿ حاشَ لِلهِ ما هذَا بشَرا إِن هذَا إِلا ملَك كَرِيم﴾** [3]،

---

(1) سورة النمل آية ٦٠.

(2) سورة النحل آية ٦.

(3) سورة يوسف آية ٣١.

ولذلك لقب عليه السلام بيوسف الحسن، وضرب به المثل في الجمال.

قال ابن كثير في تفسير هذا القول:"**لما خرج يوسف على النسوة أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن أيديهن دهشـاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين**"[1] لأنهن لم يرين في البشر شبيهه،ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطى شطر الحسن،كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول ا ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة،قال:(فإذا هو قد أعطـى شـطر الحسـن،وقال الإمام أبو القاسم السهيلى:معناه أن يوسف عليه السلام كـان على النصف من حسن آدم،فإن ا خلق آدم بيده على أكمـل صورة وأحسنها،ولم يكن فـي ذريتـه مـن يوازيـه فـي جماله،وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه،فلهذا قال هـؤلاء النسوة عند رؤيته:حاش **(أي معاذ ا)**ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قال بعضهم:لما رأين جماله الظاهر أخبـرتهن امرأة العزيز بأنها لا تلام في مراودتها له عن نفسه، فإن هذا

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٧٧١. ط دار إحياء التراث العربى (بدون تاريخ).

حقيق أن يحب لجماله وكماله..كما أخبرتهن بصفاته الحسـنة التي تخفي عنهن، وهى العفة مع هذا الجمال[1].

هذا عن الطابع المتفرد لجمال يوسف عليه السلام، الـذي أشارت إليه العبارة **القرآنية﴿ما هذَا بشَرا إِن هذَا إِلـا ملَـك كَريم﴾**[2].

أما السورة المسماة باسمه في القرآن الكريم، فقد وصفت هى الأخرى كصاحبها بالحسن، و در شوقى أمير الشعراء إذ يقول: الحسن حلفت بيوسفه والسورة أنك مفرده.

وقد جاء في السطر الأول من هذه السورة قوله تعـإلي: **﴿نَحن نَقُص علَيك أَحسن الْقَصصِ بِما أَوحينَـا إِلَيـك هـذَا الْقُرآن وإِن كُنتَ مِن قَبلِه لَمِن الْغَافِلِين﴾** [3]. ومعنى أحسـن القصص: نسوق لك في هذه السورة قصة حسنة من قصص القرآن التي لم تكن تحيط بها علماً من قبل. بإضافة القصـة إلي الموصوف، فأفعل التفضيل (أحسن) هنا ليس على بابـه وهو بمعنى حسن، وفي التعبير تعريض بما في قصص أهل

---

(١) السابق: ٢/ ٧٧٢.

(٢) سورة يوسف آية ٣١.

(٣) سورة يوسف آية ٣.

الكتاب من الوهم والخلل. وعبارة **(أحسن القصص)** لم تـرد إلا في هذه السورة.

ولذلك ذهب أغلب المفسرين والدارسين إلـي أن المـراد بأحسن القصص قصة سـيدنا يوسـف – عليـه السـلام – فالتفضيل في العبارة على حقيقته، بمعنى أن القصص القرإني إذا كان هو الغاية في الحسن والكمال، فإن قصة يوسف عليه السلام هى أحسن هذا الحسن والكمال.

قال ابن أبى الأصبع:"**إنه سبحانه وطأ بهذا الفصل إلي ما يأتى بعده من سرد قصة يوسف – عليه السلام – فـتخلص به إلي ذكر القصة تخلصاً بارعاً وجعل سبب براعـة هـذا التخلص ما جاء به في التوطئة من التنكيت، فـإن النكتـة التي أشارت إلي وصف هذه القصة بنهايـة الحسـن دون سائر قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم هو قوله: (أحسن القصص) فإن المخاطب إذا سمع هذا الوصف لهذه القصة تنبه إلي تأملها، فيجد كل قضية فيها ختمت بخيـر، وكل ضيق إلي سعة، وكل شدة إلي رخاء، فـإن يوسـف – عليه السلام – رمى في الجب فنجا، وبيع بـالثمن الـبخس فنزله الذي اشتراه منزلة الولد، وراودته التي هو في بيتها**

عن نفسه فعصمه ا ، ودخل السجن فخرج منه ملكاً، وظفر إخوته به فأظفره ا بهم وأظهره عليهم، وسره بلقاء أخيه شقيقه فتآنس به، وفارقه أبوه ثم اجتمع به، وجزع لفراقه ثم سر بلقائه، وعمى من بكائه عليه فرده ا بصيراً وجاء به من البدو وأجلسه بمصر على سرير الملك، وغضب – أعنى أباه – ويوسف على بقية الأولاد ثم رضيا عنهم واستغفروا لهم، وأسجد له أبويه وإخوته تحقيقاً لرؤياه من قبل، فكانت القصة لذلك جديرة بأن توصف بنهاية الحسن دون غيرها من القصص"[1].

وقال الألوسى: وجه أحسنيتها: اشتمالها على حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وذنب وعفو، وفراق ولقاء ووصال، وسقم وصحة، وحل وارتحال، وذل وعز، وأنه لا دافع لقضاء ا تعإلي ولا مانع من قدره، وأنه سبحانه إذا قضى لإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا على دفع ذلك لم يقدروا، وأن الحسد سبب الخذلان والنقصان، وأن

([1]) بديع القرآن لابن أبى الإصبع: ص ١٦٩، ١٧٠. مكتبة نهضة مصر (الطبعة الأولى) بتحقيق د/ حنفي محمد شرف.

الصبر مفتاح الفرج، وأن التدبير من العقل وبه يصلح أمـر المعاش، إلي غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنـان التحريـر، وقيل: إنما كانت أحسن، لأن غالب من ذكر فيها كان مآلـه إلي السعادة [1].

وقال القرطبى: اختلف العلماء لم سـميت هـذه السـورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضـمن مـن العبـر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله – فـي آخرهـا: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[2].

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عـن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفو عنهم – بعد التقائهم – عن

---

(1) روح المعاني للألوسى ١١/ ١٧٦دار إحياء التراث العربى بيروت، وأنظر: تفسير الفخر الرازى: ١٨/ ٨٧ ط دار الفكر للطباعة ١٤٠١ه-/١٩٨١. والاتقان للسيوطى: ١٥٥/٤ ط هيئة الكتاب بمصر ١٩٧٥.

(2) سورة يوسف آية ١١١.

ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: **﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** [1].

وقيل: لأن فيها ذكـر الأنبيـاء والصـالحين والملائكـة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسـير الملـوك والممالك، والتجار والعلماء والجهـال، والرجـال والنسـاء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير والتعبير للرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجـل الفوائـد التي تصلح للدين والدنيا.. [2].

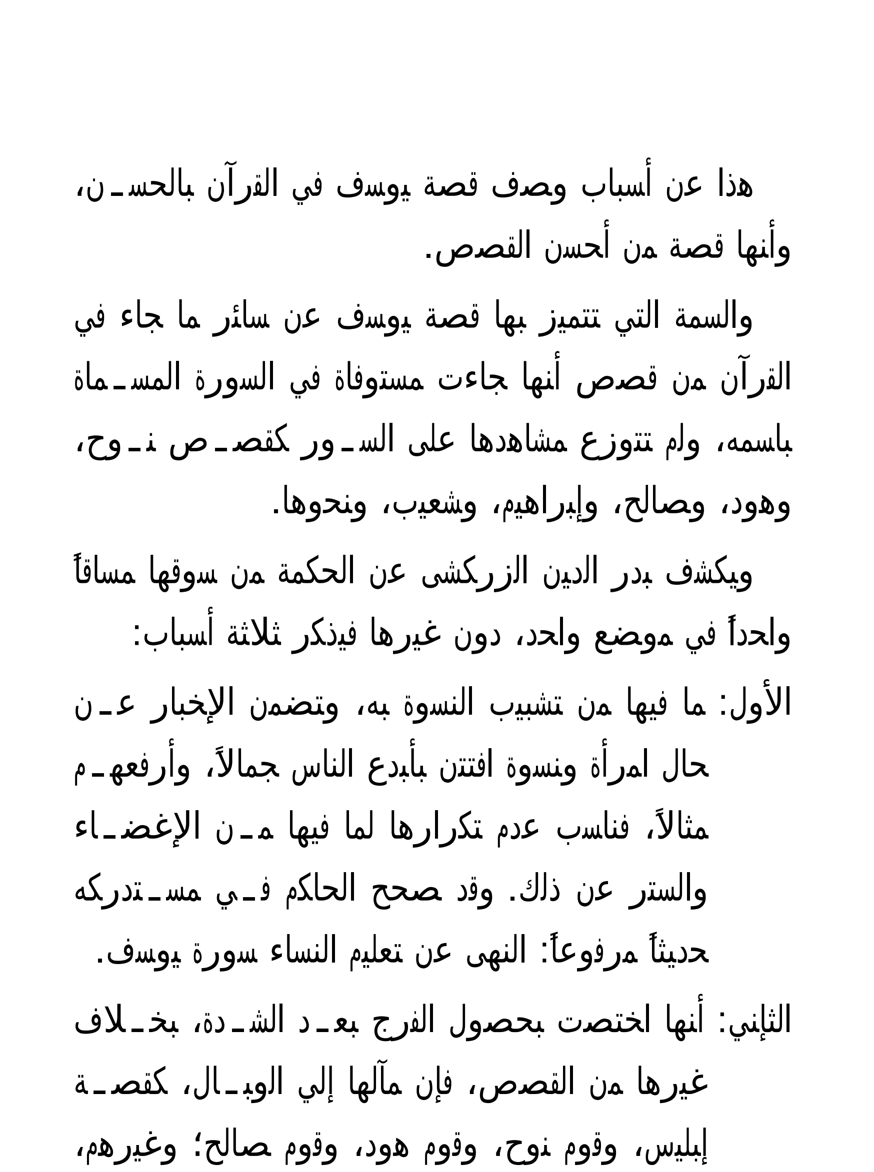
وقال الأستاذ عبد السلام الشاذلى القوصى:"**هـى أحسـن القصص – فعلاً. لتشعب أطراف القصة وكمـال معانيهـا، وسمو مراميها**"[3].

---

(1) سورة يوسف آية ٩٢.

(2) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن): ص ٣٣٤٩ مطابع الشعب، وأنظر: فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٥.

(3) من أسرار الحب في الإسلام لعبد السلام القوصى: ص ٣٦. مطابع الأهرام التجارية ١٣٨٩هـ-/١٩٦٩م-نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.



هذا عن أسباب وصف قصة يوسف في القرآن بالحسـن، وأنها قصة من أحسن القصص.

والسمة التي تتميز بها قصة يوسف عن سائر ما جاء في القرآن من قصص أنها جاءت مستوفاة في السورة المسـماة باسمه، ولم تتوزع مشاهدها على السـور كقصـص نـوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، ونحوها.

ويكشف بدر الدين الزركشى عن الحكمة من سوقها مساقاً واحداً في موضع واحد، دون غيرها فيذكر ثلاثة أسباب:

الأول: ما فيها من تشبيب النسوة به، وتضمن الإخبار عـن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهـم مثالاً، فناسب عدم تكرارها لما فيها مـن الإغضـاء والستر عن ذلك. وقد صحح الحاكم فـي مسـتدركه حديثاً مرفوعاً: النهى عن تعليم النساء سورة يوسف.

الثاني: أنها اختصت بحصول الفرج بعـد الشـدة، بخـلاف غيرها من القصص، فإن مآلها إلي الوبـال، كقصـة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح؛ وغيرهم، فلما اختصت هذه القصة في سائر القصـص: بـذلك

اتفقت الدواعى على نقلهـا لخروجهـا عـن سـمت القصص.

الثالث: قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسـفرايينى إنمـا كـرر ا قصص الأنبياء، وساق قصة يوسف مسـاقاً واحـداً، إشارة إلي عجز العرب، كأن النبى ﷺ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسى تصديره على الفصاحة، فـافعلوا فـي قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء [١].

وأضاف السيوطى سبباً رابعاً هو: أنها نزلت بسبب طلب الصحابة من الرسول ﷺ أن يقص عليهم – كمـا رواه فـي مستدركه – فنزلت مبسوطة تامة، ليحصـل لهـم مقصـود القصص من استيعاب القصة، وترويح النفس بها والإحاطـة بطرفيها [٢].

كذلك أضاف السيوطى سبباً خامسـاً هـو: أن قصـص الأنبياء في القرآن الكريم قد وزعت حلقاتها لأن المقصود بها

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣ / ٢٩ ط مكتبة دار التراث بالقاهرة.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢٣٢. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

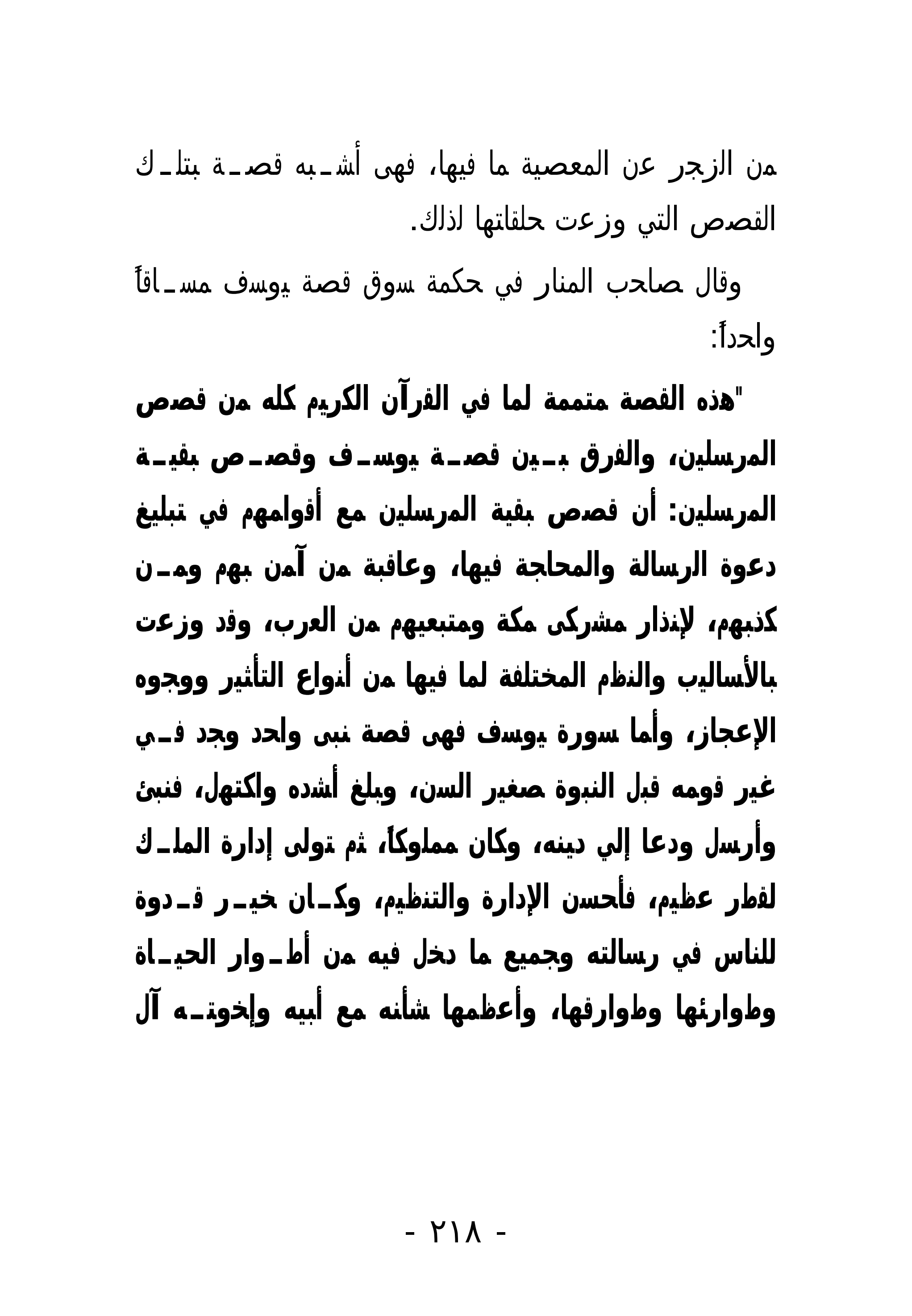
إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم من الأمم الغـابرة، والحاجـة داعية إلي ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن الكريم عـن تكذيب الكفار للرسول ﷺ فكلما ساق القرآن الكريم موقفاً من مواقف التكذيب ساق في إثره حلقة من قصة منذرة بحلـول العذاب، كما حل على المكذبين، ولهذا قال الحق سبحانه فـي آيات: ﴿ **فَقَدْ مضتْ سنةُ الأُولِين**﴾ [1].﴿**أَلَمْ يروا كَم أَهلَكْنَا مِن قَبلِهم مِن قَرنٍ**﴾ [2] أما قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلـم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يتحقق الجواب عن حكمة سوق قصة أصحاب الكهف، وقصة ذى القرنين وقصـة الـذبيح، وقصة موسى مع العبد الصالح مساقاً واحـداً فـي القـرآن الكريم [3] ولا وجه للاعتراض بأن قصة آدم – عليه السـلام – قد جاءت موزعة الحلقات مع أنه ليس المقصود بها إفـادة إهلاك من كذبوا رسلهم، إذ يجاب على هذا الاعتراض بـأن هذه القصة وإن لم يكن المراد منها إفادة ما ذكر إلا أن فيهـا

---

(1) سورة الأنفال آية ٣٨.

(2) سورة الأنعام آية ٦.

(3) السابق والصفحة نفسها.



من الزجر عن المعصية ما فيها، فهى أشـبه قصـة بتلـك القصص التي وزعت حلقاتها لذلك.

وقال صاحب المنار في حكمة سوق قصة يوسف مسـاقاً واحداً:

"هذه القصة متممة لما في القرآن الكريم كله من قصص المرسلين، والفرق بـين قصـة يوسـف وقصـص بقيـة المرسلين: أن قصص بقية المرسلين مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومـن كذبهم، لإنذار مشركى مكة ومتبعيهم من العرب، وقد وزعت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز، وأما سورة يوسف فهى قصة نبى واحد وجد فـي غير قومه قبل النبوة صغير السن، وبلغ أشده واكتهل، فنبئ وأرسل ودعا إلي دينه، وكان مملوكاً، ثم تولى إدارة الملـك لقطر عظيم، فأحسن الإدارة والتنظيم، وكـان خيـر قـدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطـوار الحيـاة وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوتـه آل

بيت النبوة، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة"[1].

وقال أحد الباحثين المعاصرين:"**إنها قصة تعالج ناحية اجتماعية تقوم على الصراع الذي مبعثه الغيرة والحقد من جوانب إخوة يوسف وكيدهم له، وهذا ما نراه يحدث كثيراً في المجتمعات الأسرية، فأراد القرآن الكريم أن يجعل هذه القصة مستقلة بنفسها لما فيها من العواقب الوخيمة لكل من يحيد عن الحب والإخلاص، ويكون مجبولاً على الغيرة والشر، وسائر القصص – كما أرى – تتماثل في كونها تقوم على الدعوة إلي توحيد الخالق – جل وعلا – والتحذير من مخالفته"**[2].

وقال الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى – في هذا الصدد-:"**تقدم لنا سورة يوسف أنموذج الرواية التامة الحلقات المتسلسلة السرد، المصورة للحوادث والأشخاص،**

---

(1) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: ج-١٢ – ص ٢٠٧"بتصرف". ط هيئة الكتاب بمصر ١٩٧٣م.

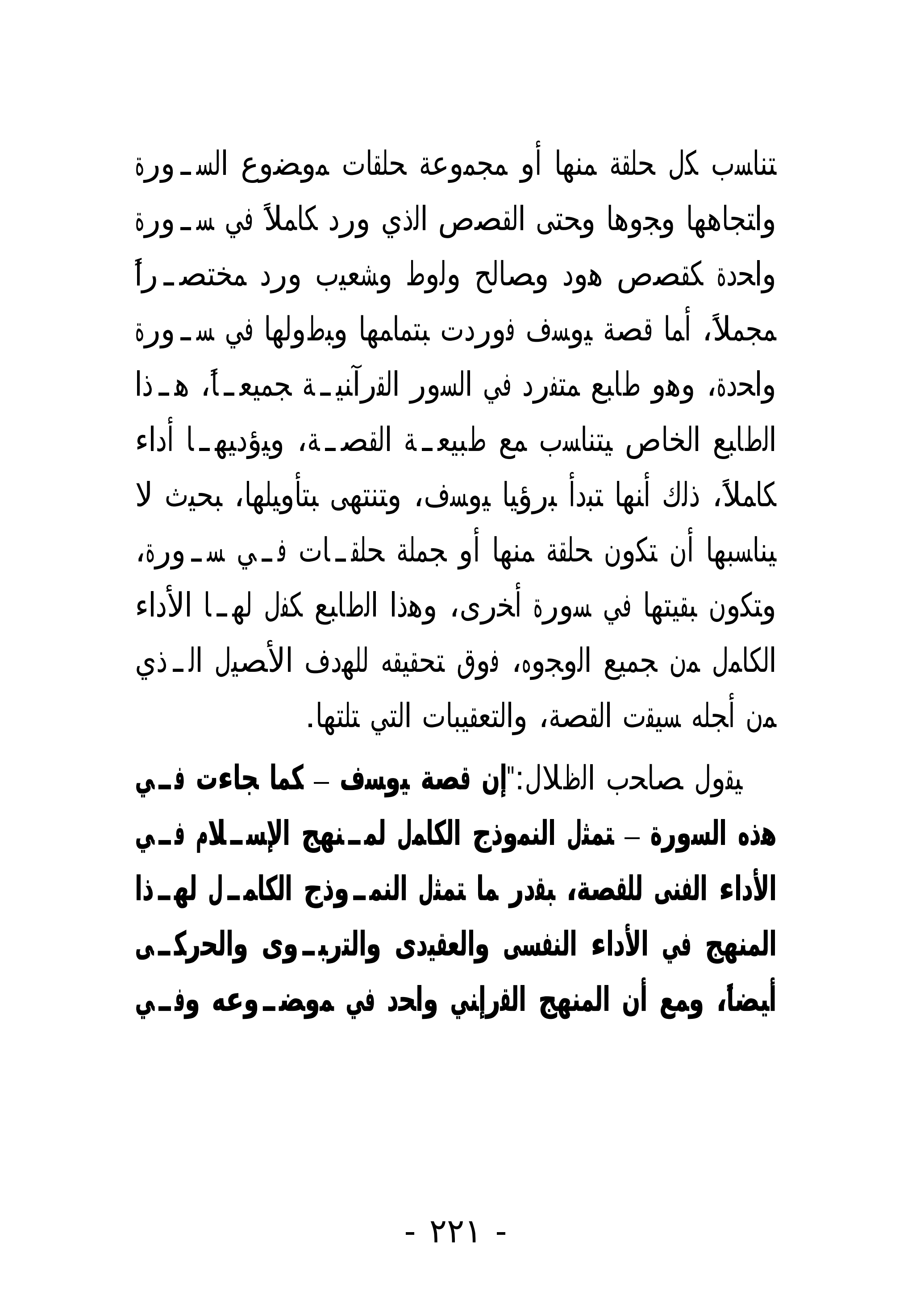
(2) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية لمحمود مصطفي، مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ص ١٢٧.

وكأن ا – عز وجل – قد صاغ قصة هذا النبى الكريم فـي سورة مستقلة ليعلم هؤلاء الذين يشترطون ما يشـترطون في الإبداع القصصى أن القرآن الكريم لو شاء أن يفرد كل نبى بقصة خاصة في سورة خاصة لفعل، ولكنه يوزع قصة كل نبى في مختلف السور لحكمة عليا تقتضـيها الـدعوة الإلهية التي نهض برسالتها القرآن، على أن هذا التوزيـع الخاضع للغرض الدينى الذي تدور حوله السورة الكريمـة يزيد في جاذبية الحديث دون أن ينقص شيئاً مـن لألائـه، وتلك فيما أرى معجزة خاصة بالقرآن الكـريم، إذ لا تتـاح بجاذبيتها اللامعة لإنسان"[1].

هذا ما قاله العلماء والدارسون عن الحكمـة مـن سـوق القصة كلها في سورة واحدة. وأما معالم الحسن والجمال في سورة يوسف فهى جد كثيرة، ومن أبرزها ما يلى:

تميزها بذلك الطابع المنفرد المتمثل في احتوائهـا علـى قصة يوسف كاملة، فالقصص القرآنية غير قصـة يوسـف

([1]) البيان القرإني للدكتور محمد رجب البيومى ص ٢٢١ "بتصرف يسير"، ط دار النهضة للطباعة، نشر مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ-/١٩٧١م.



تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السـورة واتجاهها وجوها وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سـورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصـراً مجملاً، أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سـورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنيـة جميعـاً، هـذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعـة القصـة، ويؤديهـا أداء كاملاً، ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهى بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقـات فـي سـورة، وتكون بقيتها في سورة أخرى، وهذا الطابع كفل لهـا الأداء الكامل من جميع الوجوه، فوق تحقيقه للهدف الأصيل الـذي من أجله سيقت القصة، والتعقيبات التي تلتها.

يقول صاحب الظلال:"**إن قصة يوسف – كما جاءت فـي هذه السورة – تمثل النموذج الكامل لمـنهج الإسـلام فـي الأداء الفنى للقصة، بقدر ما تمثل النمـوذج الكامـل لهـذا المنهج في الأداء النفسى والعقيدى والتربـوى والحركـى أيضاً، ومع أن المنهج القرإني واحد في موضـوعه وفـي**

أدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء"[1].

وصدق صاحب الظلال فيما قاله وقرره عن هذه السـورة القرآنية الكريمة، فإن من يقرأ هذه السورة الكريمة، ويتأمـل الطريقة التي عرضت بها قصة سيدنا يوسف في هذه السورة يتأكد لديه أنها تمثل – بحق – النموذج الإعجـازى الكامـل للأداء القصصى في القرآن الكريم، وهناك شواهد عديدة تدل على ذلك وتؤكده، ومن هذه الشواهد ما يلى:

١- أن سورة يوسف عليه السلام من السور الطويلة في القرآن الكريم، فقد بلغ عدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، منها ثلاث آيات تمهيدية افتتحت بها السورة في ذكر القرآن الكريم وحسن قصصه، وعشر آيات اختتمت بها السورة في الاستدلال على ما أنزلها ا لأجله من إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ وإعجاز القرآن الكريم، والعبرة العامة بقصص المرسلين عليهم السلام، وبقية الآيات

(١) في ظلال القرآن – مجلد ٤ – ص ١٩٥١.

وعددها ثمان وتسعون آية في تاريخ سيدنا يوسف عليه السلام.

٢- يعد سيدنا يوسف عليه السلام هو الشخصية القرآنية الوحيدة التي أفرد لها القرآن الكريم سورة تتناول قصته من ألفها إلي يائها، حتى إن السورة قد سميت باسمه عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

ولا وجه للاعتراض بأن القرآن الكريم قـد ذكـر اسـم يوسف في سورتى الأنعام وغـافر، إذ يجـاب علـى هـذا الاعتراض بأن ما جاء عنه – عليه السـلام – فـي هـاتين السورتين لا يتعدى مجرد الإشارة إليه إذ لم يقترن بشئ من حياته وتاريخه على النحو الذي نراه في السـورة المسـماة باسمه، فالقرآن الكريم في السورة الأولى يذكره في مجموعة الرسل الكرام المنتسبين لأبى الأنبياء، حيث يقول: ﴿ **ومِـن ذُريتِهِ داوود وسليمان وأيوب ويوسفَ وموسـى وهـارون وكَذَلِكَ نَجزِي الْمحسِنِين**﴾ [1]. ويقول القـرآن الكـريم فـي السورة الثانية – على لسان مـؤمن آل فرعـون-: ﴿ **ولَقَـد**

([1]) سورة الأنعام آية ٨٤.

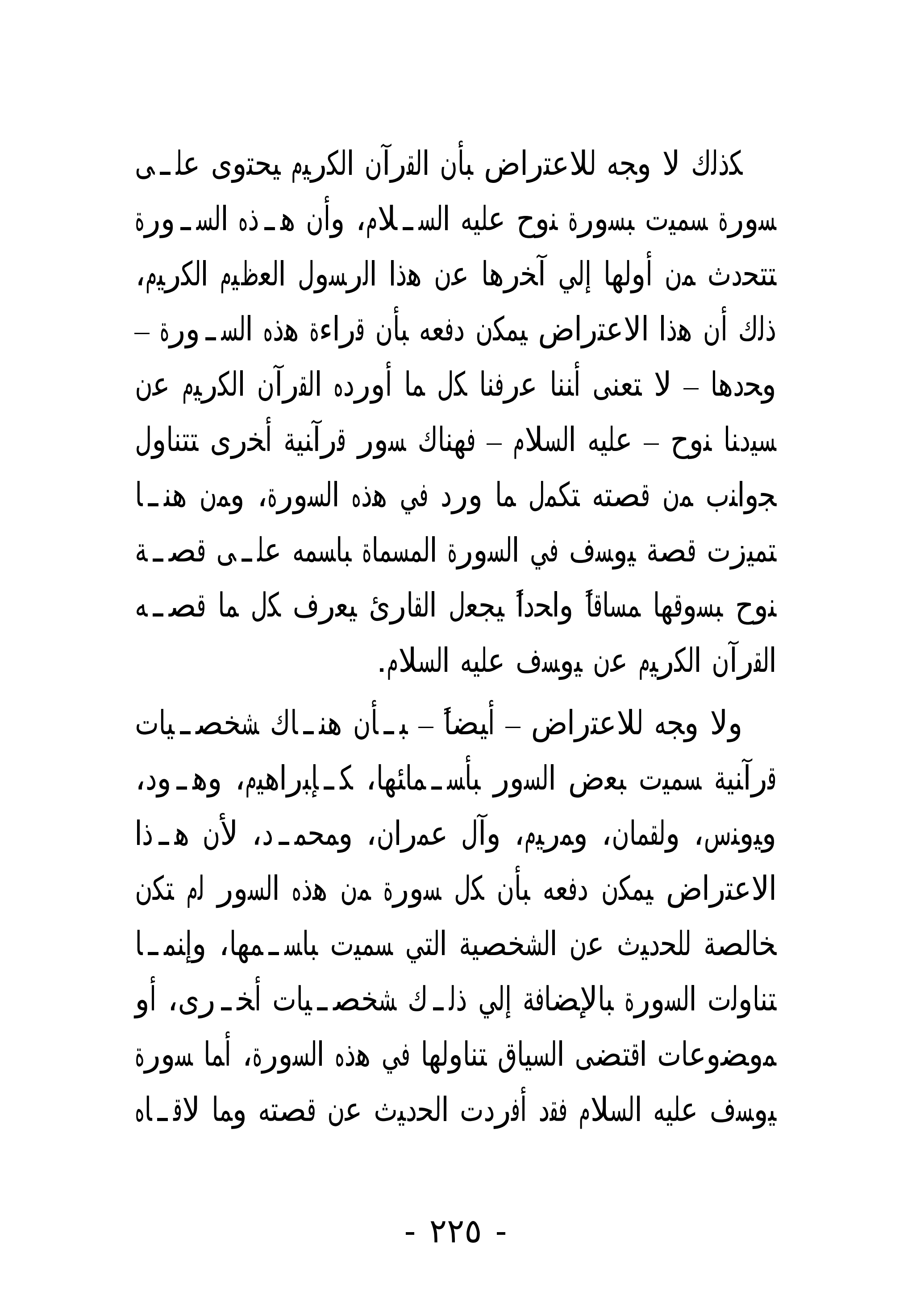
جاءكم يوسفُ مِن قَبلُ بِالبيناتِ فَما زِلتُم فِي شَك مِما جاءكم بِهِ حتى إِذَا هلَك قُلتُم لن يبعثَ الله مِن بعدِهِ رسولًا﴾ [1].

كذلك لا وجه للاعتراض بأن في القرآن الكـريم بعـض قصص لم يرد كل منها إلا في موضع واحـد، كمـا وردت قصة يوسف في موضع واحد، كقصة أهل الكهف، وقصـة ذى القرنين، وقصة صاحب الجنتين، لأن هـذا الاعتـراض مدفوع بأن هذه القصص ونحوها لم يرد فـي شـأنها مـن التفصيل ما ورد في قصة يوسف مـن التطـور والرحابـة والاتساع، وما توإلي خلال وقائعها من المفاجآت العديدة، وما تولته أحداثها من بيان مواقف أبطال الواقعة.

ولا وجه للاعتراض – أيضاً – بأن القرآن الكريم قد أفرد لقصة أصحاب الفيل سورة كما أفرد لقصة يوسـف سـورة، لأن هذا الاعتراض مدفوع بأن القرآن الكريم قد أورد قصـة أصحاب الفيل موجزة غاية الإيجاز لتؤدى الغاية منهـا فـي السورة التي أفردت لها، وسميت بسورة الفيل، وهى معدودة – كما نعلم من قصار السور في القرآن الكريم، وليست من طوالها كسورة يوسف عليه السلام.

---

(1) سورة غافر آية ٣٤.


كذلك لا وجه للاعتراض بأن القرآن الكريم يحتوى علـى سورة سميت بسورة نوح عليه السـلام، وأن هـذه السـورة تتحدث من أولها إلي آخرها عن هذا الرسول العظيم الكريم، ذلك أن هذا الاعتراض يمكن دفعه بأن قراءة هذه السـورة – وحدها – لا تعنى أننا عرفنا كل ما أورده القرآن الكريم عن سيدنا نوح – عليه السلام – فهناك سور قرآنية أخرى تتناول جوانب من قصته تكمل ما ورد في هذه السورة، ومن هنـا تميزت قصة يوسف في السورة المسماة باسمه علـى قصـة نوح بسوقها مساقاً واحداً يجعل القارئ يعرف كل ما قصـه القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام.

ولا وجه للاعتراض – أيضاً – بـأن هنـاك شخصـيات قرآنية سميت بعض السور بأسـمائها، كـإبراهيم، وهـود، ويونس، ولقمان، ومريم، وآل عمران، ومحمـد، لأن هـذا الاعتراض يمكن دفعه بأن كل سورة من هذه السور لم تكن خالصة للحديث عن الشخصية التي سميت باسـمها، وإنمـا تناولت السورة بالإضافة إلي ذلـك شخصـيات أخـرى، أو موضوعات اقتضى السياق تناولها في هذه السورة، أما سورة يوسف عليه السلام فقد أفردت الحديث عن قصته وما لاقـاه

من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد من إخوتـه ومن الآخرين، في غيابه الجب، وفي بيت عزيز مصر، وفي تآمره النسوة، وفي السجن، حتى نجاه ا من ذلك الضيق.

وهكذا يتضح من دفع كل هذه الاعتراضـات أن قصـة سيدنا يوسف عليه السلام هى القصة القرآنية الطويلة الوحيدة التي اجتمعت في سورة برأسها، واستقلت بنفسها، وتميـزت على سائر القصص القرإني المعجز بذلك الطابع الفريد مـن نوعه في القرآن الكريم، فلا غرو إذا قلنا على ضوء هذا إنها النموذج الإعجازى الكامل للأداء القصصـى فـي القـرآن الكريم.

وهذه القصة تتضمن غراميات لو تسلمتها أيدى القصاص لكانت إثارة للغرائز، وإزجاء للوقـت دون طائـل، وهـذه الغراميات – هنا – توجه كل نفس إلي كل طهر وقدس، بمـا ضرب ا سبحانه من مثل في جهاد الصديق مع نفسه، وفي مقاومته لبنات جنسه اللاتى يقول فيهن أخوه وحبيبه محمد – صلوات ا وسلامه عليه:-**(ما تركت بعـدى أضـر علـى الرجال من النساء)**.. وما أكثر ما في القصـة مـن عبـر

وعظات، كانت سبباً في أن يستهل الله ما فيها من أنباء عجيبة بأنها أحسن القصص وأكرمه هدفاً، وأرفعه مسلكاً وخلقاً[1].

أن هذه القصة تختلف عن سائر القصص القرآني بأنها الوحيدة التي تبدأ برؤيا يراها البطل، ثم تنتهي بتأويل هذه الرؤيا، ولا شك أن الرؤيا لا تكون إلا أثناء النوم، وبداية أية قصة بمثل هذا أمر يوحى بالنعاس، غير أن ما كان يقتضى الانصراف عن قراءة القصة هو ذاته أحد عوامل جذبها وشدها[2]، أنظر إلي قوله تعالي: ﴿ **إِذْ قَالَ يوسفُ لِأَبِيهِ ياأبتِ إني رأيتُ أحد عشرَ كوكبا والشمس والْقَمر رأيتُهم لِي ساجِدِين** ﴾ [3] وتأمل: كيف بدأت القصة بهذه الصورة المعجزة التي تتحدى خيال أعظم الفنانين"**وتصور نوع التحدى الذي يفرضه وجود هذه الرؤيا على مخيلة المتلقى، وتأمل طاقة الخيال كيف تنشط لتصوره؟ إن الذهن البشرى**

---

(1) بحوث في قصص القرآن: للسيد عبد ربه: ص ١٦١، ١٦٢. مطابع الجبل، لبنان١٩٧٢م.

(2) أنبياء الله لأحمد بهجت: ص ١٣١. ط دار الشروق ١٩٧٣ (الطبعة الثانية).

(3) سورة يوسف آية ٤.

مطالب – حقاً – بأن يخلق داخله صورة لسـجود الشـمس والقمر والكواكب ليستطيع أن يمضى في القصة"[١].

أضف إلي كل ما تقدم: أن سورة يوسف، قد تعددت فيهـا الرؤى والأحلام، ففضلاً عن أنها تقص – في أغلب آياتها – رؤيا يوسف وتأويلها، نجد رؤية صاحبى يوسف في السجن، وتأويلها لهما، ونجد رؤيا الملك، وتأويل يوسف لها، ومجمل هذه الرؤى أربع، ويوسف نفسه يرى رؤيا فسرها الـزمن، ويوسف نفسه علمه ا تأويل الرؤى، وبلغ في هذا التأويـل مبلغاً جعله متميزاً بين سائر الأنبياء بتلك الخاصية الجليلة.

فإذا كان ا علم آدم الأسماء كلها، وعلـم داود صـنعة لبوس، وعلم سليمان منطق الطير، وعلـم الخضـر العلـم اللدنى، وعلم عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وعلم سيدنا محمد ﷺ ما لم يكن يعلم، فإنه يعلم يوسـف تأويـل الأحاديث أي: الرؤى والأحلام. فهل يمكننا أن نقول بعد هذا: إن سورة يوسف هى سورة الرؤيا أو الـرأي فـي القـرآن الكريم؟! وهل نقول: إن قصة يوسف كلها في قميصه الـذي يبدو في أول السورة ووسطها وقرب نهايتها؟!

---

(١) السابق والصفحة نفسها:"بتصرف يسير".

ومن المعالم التي جعلت هذه السورة ذات طابع منفرد في القرآن الكريم، وأضفت عليها المزيد من الحسن والجمـال: أنها سورة غنية بعنصر الكيد والمكر والحيـل المسـترعية للانتباه بين حسنة وقبيحة وقد جاء هذا العنصر فـي صـور شتى، تحقق التشويق.

على أن المتأمل للطريقة الفريدة المتميزة التي عرض بها القرآن الكريم هذه القصة يجد أن الحق – جل شأنه –حينمـا أنزل هذه القصة دفعة واحدة على الرسول ﷺ قد صـاغها بطريقة تثبت أنه لو شاء أن يوزع حلقاتها كبقيـة قصـص الأنبياء على سور القرآن الكريم لفعل، لكنه لم يشأ ذلك، ومن هنا جاءت القصة كلها في معرض واحد يوضح بالتفصـيل حياة هذا النبى الكريم، وقصته مع إخوتـه وقصـة انتقالـه كالسلعة من يد إلي يد على غير إرادة منه، ولا حمايـة ولا رعاية من أبويه ولا من أهله، وقصـة ابتلائـه بـالإغراء والشهوة والفتنة، وقصة امرأة العزيز والنسوة فـي مصـر معه، وقصة دخوله السجن مظلوماً، ودعوتـه النـاس فـي السجن إلي عبادة ا الواحد القهار، وقصة تعبيـره الرؤيـا لملك مصر وخروجه من السجن، وقصته استلامه لخـزائن

مصر، ثم قصة مجئ إخوته إلي مصر بسبب القحط، ثم قصة احتياله لإبقاء أخيه بنيامين عنده، ثم قصة تعرفه على أبيـه وإخوته ودخولهم عليه وسجودهم له، حسب الرؤيا التي رآها في صغره.

فقصة يوسف عليه السلام – إذن – قصة طويلة تتضـمن في طياتها مجموعة من القصص تتوإلي حول شخص واحـد وهو ذلك النبى الكريم، بل إن قصة من قصص هذه القصـة الطويلة تتضمن جملة من المشاهد القصصية، وكـل مشـهد منها يتكون من جملة من المواقف والأحداث، وهـى بـذلك تتميز عن بقية قصص الأنبياء تلك التي وزعت حلقات كـل قصة منها على سور القرآن الكريم، بحيث جاء في كل سورة ما يستدعيه المقام من هذه الحلقات.

وعلى الرغم من تعدد المشاهد والمواقف والأحداث فـي القصة جاءت"**كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا في موضوعها، وفي جوها، وفي ظلالها، وفي إيحائهـا**"[١]. واستوفت سـائر ملامـح **(الواقعيـة)** السـليمة المتكاملـة، وخصائصها في كل موقف، وكل مشهد، وكل حدث، بل إنها

(١) في ظلال القرآن: مجلد ٤ ص ١٩٥٢.

استوفت هذا في كل شخصية من شخصياتها، وفي كل خلجة من خلجاتها، فكانت صورة واضحة كاملة ودقيقـة شـاملة لمنهج القرآن الكريم العام في العرض القصصى.

ومن الشواهد الدالة على أن هـذه القصـة هـى النمـوذج الإعجازى الكامل للأداء القصصى فـي القـرآن الكـريم: أن القارئ لهذه القصة يجد نفسه أمام قصة ممتعة لطيفة تسرى مع النفس سريان الدم في العروق، وتجرى برقتها وسلاستها فـي القلب جريان الروح في الجسد، فهى وإن كانت من القصـص المكية التي تحمل – في الغالب – طابع الإنذار والتهديد إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية في أسـلوب ممتع لطيف سلس رقيق يحمل جو الأنس والرحمـة والرأفـة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: سورة يوسف ومريم ممـا يتفكه بهما أهل الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سـورة يوسـف محزون إلا استراح إليها [1] ولا شك أن ما قاله عطاء يوقفنـا على السر الذي من أجله كان نزول هذه السورة بالذات في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم-ﷺ-حيـث

([1]) تفسير سورة يوسف لمحمد على الصابونى: ص ٥، ٦. دار مصر للطباعة ١٤٠٠هـ-/١٩٨٠م.

توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد – عليه السلام – نصيريه: زوجه الطاهر الحنون خديجـة، وعمه أبا طالب، الذي كان له خير نصـير، وخيـر معـين، وبوفاتها اشتد الأذى والبلاء علـى رسـول ا ﷺ وعلـى المؤمنين، حتى عرف ذلك العام بعام الحزن[1] فكان نزول هذه السورة في تلك الفترة العصيبة سلوى لقلبه، وبلسما لجروحـه، وتسلية له وللعصبة المسلمة معه في مكة المكرمة عما يلقـون من الأذى والآلام.

على أن هذه القصة قـد جـاءت غنيـة بالمشـاهد، حافلـة بالانفعالات والمواقف، ومضت منذ بدايتها حتى نهايتها في خـط واحد، يلتحم فيه المضمون بالشكل، ويفضى بالمتلقى لإحسـاس عميق أنه أمام قصة فريدة من نوعها في القرآن الكريم.

هذا وقد كانت سورة يوسف ذات طابع منفرد أيضاً فـي اشتمالها على ألفاظ وعبارات لم ترد في غيرها مـن سـور القرآن، مثل **(معاذ ا)** [2] ذكرت مرتين فيها، ومثل **(حاش**

---

(1) السابق ص ٦ وراجع: الظلال – مجلد ٤ – ص ١٩٤٩.

(2) تعوذ الأنبياء والصالحين با في القرآن كثير، ولكنه كله ليس بصيغة (معاذ ا)، وإنما بصيغ أخرى، على شاكلة قول مريم:

) ذكرت أيضاً مرتين، ومثل لفظة **(القميص)** الذي ذكـر ثلاث مرات، وكان في كل حال من الحالات الثلاث غيره في أي منها في الحال الأخرى، وقد جاء القميص فـي بـدايات السورة، ووسطها، ثم قرب نهايتها، فكـان بـذلك عنصـرا أصيلاً وبارزا في السورة، حتى لـيمكن القـول: إن قصـة يوسف كلها في قميصه.

والخلاصة أن سورة يوسف لها سماتها التي تميزها عـن غيرها، وقصة سيدنا يوسف قد جاءت بكمالها وتمامها فـي هذه السورة، فتميزت بذلك عن القصص القرآنيـة الأخـرى التي وزعت مشاهدها على سور القرآن ليقدم في كل سـورة من مشاهد القصة ما يستدعيه المقام، فلا عجب إذا قلنا: إنها ذات طابع متفرد بين سور القرآن الكريم.

يكفينا هذا القدر عن الطابع المتفرد لجمال سيدنا يوسـف وسورته في القرآن الكريم.

(أعوذ بالرحمن منك إن كنتا تقيا)، فانفردت سورة يوسف بهذه الصيغة (معاذ ا)، قالها يوسف حين دعته امرأة العزيز إلي المواقعة، وحين دعاه إخوته إلي تغيير حكم السرقة (أنظر الآيتين: ٢٣، ٧٩ من السورة).

جمال التعبير وروعة التصوير لرؤيا الملك وتأويلها في قصة يوسف 

قال ا تبارك وتعالي: ﴿ **وقَالَ الْملِك إِني أَرى سبع بقَراتٍ سِمانٍ يأْكُلُهن سبع عِجافٌ وسبع سنْبلَاتٍ خُضرٍ وأُخَر يابِساتٍ ياأَيها الْملأُ أَفْتُونِي فِي رؤْياي إِن كُنتُم لِلرؤْيا تَعبرون، قَالُوا أَضغَاثُ أَحلَامٍ وما نَحن بِتَأْوِيلِ الْأَحلَامِ بِعالِمِين، وقَالَ الَّذِي نَجا مِنْهما وادكَر بعد أُمةٍ أَنَا أُنَبئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرسِلُونِي، يوسف أَيها الصديق أَفْتِنَا فِي سبعِ بقَراتٍ سِمانٍ يأْكُلُهن سبع عِجافٌ يأْكُلُهن سبع عِجافٌ وسبعِ سنْبلَاتٍ خُضرٍ وأُخَر يابِساتٍ لَعلِّي أَرجِع إِلَي الناسِ لَعلَّهم يعلَمون، قَالَ تَزرعون سبع سِنِين دأَبا فَما حصدتُم فَذَروه فِي سنْبلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِما تَأْكُلُون، ثُم يأْتِي مِن بعدِ ذَلِك سبع شِداد يأْكُلْن ما قَدمتُم لَهن إِلَّا قَلِيلًا مِما تُحصِنُون(٤٨)ثُم يأْتِي مِن بعدِ ذَلِك عام فِيهِ يغَاثُ الناس وفِيهِ يعصِرون**﴾ [١].

تمثل هذه الآيات السبع حلقة من الحلقات العديدة لقصة سيدنا يوسف عليه السلام في القرآن الكريم.

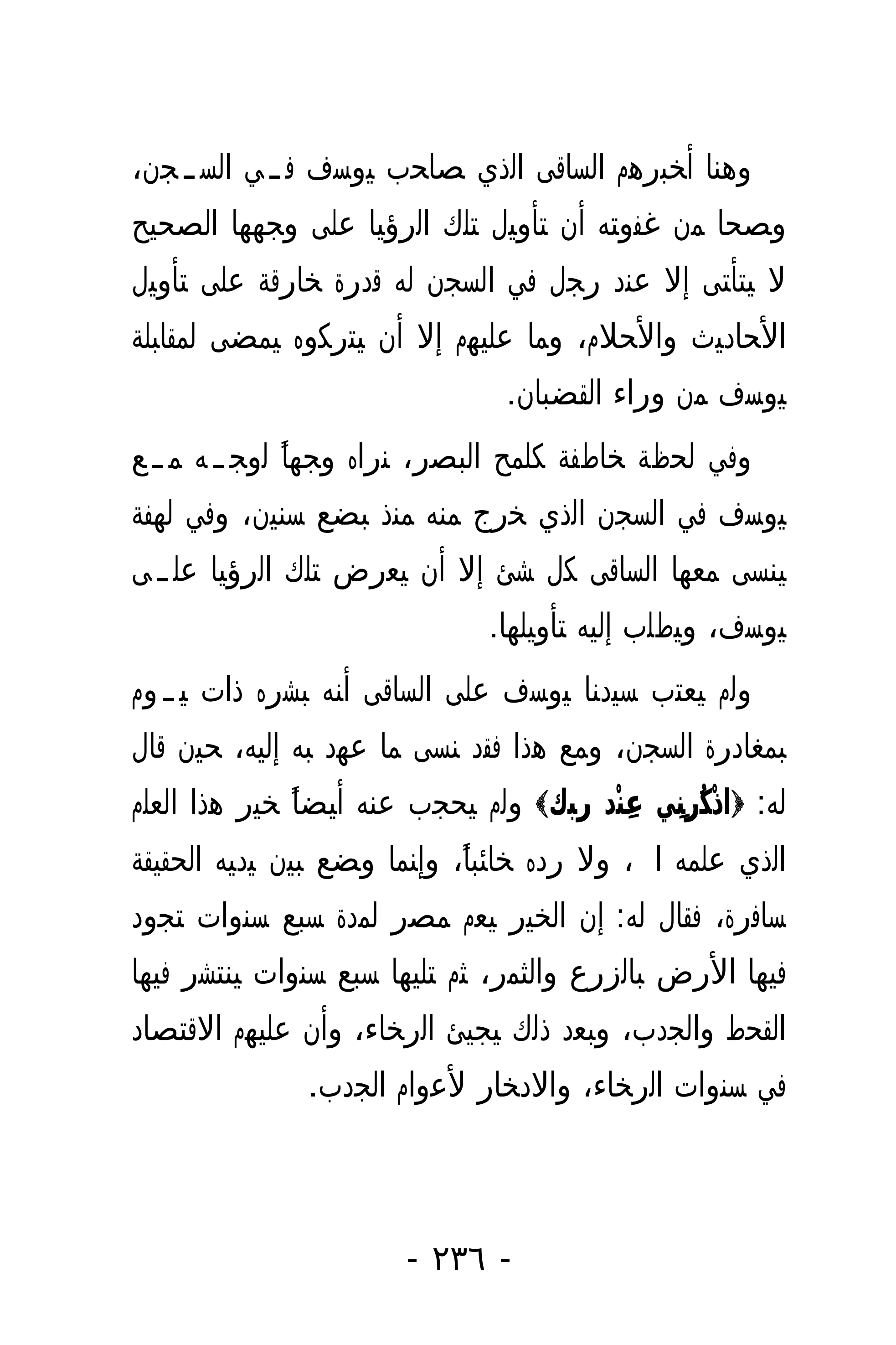
---

(١) سورة يوسف الآيات ٤٣ – ٤٩.

ويقص علينا الحق سبحانه في هذه الحلقة أن ملك مصر – في ذلك الحين – قد رأي – في نومه – شيئاً خطيراً سيقع في البلاد ... لقد رأي سبع بقرات قد امتلأن شحماً ولحماً يأكلهن سبع بقرات أخرى مهازيل ضعاف، ورأي – أيضاً – سـبع سنبلات خضر قد امتلأت حباً، ورأي إلي جانبه سبع سنبلات آخر يابسات قد ذهبت نضارتها وخضرتها، ومع هـذا، فقـد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها.

رأي الملك هذه الأشياء في نومه، ولم يدر ما هى علـى وجه التحديد، ولهذا دعا وجوه دولته من الأعيـان والعلمـاء والوزراء والأمراء، ليعبروا له عن هذه الرؤيا، ويكشفوا لـه عن مدلولها؛ إذ كان – كما يبدو له – أن لهم في هذه الرؤيـا شأناً، وأن ما يقع سيمسهم من قريب أو من بعيد.

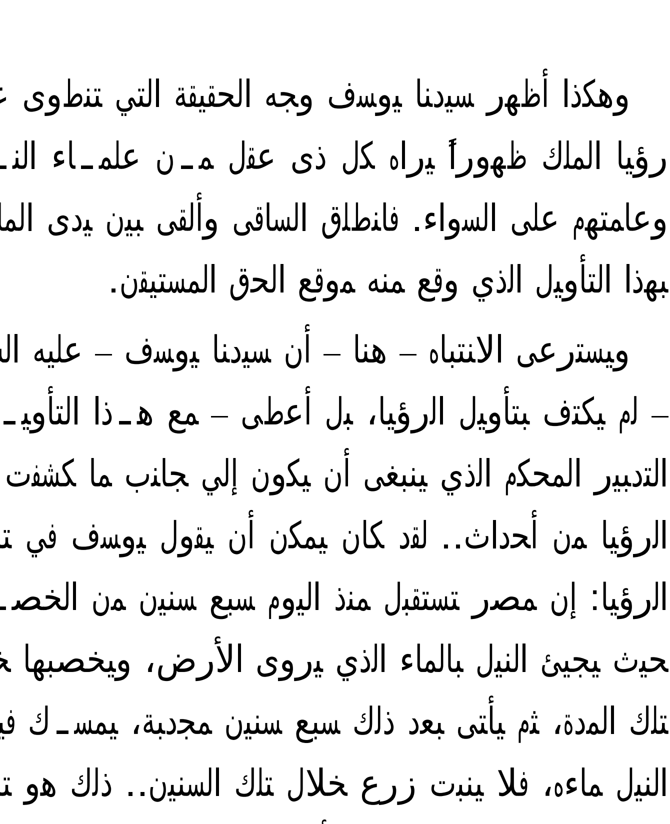
ولم يجد الملأ من حول الملك تأويلاً يكشف عن وجه هذه الرؤيا، فأقروا له بالعجز، ووصفوا ما رآه في نومـه بأنـه أخلاط أحلام دخل بعضها في بعض، فلم يعد لنـاظر فيهـا سبيل إلي إعادة تركيبها على وجه سليم؛ لأن الأحلام مجـرد رموز ليس من السهل حل طلاسمها، وكشف معمياتها، فكيف إذا كانت أحلاماً أضغاثاً وأخلاطاً؟!



وهنا أخبرهم الساقى الذي صاحب يوسف فـي السـجن، وصحا من غفوته أن تأويل تلك الرؤيا على وجهها الصحيح لا يتأتى إلا عند رجل في السجن له قدرة خارقة على تأويل الأحاديث والأحلام، وما عليهم إلا أن يتركوه يمضى لمقابلة يوسف من وراء القضبان.

وفي لحظة خاطفة كلمح البصر، نراه وجهاً لوجـه مـع يوسف في السجن الذي خرج منه منذ بضع سنين، وفي لهفة ينسى معها الساقى كل شئ إلا أن يعرض تلك الرؤيا علـى يوسف، ويطلب إليه تأويلها.

ولم يعتب سيدنا يوسف على الساقى أنه بشره ذات يـوم بمغادرة السجن، ومع هذا فقد نسى ما عهد به إليه، حين قال له: ﴿**اذْكُرنِي عِنْدَ ربك**﴾ ولم يحجب عنه أيضاً خير هذا العلم الذي علمه ا ، ولا رده خائباً، وإنما وضع بين يديه الحقيقة سافرة، فقال له: إن الخير يعم مصر لمدة سبع سنوات تجود فيها الأرض بالزرع والثمر، ثم تليها سبع سنوات ينتشر فيها القحط والجدب، وبعد ذلك يجيئ الرخاء، وأن عليهم الاقتصاد في سنوات الرخاء، والادخار لأعوام الجدب.



وهكذا أظهر سيدنا يوسف وجه الحقيقة التي تنطوى عليها رؤيا الملك ظهوراً يراه كل ذى عقل من علماء الناس وعامتهم على السواء. فانطلق الساقى وألقى بين يدى الملك بهذا التأويل الذي وقع منه موقع الحق المستيقن.

ويسترعى الانتباه – هنا – أن سيدنا يوسف – عليه السلام – لم يكتف بتأويل الرؤيا، بل أعطى – مع هذا التأويل – التدبير المحكم الذي ينبغى أن يكون إلي جانب ما كشفت عنه الرؤيا من أحداث.. لقد كان يمكن أن يقول يوسف في تأويل الرؤيا: إن مصر تستقبل منذ اليوم سبع سنين من الخصب، حيث يجيئ النيل بالماء الذي يروى الأرض، ويخصبها خلال تلك المدة، ثم يأتى بعد ذلك سبع سنين مجدبة، يمسك فيها النيل ماءه، فلا ينبت زرع خلال تلك السنين.. ذلك هو تأويل سبع البقرات السمان، التي يأكلهن سبع عجاف، وسبع السنبلات الخضر، وسبع السنبلات اليابسات.. كان يوسف يمكنه أن يقف عند هذا الحد من تأويل الرؤيا.. ولكن هذا التأويل يصبح عديم الجدوى، إذا لم يقم من ورائه التدبير المحكم المناسب له ... ولهذا، فإنه دعا إلي الجد في زراعة الحبوب، خلال السنوات السبع المقبلة، وأن ما يحصد من هذا

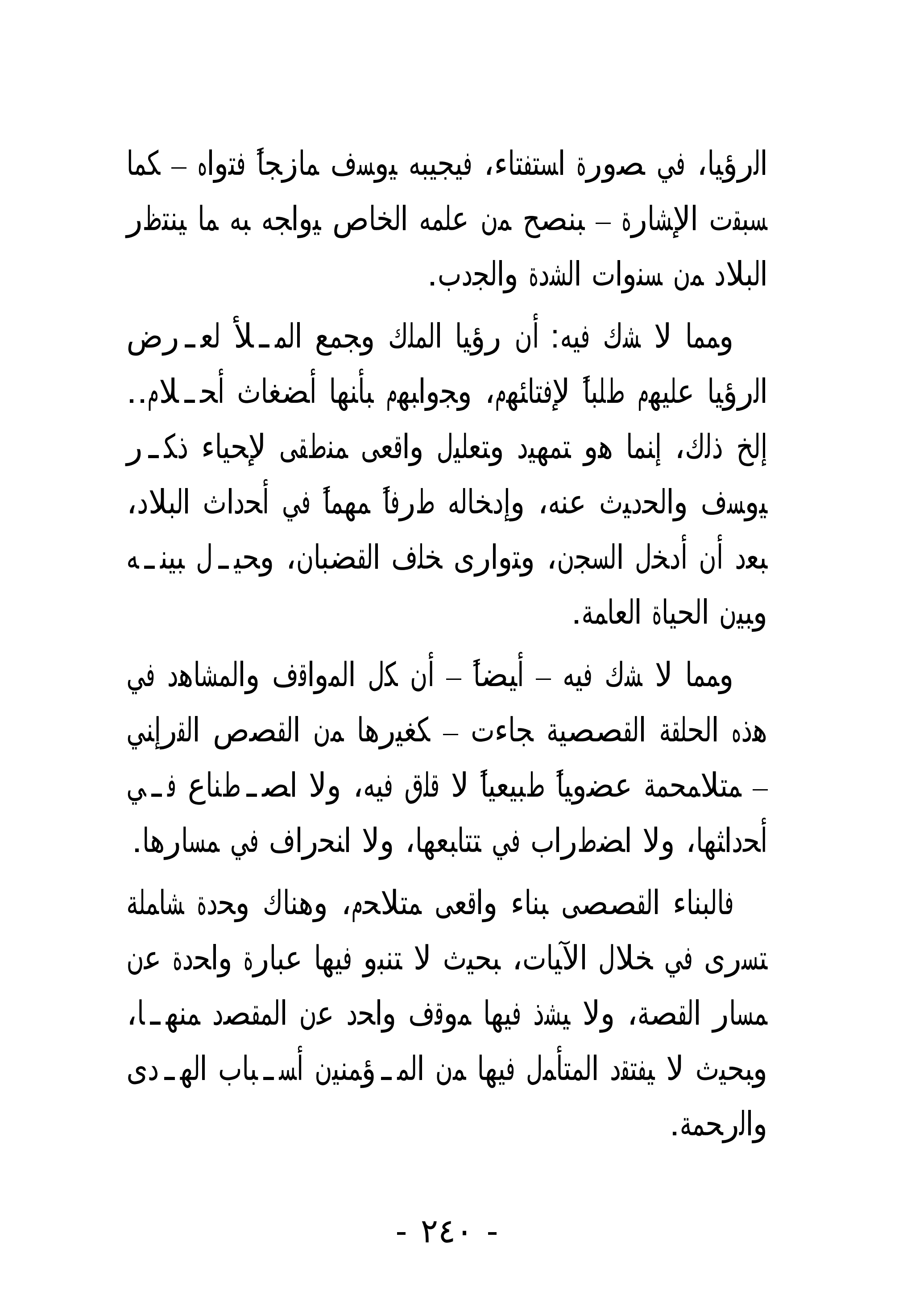
الزرع يترك في سنابله، حتى لا يصيبه سـوس أو عطـن. ويكون ذلك كله مدخراً للسنوات المجدبة المقبلة بعد هذا، ولا يخرج منه إلا ما يحتاج إليه الناس لطعامهم، على أن يكـون ذلك في حدود الاعتدال والقصد الذي يبلغ حد التقتير ... ثـم لم يقف يوسف عند هذا؛ وإنما كشف للقوم عمـا وراء هـذه السنين العجاف ... فبشرهم بأن العام الذي يلى تلك السـنين سيكون عام خصب وخير كثير، يجيئهم فيه الغيث والغـوث معاً، وفيه يعصرون عنباً، مما يفيض من أكلهم.. وتلك أمارة من أمارات الخصب والوفر.

ويسترعى الانتباه في هذه الآيات: أنها تصور لنا قصـة رؤيا ملك مصر، وتفسير سيدنا يوسف لهذه الرؤيا.. وهـى رؤيا سبعية في كل ملمح من ملامحها ... ولقد بلغ القـرآن الكريم قمة الإعجاز في النظم، حين سرد هذه الرؤيا السبعية في سبع آيات، فكان هنـاك توافـق سـبعى بـين الشـكل والمضمون في النص، فتبارك ا رب العالمين!

ويسترعى انتباهنا أن هذه الحلقة – كغيرها مـن حلقـات القصة – تقوم على مواقف وأحداث قصصـية متطـورة، لا على وصف جامد، ولا تصوير متقطع، ولا سرد متراكم ...

فكل مشهد من المشاهد في الحلقة يتحرك بنا ليصلنا بالمشهد التإلي ... وهكذا ... دون تـزاحم حـدثى، أو انقطـاع، أو جمود.

وكل مشهد يؤدى دوره في نمو الأحداث، وتطور المواقف منذ رأي الملك الرؤيا، إلي أن عاد ساقيه إليه بتأويلهـا مـن عند يوسف عليه السلام ... فهذه الحلقة تشتمل على خمسـة مواقف أو مشاهد متتابعة ... نسمع الملك في المشـهد الأول معلناً على الملأ من حاشيته ما رأي في نومه طالبـاً مـنهم تأويل ما رأي ... وفي المشهد الثإني نسمع صوت الملأ من الحاشية والكهنة والعلماء والوزراء والأعيان يحـول الملـك عن طلب التأويل لعجزهم عن ذلك، أو لحرصهم على إخفاء ما يزعج عن الملك، كما هو شأن أمثالهم.. وفـي الموقـف الثالث نواجه بالساقى الذي تنبأ له يوسف بالنجاة في السجن، وطواه النسيان، وطوى ما حمله يوسف في السجن؛ إذ ذكرته رؤيا الملك بيوسف بعد مدة من الزمن، فقال للملك وملئـه: إني أعرف من يؤول هذه الرؤيا، فـاتركونى أذهـب إليـه، ولسوف أعود إليكم بتأويلها.. ويطالعنا المشهد الرابع – مـن السجن – في حوار بين يوسف وساقى الملك يسـأله تأويـل


الرؤيا، في صورة استفتاء، فيجيبه يوسف مازجاً فتواه – كما سبقت الإشارة – بنصح من علمه الخاص يواجه به ما ينتظر البلاد من سنوات الشدة والجدب.

ومما لا شك فيه: أن رؤيا الملك وجمع المـلأ لعـرض الرؤيا عليهم طلباً لإفتائهم، وجوابهم بأنها أضغاث أحـلام.. إلخ ذلك، إنما هو تمهيد وتعليل واقعى منطقى لإحياء ذكـر يوسف والحديث عنه، وإدخاله طرفاً مهماً في أحداث البلاد، بعد أن أدخل السجن، وتوارى خلف القضبان، وحيـل بينـه وبين الحياة العامة.

ومما لا شك فيه – أيضاً – أن كل المواقف والمشاهد في هذه الحلقة القصصية جاءت – كغيرها من القصص القرإني – متلاحمة عضوياً طبيعياً لا قلق فيه، ولا اصـطناع فـي أحداثها، ولا اضطراب في تتابعها، ولا انحراف في مسارها.

فالبناء القصصى بناء واقعى متلاحم، وهناك وحدة شاملة تسرى في خلال الآيات، بحيث لا تنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة، ولا يشذ فيها موقف واحد عن المقصد منهـا، وبحيث لا يفتقد المتأمل فيها من المـؤمنين أسـباب الهـدى والرحمة.

والمتأمل في بناء هذه الحلقة القصصية من حلقات قصـة يوسف في القرآن الكريم، يجـد أن الـتلاؤم بـين أحـداثها ومواقفها، ويبين محورها ليس هو مظهر الإحكام والـتلاحم والتناسق في البناء القصصى فحسب؛ بل يجد أن من ذلك – كذلك – التلاؤم بين الأحداث والمواقـف وبـين العبـارات البيانية، فالعبارة القرآنية – في لغة هذه الحلقـة – تـؤدى – كغيرها – في ذلك المجال دوراً مهماً، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها، فهى بمعناها وإيحاءاتها وظلالهـا كيـان حى في جسم القصة النابض ....

نلمس ذلك في قوله تعإلي – على لسان الملك – **(إني أرى سبع بقرات سمان ... إلـخ)**، حيـث اسـتبدل المضـارع بالماضى، مع أن السياق يستدعى التعبير بالماضى، فالرؤيـا وقعت، والملك إنما يطلب أن يفتى في تأويل ما رأي، فكـان التعبير المناسب: **(وقال الملك، إني رأيت.. إلخ)** ولكن مـع النظر والتأمل نتبين أن المضارع (أرى) للإيمـاء إلـي أن الرؤيا التي رآها الملك لم تقع مرة واحدة، وإنما هى تتكـرر وتتجدد كلما أوى إلي فراشه، حتى أصبحت كالعادة؛ فالرؤيا يتكرر وقوعها، وبالتإلي لا يعبر عن هذا الحدث الواقع بهذه

الصورة إلا المضارع المفيد للتجدد والتكرر ... ومما لا شك فيه: أن تكرر الرؤيا هو الذي يثير الرائـى، ويـدعوه إلـي الحديث في شأن ما يرى، والبحث عن تأويله، أما الرؤيا التي تحدث مرة واحدة، دون تكرر، فليس فيها ما يثير وينبه إلـي البحث وراء مضمونها. فلو أن ما رآه الملك لم يكـن علـى سبيل التكرار لما أقلقه، ولما كان هناك داع إلي استفتاء الملأ ثم يوسف بتأويل ما رأي.. إذن فالتعبير بالمضارع مقصـود لما يشير إليه من استحضار الصورة، ولا يصـح أن يكـون الماضى في مكانه.. وهكذا الأمر في قوله: **(يـأكلهن سـبع عجاف)**، حيث عبـر بالمضـارع – أيضـاً – لاستحضـار الصورة تعجباً.

ونلمس الدور الذي تؤديه العبارة القرآنية أيضاً في قـول الملك: **(يا أيها الملأ.. الخ)**؛ فالملأ حوله، والنداء إليهم يكفي فيه الإشارة، وليس محتاجاً إلي **(يا)** التي ينادى بها البعيد أو من هو في منزلته، فقد كان يكفي الملك أن يقول: **(أيها الملأ أفتونى..)**، ولا مكان في الآية إلي حرف النداء **(يا)**؛ ولكـن مع التأمل، واستحضار حال الملك الذي كان عليه ساعة نادى الملأ، يتضح أن الملك لم يكن في حالة طبيعيـة أمـام تلـك

الرؤيا المتكررة، بما تحمله من تناقضات مثيرة، وإنما هـو مضطرب فزع، حائر زائغ البصر، يبحث عما تعنـى تلـك الرؤيا المتكررة هنا وهناك، ويرغب كل الرغبة في كشـف سرها، والتعرف على ما ترمز إليه.. أي إن الملك كان يمر بحالة نفسية أخرجته من أبهة الملك، وجردته مـن عظمـة السلطان، وجعلت منه إنساناً عادياً بما يقوم عليه من طبـائع وغرائز؛ فلم يكن له بد من الاستغاثة الصارخة بمن حولـه، فتوسل في ندائهم بالأداة التي ينادى بها البعيد؛ ليس لبعـدهم عنه، وإنما تعبيراً عن شدة حاجته إليهم، وتلهفه عليهم.

كذلك نلمس الدور المهم للعبارة القرآنية في قول الملـك: **(إن كنتم للرؤيا تعبرون)**؛ فإن العبارة بهذا النسـق المبـدوء بـ-**(إن)** التي تفيد الشك، تدل دلالة واضحة على أن الملأ لم يكونوا – في علم الملك – عالمين بتأويل رؤياه، وقـد جـاء اعترافهم بالقصور عن التأويل مطابقاً لشك الملك في ذلـك، ودلل على ذلك الشـك – أيضـاً – قـول الفتـى السـاقى: **(أنا أنبئكم بتأويله ....)** إلي قوله: **(لعلى أرجع إلي النـاس لعلهم يعلمون)**.

ونلمس ذلك – أيضاً – في قول الساقى **(يوسف أيها الصديق أفتنا)**، ولم يقل – مثلاً-: **(يوسف أيها الصادق افتنى)**، أو **(يوسف أفتنى)**، فإن العبارة بالشكل الذي جاءت عليه تدل على أن الساقى لم يصف يوسف بالبليغ في الصدق إلا لأنه ذاق أحواله، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، حيث جاء الأمر كما أول يوسف، وفضلاً عن هذا فإن قوله: **(يوسف أيها الصديق)** من براعة الاستهلال، وفيه إشارة إلي أنه ينبغى على المستفتى أن يرفع من قدر من يستفتيه، وأن يحسن الأدب في التحدث معه.

وقوله **(أفتنا)** – بصيغة الجمع – مع أنه المستفتى وحده، يشعر – بدون شك – أن الرؤيا ليست له، بل لغيره، وأنه في ذلك مجرد سفير بين الملك ويوسف عليه السلام.

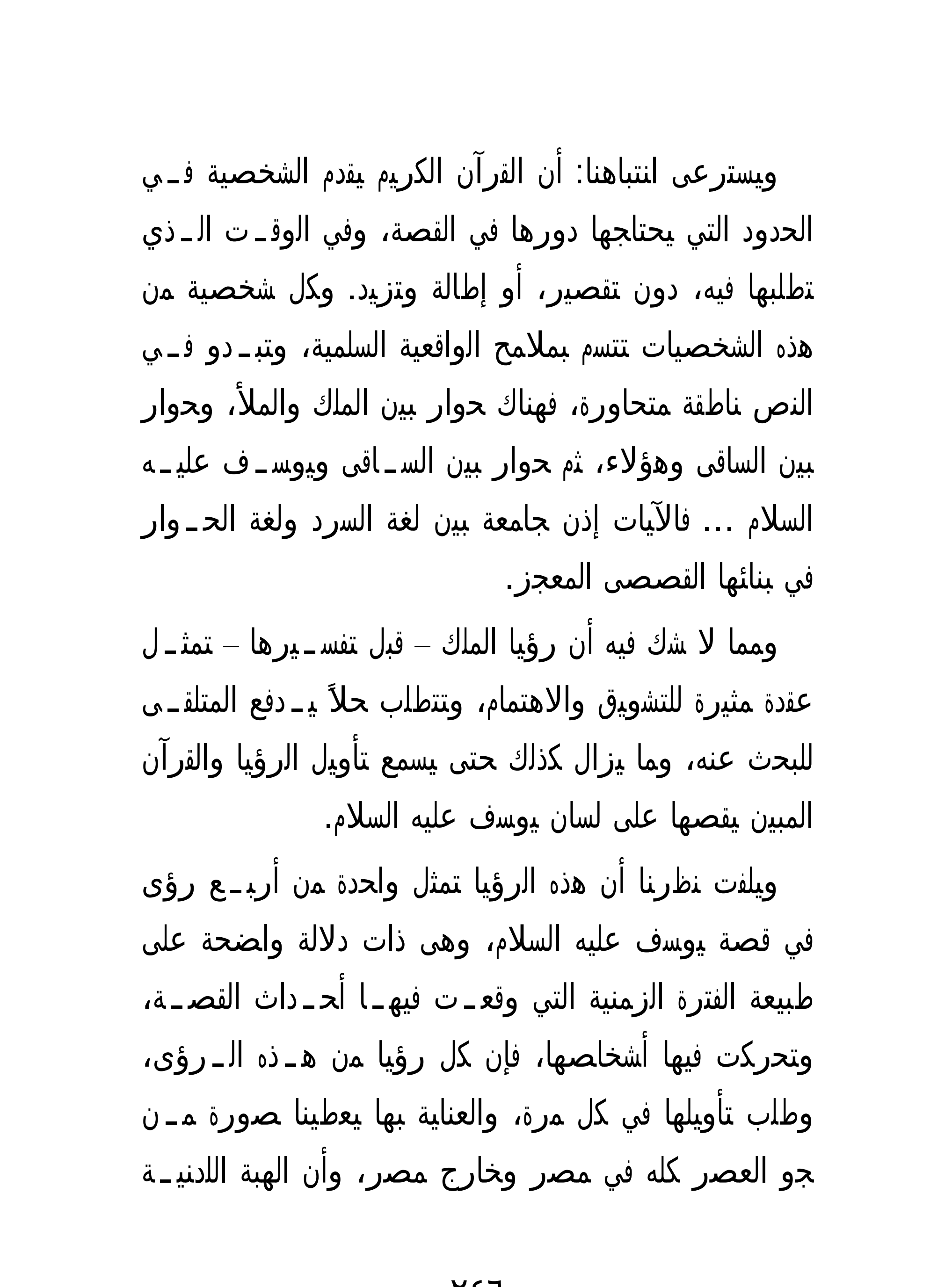
ونلمس الدور المهم الذي يلعبه التعبير في البناء القصصى القرإني حين ننظر – أيضاً – إلي قول الساقى: **(لعلى أرجع إلي الناس لعلهم يعلمون)**، فإن تصدير هذا التعبير ب-**(لعل)** يشعر بأن الساقى لم يكن على يقين من الرجوع، فربما مات دون ذلك، ولا من علمهم فربما علموا، أو لأنه رأي عجز

سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة، فخاف أن يعجز هـو أيضاً عنه.

ولنمس ذلك – أيضاً – في قوله: **(قال: تزرعـون سـبع سنين دأباً)** فإن مقصود يوسف الأمر ولـيس الإخبـار، أي **(ازرعوا سبع سنين متتابعة كعادتكم في المزارعة)**، وإنمـا أخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاد المأمور به، فجعله كأنه وجد، فهو يخبر عنه، والدليل على كونه مراداً به الأمر قوله بعد ذلك: **(فذروه في سنبله)**.

وهكذا يتضح لنا من كل هذه الشواهد وغيرها مما سـبق ذكره أن العبارة القرآنية أدت دوراً مهماً في البناء القصصى، وأن هناك تلاؤماً قوياً بينها وبين المشاهد والمواقف في هذه الحلقة القصصية من حلقات قصة سيدنا يوسف في القـرآن الكريم.

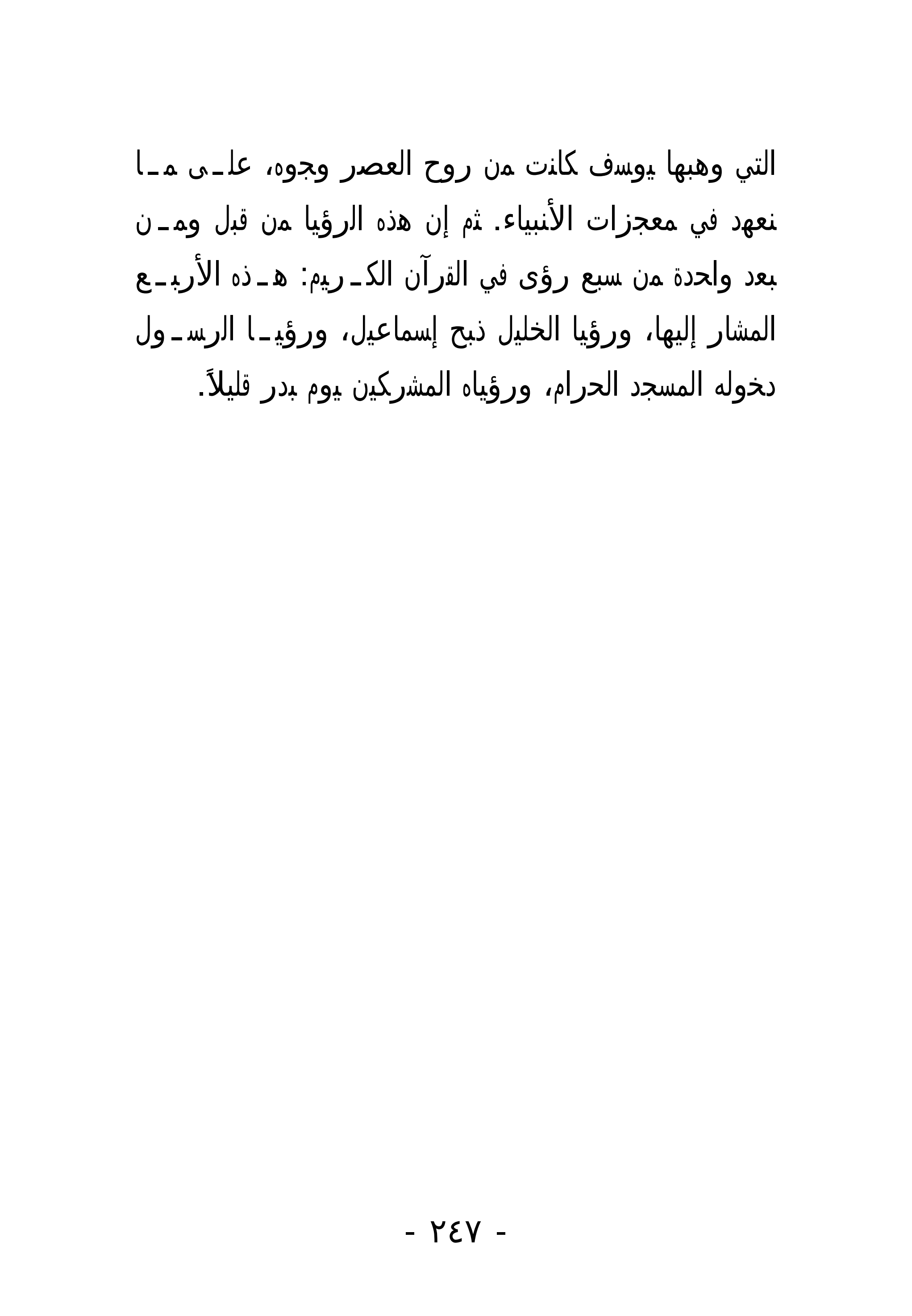
أما الأشخاص في هذه الحلقة فيتمثلون في البطل **(يوسف عليه السلام)** والملك صاحب الرؤيا، والمـلأ مـن العلمـاء والوزراء والأعيان والحاشية، ثم ساقى الملك ... ولم يـذكر أحد من كل هؤلاء باسمه إلا البطل.. وهذا معلم من معـالم المنهج القصصى القرإني في ذكر الأشخاص.



ويسترعى انتباهنا: أن القرآن الكريم يقدم الشخصية في الحدود التي يحتاجها دورها في القصة، وفي الوقت الذي تطلبها فيه، دون تقصير، أو إطالة وتزيد. وكل شخصية من هذه الشخصيات تتسم بملامح الواقعية السلمية، وتبدو في النص ناطقة متحاورة، فهناك حوار بين الملك والملأ، وحوار بين الساقى وهؤلاء، ثم حوار بين الساقى ويوسف عليه السلام ... فالآيات إذن جامعة بين لغة السرد ولغة الحوار في بنائها القصصى المعجز.

ومما لا شك فيه أن رؤيا الملك – قبل تفسيرها – تمثل عقدة مثيرة للتشويق والاهتمام، وتتطلب حلاً يدفع المتلقى للبحث عنه، وما يزال كذلك حتى يسمع تأويل الرؤيا والقرآن المبين يقصها على لسان يوسف عليه السلام.

ويلفت نظرنا أن هذه الرؤيا تمثل واحدة من أربع رؤى في قصة يوسف عليه السلام، وهى ذات دلالة واضحة على طبيعة الفترة الزمنية التي وقعت فيها أحداث القصة، وتحركت فيها أشخاصها، فإن كل رؤيا من هذه الرؤى، وطلب تأويلها في كل مرة، والعناية بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر، وأن الهبة اللدنية



التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء. ثم إن هذه الرؤيا من قبل ومن بعد واحدة من سبع رؤى في القرآن الكريم: هذه الأربع المشار إليها، ورؤيا الخليل ذبح إسماعيل، ورؤيا الرسول دخوله المسجد الحرام، ورؤياه المشركين يوم بدر قليلاً.

روعة التكرار اللفظى وأسراره
في القرآن الكريم

من الجوانب التي تلفت النظر، وتسترعى الانتباه: ما نراه في النظم القرإني المعجز من تكرار لفظى لبعض الألفاظ، أو الجمل[1] لغرض التأكيد. كقوله تعالي: ﴿ **كلا إذا دكتْ الأرض دكا دكا، وجاء ربك والملك صفا صفا**﴾ [2]. وقوله سـبحانه: ﴿**الحاقةُ، ما الحاقةُ، وما أدراك ما الحاقةُ**﴾ [3]، وقوله تعالي: ﴿**القارعةُ، ما القارعةُ، وما أدراك ما القارعةُ**﴾ [4]، وقولـه تعالي: ﴿ **إنا أنزلناه في ليلةِ القدر، ومـا أدراك مـا ليلـةُ القدر،ليلةُ القدر خير من ألفِ شهرِ**﴾ [5]، وقولـه تعـإلي:﴿

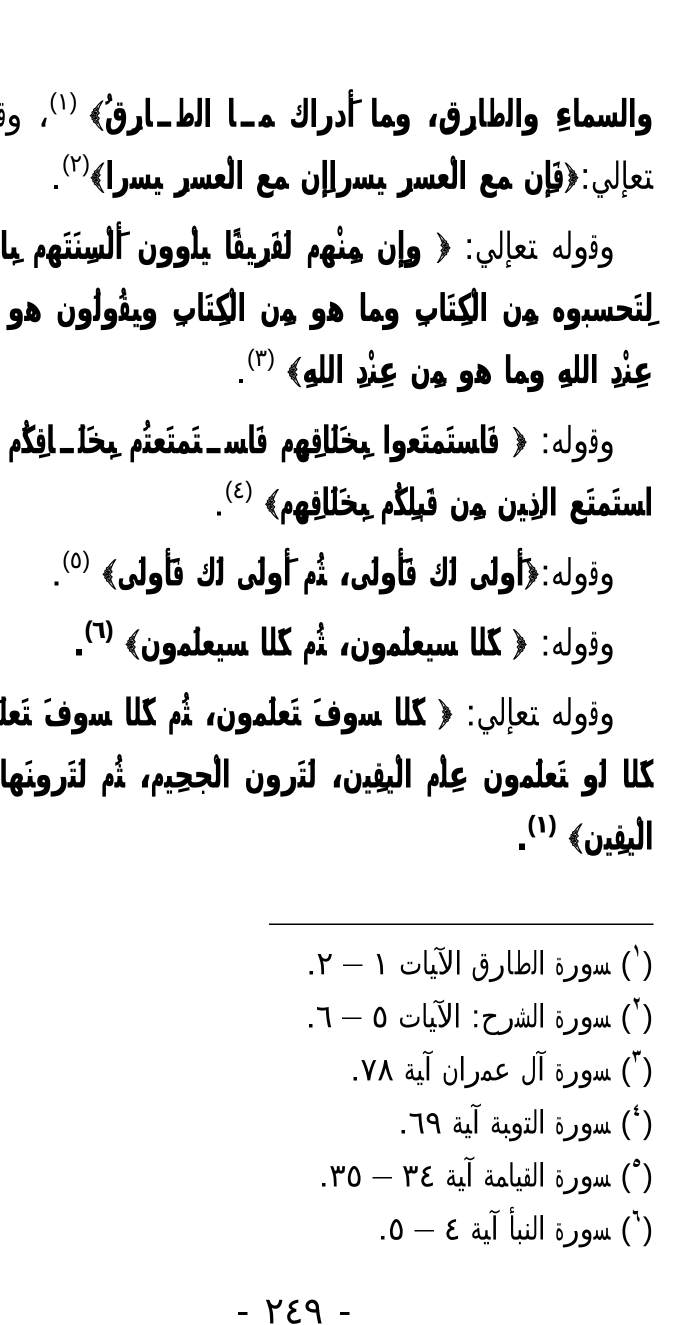
([1]) لم أذكر – هنا – ما يسميه الناس (تكرير الأحداث كالقصص القرآنية ونحوها)؛ لإني لا أسميه تكراراً كما يسمونه، وإنما أسميه (التكامل القصصى في القرآن الكريم).

([2]) سورة الفجر آية ٢٢.

([3]) سورة الحاقة آيات ١ – ٣.

([4]) سورة الواقعة الآيات ١ – ٣.

([5]) سورة القدر الآيات ١ – ٣.



والسماءِ والطارق، وما أدراك مـا الطـارقُ﴾ [1]، وقولـه تعالي:﴿**فإن مع العسر يسراإن مع العسر يسرا**﴾[2].

وقوله تعالي: ﴿ **وإن مِنْهم لفَريقًا يلْوون ألْسِنَتَهم بِالْكِتَابِ لِتَحسبوه مِن الْكِتَابِ وما هو مِن الْكِتَابِ ويقُولُون هو مِـن عِنْدِ اللهِ وما هو مِن عِنْدِ اللهِ**﴾ [3].

وقوله: ﴿ **فَاستَمتَعوا بِخَلَاقِهم فَاسـتَمتَعتُم بِخَلَـاقِكُم كمـا استَمتَع الذِين مِن قَبلِكُم بِخَلَاقِهم**﴾ [4].

وقوله:﴿**أولى لك فأولى، ثُم أولى لك فأولى**﴾ [5].

وقوله: ﴿ **كلا سيعلمون، ثُم كلا سيعلمون**﴾ **[6].**

وقوله تعالي: ﴿ **كلا سوفَ تَعلمون، ثُم كلا سوفَ تَعلمون، كلا لو تَعلمون عِلْم الْيقِين، لتَرون الْجحِيم، ثُم لتَرونَها عين الْيقِين**﴾ **[1].**

---

(١) سورة الطارق الآيات ١ – ٢.

(٢) سورة الشرح: الآيات ٥ – ٦.

(٣) سورة آل عمران آية ٧٨.

(٤) سورة التوبة آية ٦٩.

(٥) سورة القيامة آية ٣٤ – ٣٥.

(٦) سورة النبأ آية ٤ – ٥.

وهذا الضرب من التكرار اللفظى، يقع على نحو مـألوف للأذن، على ما جرت به الأساليب البيانية في لغـة العـرب، حيث يعاد اللفظ أو الجملة لأهميتهمـا، وإظهـار الغـرض، وتأكيد المعنى وتثبيته في ذهن السامع.

وهناك ضرب من التكرار اللفظى جاء في القرآن الكـريم أيضاً على صورة غير مألوفة، فيبدو واضحاً أن له مقصـداً أكبر من مسألة التوكيد؛ إذ يمتد، ويطول في سلسـلة تنـتظم السورة كلها، وتأخذ بها من جميع أطرافها، على شاكلة مـا نراه في سورة الرحمن، من تكرار قوله تعالي: ﴿ **فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان**﴾ إحدى وثلاثين مرة، وكان هذا المقطـع آيـة مستقلة من بين آيات السورة، التي تبلغ ثمانياً وسبعين آيـة، وهو يمثل الآيات ذوات الأرقـام: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧.

وفي سورة الشعراء تكرر قوله تعالي: ﴿ **إِن فِي ذَلِك لَآيةً وما كَان أَكْثَرهم مؤْمِنين، وإِن ربك لَهو الْعزيـز الـرحِيم**﴾

([1]) سورة التكاثر الآيات ٣ – ٧.

ثماني مرات، تمثله الآيات ذوات الأرقام: ٨، ٩ + ٦٧، ٦٨ + ١٠٣، ١٠٤، ١٣١، ١٣٢ + ١٣٩، ١٤٠ + ١٥٨، ١٥٩ + ١٧٤، ١٧٥ + ١٩٠، ١٩١.

وفي سورة المرسلات: تكرر قوله تعالي: ﴿ **ويلٌ يومئـذٍ لِلْمكذبين**﴾ عشر مرات، وبصورة واحـدة، دون تحـوير أو تبديل فيها، واعتبر هذا المقطع آية بذاتها مـن بـين آيـات السورة، وهى خمسون آية، وتمثله الآيـات ذوات الأرقـام: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

وفي سورة القمر: تكرر قوله تعـالي: ﴿ **ولقَـد يسـرنَا الْقُرآن لِلذكْرِ فَهلْ مِن مدكِرٍ**﴾ أربع مرات: **(الآيـات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)**، وتكرر قوله تعالي: ﴿ **فَكَيفَ كَـان عـذَابِي ونُذُرِ**﴾ أربع مرات **(الآيات: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠)** وتكـرر قوله تعالي: ﴿ **فَذُوقُوا عذَابِي ونُذُرِ**﴾ مـرتين **(الآيتـان ٣٧، ٣٩)** وتكررت كلمة النذر عشر مرات **(الآيـات: ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤١)**.

وفي سورة **(الكافرون)** تكـررت مقـاطع خاصـة هـى ﴿**لَا أَعبد ما تَعبدون، ولَا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد، ولَا أَنَا عابِد ما عبدتم، ولَا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد**﴾الآيات: ٢–٥.

إن هذا التكرار اللفظى الذي جاء في كتاب ا عزوجـل نظر إليه بعض المستشرقين من أمثال ذلك المستشرق الـذي كتب مادة **(قصة)** فيما يسمى ب-**(دائرة المعارف الإسلامية)** نظراً مقلوباً، فزعم أنه خالٍ من المهارة الأدبية، وليس علـى المستوى الرفيع من أساليب البلاغة، وأنه أثـر مـن آثـار الأحوال النفسية التي كانت تنتاب محمداً، فتخرج بـه عـن وعيه! فأدخل بهذا التكـرار المتتـابع الاضـطراب علـى الأسلوب، وجعله ثقيلاً على اللسان والسمع معاً!! هكذا زعم المستشرقون الحاقدون الجاهلون بأسـرار اللغـة العربيـة، وروعة النظم القرإني، ومما يؤسـى لـه أن جماعـة مـن المستغربين العرب، تابعوهم في هذا الادعاء، فخاضوا فـي كتاب ا ، وتخرصوا على نظمه، وعميت قلوبهم وبصائرهم، فلم تر في هذا التكرار المعجـز إلا اخـتلالاً فـي الـنظم، واضطراباً في الأسلوب، وإطنابـاً فـي القـول لا يفيـد!! **﴿كَبرتْ كَلِمةً تَخْرج مِن أَفْواهِهم إِن يقُولُون إِلا كَذِبا﴾** [1] وما افتراءات هؤلاء الكـذابين إلا رميـات طائشـة، وأحكـام

---

(١) سورة الكهف آية ٥.

منقوضة، لم تصدر عن رأي وفهم ولم تجئ من جهة لها في هذا الأمر قدم، أو لها فيه وزن وحساب!

إن الذين يقولون مثل هذا القول، أو يحكونه عن غيـرهم، هم أعاجم، أو أشباه أعاجم، لم يذوقوا البلاغة العربية، ولـم يتصلوا بأسرارها ... ولو أنهم رزقوا شيئاً مـن هـذا، لمـا طاوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظـيم، ولـردهم الحياء أن يقولوا قولاً لم يقع في حساب"**قريش**"وهى تتصـيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم. حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقالته فيه، ورمته به.. ولكـن الزور نفسه أعياها أن تمسك به في وجه هذا الحق المشرق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما، فكيف يساغ هذا القـول مـن أعاجم أو شبه أعاجم؟ إن ذلك هو الضلال البعيد[١].

إن هذا التكرار اللفظى الذي جاء فـي كـلام ا الحـق إعجاز قائم بذاته إلي إعجاز القرآن الكريم كلـه آيـة آيـة

---

(١) القرآن: نظمه، جمعه، ترتيبه، عبد الكريم الخطيب: ص ١١٢ ط دار الفكر العربى (بدون تاريخ).

وسورة سورة، لم يأت متكلفاً، ولا صدر عن عجز عن تناول اللفظ الذي يصلح للمعنى المراد، وإنما جاء ليخـدم المعنـى ويثبته ويقويه. وكاذب من يدعى أنه يخل بتسـاوق الـنظم، ويحدث اضطراباً في الأسلوب، ويخلو من المهارة الأدبية.

إن هذا التكرار وجه جديد من وجوه البلاغة، ومعلم بارز من معالم الجمال، لم ينطق به قبل كتاب ا الحـق لسـان، فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة، على هـذا الوجـه البليـغ المعجز الرائع الذي جاء به القرآن الكريم.

إنه مذهب من القول لم يكن في مقدور العرب أن يرقـوا إليه، وضرب من البلاغة حاوله البلغاء فوقفوا دونه ... فلما جاء به القرآن على هذا الوجه، رأوا فيه وجه الإعجاز سافراً ... فخشعوا له، وخروا ساجدين لجماله وجلالـه وكمالـه! وماذا يكون منهم غير الخشوع والسجود في هذا المقام؟ وإذا هم لم يخشعوا ويسجدوا لهذا الجلال، وهذا الإعجاز، فـلأي جلال وإعجاز يخشعون ويسجدون! لقد تحداهم القرآن بالنظم السمح السهل المألوف، فعجزوا عن مطاولته عجز استيئاس، واستسلام.. وتحداهم بالجزل الفخم من الـنظم، فأعيـاهم أن يرتقوا هذا المرتقى، وأن يطلعوا هذا المطلع.. وأقاموا علـى

ما هم فيه من يأس واستسلام. ونسج لهم نسجاً جمـع بـين السمح السهل، والفخم الجزل، فزادتهم تلك الصورة من النظم حيرة.. وحسرة! ثم لقيهم بهذا النظم الفريد العجيب.. فنسـج لهم من الآية الواحدة سورة.. يعيد فيهـا الآيـة ويكررهـا بلفظها.. شأن الألكن العاجز. تتكسـر الكلمـة علـى فمـه وتتكرر.. وإذا بهذا الكلام المكرر المعاد، هو الفصاحة كلها، حواها من أطرافها، وإذا هو الحسن كله، جمعه مـن جميـع وجوهه[1].

ذلك أن كل كلام يتكرر: يثقل، ويسمج، ويسقط!

أما التكرار الذي وقع في القرآن، فإنه كان في المواضـع التي جاء فيها نغماً جديداً من أنغام الحسن الرائع.. أضـيف إلي تلك الأنغام السارية في القرآن كله، فازداد بـه روعـة وقوة وتأثيرا.

إن تكرار الألفاظ والأساليب ضرب بارز مـن ضـروب البيان الرفيع في القرآن الكريم، وهو ظاهرة زادت القـرآن الكريم جمالاً، وأشار الحق سبحانه إلي أنه ﴿ **نَـزلَ أَحسـن**

([1]) السابق: ص ١٢٥."بتصرف يسير".

الْحدِيثِ كِتَابا متَشَابِها مثَانِي﴾ [(١)]، أي"**مردداً ومكرراً لماثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامـره ونواهيـه ووعـده ووعيده ومواعظه**"[(٢)].

صحيح أن التكرار ظاهرة لا تخلو منها أساليب الخطـاب في اللغة العربية إلا أن القرآن سلك بها طريقاً غير مـألوف عند العرب، ونحى بها مناحى متعددة جـاءت علـى غيـر مقاييس اللغة، وحملت في سياقها نبضات تثير كوامن النفس، وتلمس حبات القلوب، وتلك معجزة أسلوبية اسـتقل القـرآن بها.

---

(١) بعض من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

(٢) الكشاف للزمخشرى: ٣/ ٣٩٥ ط دار المعرفة بيروت – وما ذكرناه هو أحد معاني (مثاني) في الآية. إذ تفسر أيضاً بأنها جمع مثنى، ووصف القرآن بأنه مثاني؛ لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل، كما جاء في وصفه (لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد. وتفسير مثاني جمع مثنى بمعنى التكرير والإعادة الذي ذكرناه يشبه قوله تعالي: (ثم ارجع البصر كرتين) أي كرة بعد كرة، ويشبه قولك: لبيك وسعديك وحنانيك) السابق والصفحة نفسها.

وأسلوب التكرار في القرآن أسلوب جدير باللفت والانتباه، لأنه من ألوان التمكين لخطاب الله تعإلي، يعمل على تعميـق المعنى المقصود في أذهان الناس.

"**وهو أسلوب بارع يبدو دائماً في حلـل بيانيـة تظهـر المعنى وتؤكده. بيد أن الأدباء أنفسـهم تنـاولوه بحـرص وبحذر شديدين – عنـد اسـتعماله – خوفـاً مـن وقـوع الاضطراب والفساد في صناعة الأسلوب؛ فإن التكـرار لـو وقع في كلام الناس قد ينزل به عن درجة البلاغة، ويخـل بمقتضيات الفصاحة، ويكتنف الكلام برودة وسماجة، ممـا يؤدى إلي تأبى النفس أحياناً في قبوله أما في القرآن الكريم فنجد فيه بلاغة الإطناب، وبيان الإشباع الذي يملأ الـنفس، ويأتى في تجاوب واتساق وائتلاف**"[1] ومن ثم كان التكـرار في القرآن الكريم معلماً من معالم الجمال التعبيرى فيه، وإلي هذا أشار بدر الدين الزركشى بقوله:

"**غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظنـاً أنـه لا فائدة فيه؛ وليس كذلك؛ بل هو من محاسنها، لا سـيما إذا**

---

(1) من علوم القرآن ما يعين على فهمه د/ السيد عبد الغفار ص ١٩٧، ١٩٨.

تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتهـا إذا أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضـهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجـزهم عن المعارضة. وعلى ذلك يحتمـل مـا ورد مـن تكـرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبـائع المختلفة، وكلها داعية إلي الشهوات، ولا يقمـع ذلـك إلا تكرار المواعظ والقوارع، قال تعإلي: ﴿ ولَقَد يسرنَا الْقُرآن لِلذكْرِ فَهلْ مِن مدكِرٍ﴾ أي سهلناه للادكـار والاتعـاظ بـأن نسجناه بـالمواعظ الشـافية وصـرفنا فيـه مـن الوعـد والوعيد"[1].

ويقول"ابن الأثير":"وبالجملة فأعلم أنه ليس في القـرآن مكرر لا فائدة في تكريره؛ فإن رأيت شيئاً منه تكـرر مـن

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ٩ ط دار التراث بالقاهرة.

حيث الظاهر؛ فانعم نظرك فيه؛ فانظر سـوابقه ولواحقـه؛ لتنكشف لك الفائدة منه"[1].

ومما لا شك فيه أن الفائدة العظمى للتكرار: هى التقرير، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر.

ولقد تحدث المفسرون أيضا عن فائدة التثنيـة والتكريـر للألفاظ والأساليب في القرآن الكـريم، فقـال الزمخشـرى: "**النفوس أنفر شئ عن حديث الوعظ والنصيحة، فمـا لـم يكرر عليها عوداً من بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عملـه، ومن ثم كانت عادة رسول ا ﷺ أن يكرر عليهم ما كـان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً، ليركزه فـي قلـوبهم، ويغرسه في صدورهم"**[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: إن التكرار الـذي وقـع فـي القرآن الكريم مع صرف النظر عما فيه من تهـذيب نفسـى وخلقى، هو في ألفاظه – مجردة عن المعاني الكريمة التـي

([1]) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣/ ٨ ط النهضة بالقاهرة ١٩٦٢.

([2]) الكشاف: ٣/ ٣٩٥ ط دار المعرفة بيروت.

فيه – نغم موسيقى متناسق، متساوق، يلـذ السـمع، ويهـز القلب، وينعش الروح.

إن داعية التكرار في القرآن قائمة في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحيـاة الروحيـة والنفسـية، فتقتضى الحال أن يقال هذا الموقف بمـا ينبغـى لـه مـن الحضور النفسى والعقلى، وهذا لا يكون إلا بالتنبيـه لهـذا الموقف، والدعوة له، والهتاف به ... والتكرار – كما قلنا – أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه ... نجـده فـي الأذان حيث يدعى الناس إلي أهم أمر من أمور الإسلام، والصلاة، فيؤذن فيهم مؤذن الحى: حى على الصلاة ... حـى علـى الصلاة ... حى على الفلاح ... حى على الفلاح! [1].

كذلك قال: أن القرآن لو أراد أن يعدل عن هذا الأسـلوب الذي أراد على تلك الصورة لوجد أكثر من اتجاه يتجه إليه، ليجئ باللفظ الذي يؤدى المعنى المراد، ولأقام السورة علـى نظم غير هذا النظم، ولأخرجها على نسق غير ذلك النسـق، مع احتفاظها بالمعنى المؤدى بها على صورتها التي جـاءت بها، سواء أكان ذلك في سورة الرحمن أم سورة المرسـلات

(١) القرآن، عبد الكريم الخطيب: ص ١٣٦.

أم في غيرهما من المواضع التي وقع فيها التكرار. ولكن هذا الأسلوب الذي جاءت عليه الألفاظ التي تكررت، كـان عـن قصد، وعن تدبير.. يبدو لنا منه – مايلى:

أولاً: إيقاظ المشاعر، وإلفات العقول بهذا الخروج علـى المألوف من الخطاب، وذلك لما يقتضيه الموقف، من يقظـة ووعى، وحذر من أن يفلت من بين يدى الإنسان ما ينبغى أن يلقى به هذا الموقف، من استعداد نفسى، وعقلى، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة ... ولو جاء عرض هـذا الموقـف بأسلوب مألوف، فلربما غفل عنه كثير من النـاس، ولربمـا التفت إليه من التفت منهم، بنفس فاترة، وعقل شارد! [1].

ثانياً: إن تفرد القرآن بهذا اللون مـن الأسـلوب.. مـع احتفاظه بمستواه الذي عرف له، من روعة النظم، وجمالـه، واتساق نغمه – هو شهادة قائمة تشهد للقرآن بالإعجاز.

فالمعروف عن التكرار أنه إذا وقع في كلام الناس نـزل بالكلام عن درجة البلاغة، وأخل بمقتضيات الفصاحة، وكسا الكلام برودة وسماجة.

---

(١) السابق: ص ١٣١.

ولم يقع التكرار في الأدب العربى إلا في ندرة، وفي الشعر خاصة ... لأن الوزن والقافية يعملان عملهما في تلطيف غثاثة التكرار، أو تخفيف ثقله ... أما إذا وقع التكرار في النثر – خطابة أو كتابة – فإنه يسقط الكلام، ويذهب به، فلا يحسب في الأدب، ولا يضاف إليه.

ومن عجيب أمر القرآن في هذا ... أنه جعل التكرار الذي جاء به في سورة الرحمن، وفي سورة القمر، وفي سورة المرسلات، آية مستقلة.. تعقيباً على آية سابقة، فكأنه بالنسبة للآية التي قبلها، المصراع الثاني للبيت من الشعر، أو الفاصلة في الآية! على حين أن الذي تكرر في الشعر كان يجئ دائماً صدراً للبيت، ومصراعاً أول له. وذلك لتخفي القافية هذا العيب الناجم عن التكرار.. ولو أن التكرار كان في الشطر الثاني من الأبيات التي وقع فيها التكرار لفسد النظام واضطرب ...

فانظر كيف جاء التكرار في القرآن متخيراً المواطن التي تجنبها العرب فراراً من الثقل، وخوفاً من السقوط.. فلم يجيئوا به في النثر، وجاءوا به في الشعر، وفي الشطر الأول من البيت!

وجاء القرآن بالتكرار في غير ثوب شعرى، وفي غير الصدر من الآية، فكان ذلك إعجازاً من القرآن، إذ قام في التأثير بما لم يقم به الشعر، كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته، فجاء أخف وقعاً، وألطف مدخلاً على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى ...

ثالثاً: أن هذا التكرار في ذاته يخدم غرضاً أصيلاً من أغراض الدعوة، وهو تثبيت القلوب على الحق، وإقامتها على الشريعة التي تحملها تلك الدعوة..

"فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة، ويمكن لها في كيان الإنسان، ويقيم منها خاطراً حلوا يتردد في صدره، ويهمس بها في ضميره ... وقد يعلو همسه حتى يكون صراخاً، أو هتافاً، أو دوياً"[1].

ولما كان التكرار ذا أثر قوى في مقام التذكير بـا ، وتوجيهنا إليه – كان الرسول الكريم إذا حدث بحديث أعاده على سامعيه ثلاث مرات.. كما روى ذلك البخارى وغيره من أصحاب الصحاح.

---

(1) السابق، ص ١٣٣، ١٤٣.

كذلك كان شأن النبى ﷺ مع نفسه ... فكان صلوات ا وسلامه عليه إذا أهمه أمر، لهج به، وحرك به لسانه، وألقى به على سمعه مرات كثيرة.

عن أبى ذر رضى ا عنه قال: قام رسول ا ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وهى:

"إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".

وكذلك كان يفعل صحابة رسول ا في المواقف التي يشعرون إزاءها بالرهبة والقهر.. فإذا حضرهم فيها من كلام ا شئ أمسكوا ليلة أو بعض ليلة، يرددونه على ألسنتهم.

فقد روى أن"**تميما الدارى**" رضى ا عنه، قام ليلة بالآية الكريمة: ﴿ **أَم حسِب الذِين اجتَرحوا السيئَاتِ أَن نَجعلَهم كَالذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ سواء محياهم ومماتُهم ساء ما يحكُمون**﴾ [1].

([1]) سورة الجاثية آية ٢١.

وروى أن سعيد بن جبير – رضى ا عنه – قـام ليلـة بالآية الكريمة: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [١]. أي قام الليلة كلها يردد تلاوتها.

وصفوة القول: أن التكرار اللفظى للكلمات والجمـل فـي القرآن الكريم وجه من وجوه الإعجاز فيه، ومعلم بارز مـن معالم الجمال في نظمه المحكم، وأسلوب من أساليب التمكين للدعوة الإسلامية، وترسيخ الأصول الأخلاقية التـي تـدعو إليها. على أنه يضفي على الموضع الذي يجـئ فيـه نغمـا موسيقى، يلذ السمع، ولا يثقل علـى اللسـان، وإن تكـرر عشرات المرات في صورة مفردة.

وفي الصفحات التالية وقفات خاصة أمام جملة من روائع القرآن الكريم في هذا المجال ... مجـال التكـرار اللفظـى للألفاظ والجمل.

روائع من التكرار اللفظى المنتظم للسورة كلها

في صورة لفظة مفردة يمكن تقسيم التكرار اللفظى الـذي يمتد، ويطول في سلسلة تنتظم السورة القرآنية كلها وتأخـذ

---

(١) سورة يس الآية ٥٩.

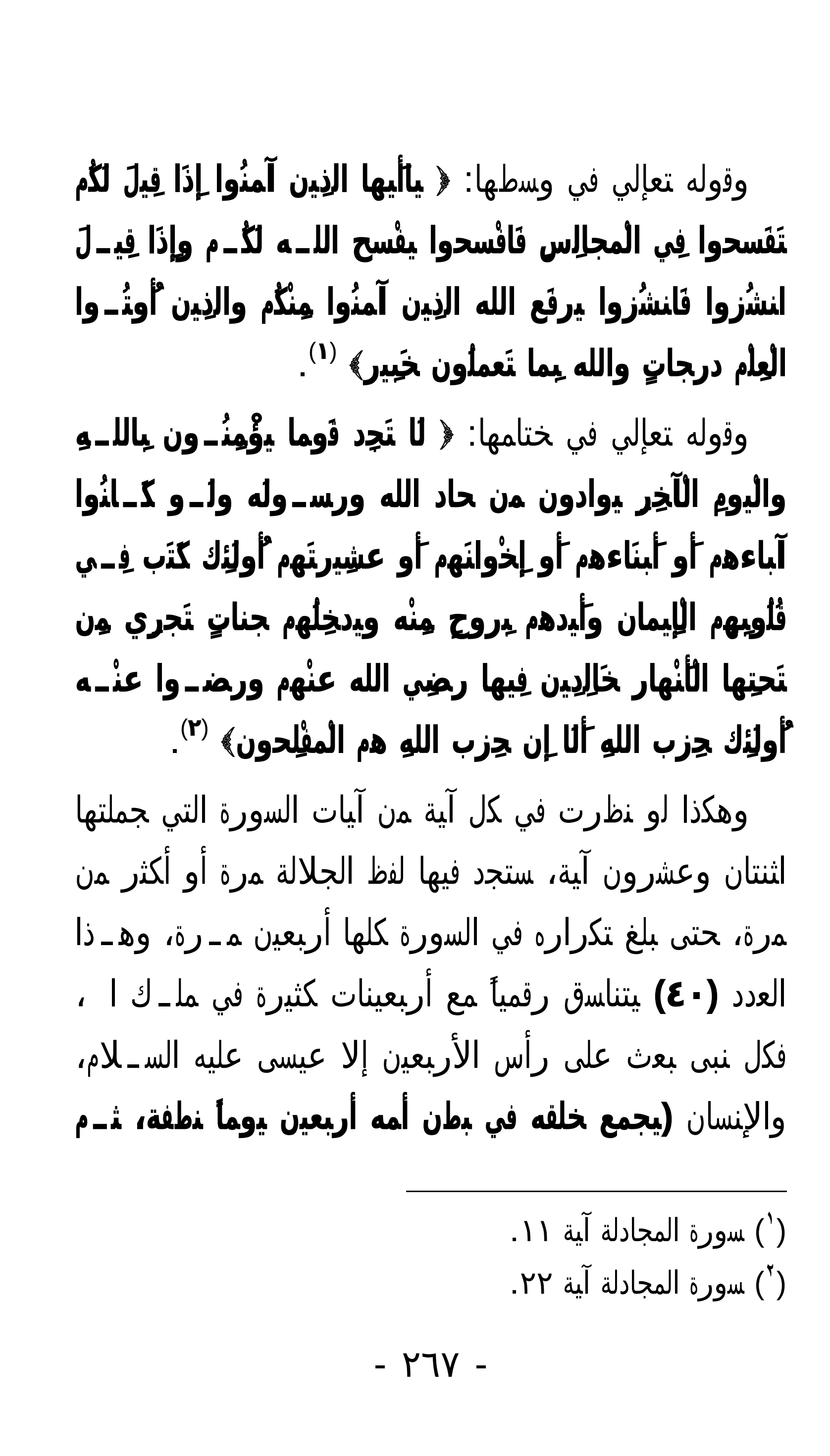
بها من جميع أطرافها، لمقاصد أكبر من مقصد التوكيد إلـي قسمين:

القسم الأول: يأتى في صورة لفظة مفردة يتردد ذكرها في كل آية من آيات السورة، أو يشيع ذكرها في أغلب مشـاهد السورة، حتى لتبدو في كل موضوع من موضوعاتها.

والقسم الثإني: يأتى في صورة (جملة محوريـة) تنـتظم السورة كلها.

فمن روائع اللفظة المفردة التي تردد ذكرها في كل آيـة من آيات السورة: مجيئ لفظ الجلالة **(ا)** في كل آية مـن آيات سورة المجادلة، والرائع حقاً: أنه قد يذكر أكثر من مرة في الآية الواحدة منها، فلم تخل آية من آيات هـذه السـورة الكريمة من لفظ الجلالة، **(ا)**، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نسرد السورة كلها هنا، وحسبنا أن نذكر مثلاً قوله تعإلي في الآية الأولى: ﴿ **قَد سمِع الله قَولَ الِتي تُجادِلُك فِي زوجِهـا وتَشْتَكِي إلي اللهِ والله يسمع تَحاوركُمـا إِن اللـه سـمِيع بصِير**﴾ [١]**.**

([١]) سورة المجادلة آية ١.



وقوله تعالي في وسطها: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**﴾ [1].

وقوله تعالي في ختامها: ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾ [2].

وهكذا لو نظرت في كل آية من آيات السورة التي جملتها اثنتان وعشرون آية، ستجد فيها لفظ الجلالة مرة أو أكثر من مرة، حتى بلغ تكراره في السورة كلها أربعين مـرة، وهـذا العدد **(٤٠)** يتناسق رقمياً مع أربعينات كثيرة في ملـك ا ، فكل نبى بعث على رأس الأربعين إلا عيسى عليه السـلام، والإنسان **(يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثـم**

---

(١) سورة المجادلة آية ١١.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسـل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب أربـع كلمـات: رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد)، وواعـد ا موسـى أربعين ليلة، وفي القرآن **﴿حتى إِذَا بلَغَ أَشُده وبلَغَ أَربعِـين سـنَةً﴾** [1]، ونحو ذلك مما جاء أربعين، فتأمل مـا يحتويـه كتاب ا من عجائب لا تنقضى!!

ولعل تكرار لفظ الجلالة في كل آية من آيات هذه السورة له علاقة بقصة خولة بنت ثعلبة التي كانت تحت رجل مـن الأنصار هو أوس بن الصامت. وكان به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقـل شـيئاً، فأتت رسول ا ﷺ لاتستفتيه في ذلك، وتشتكى إلي ا ، ولا سيما حين أراد أوس بعد يمين الظهار أن يعاشرها، فقالـت: والذي نفس خولة بيده لا تخلص إلي، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم ا ورسوله فينا بحكمه، ثم خرجت حتى جـاءت إلـي رسول ا ﷺ، فوجدت عائشة تغسل شق رأسه، فجلسـت بين يديه، فذكرت له ما لقيت من أوس، وجعلت تشكو إليـه ظهاره منها، وكان هذا أول ظهار يحدث في الإسلام، فجعل

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٥.

رسول ا ﷺ يقول لها: **(يا خويلة، ابن عمك شيخ كبيـر فاتق ا فيه)**، وفي رواية قال: **(ما أراك إلا حرمت عليـه)** فقالت: أشكو إلي ا ما نزل بى وبأولادى منه ... يا رسول ا إن لى صبية صغاراً إن ضـممتهم إليـه ضـاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال **(ما أعلمك إلا قد حرمت عليـه)**، ودارت عائشة، فغسلت شق رأسه الآخـر، فـدارت معهـا، فقالت: مثل ما قالت، فقال لها مثل ما قال، فقالت: أشكو إلي ا ما نزل بى وبصبيتى فسمع ا شكواها، فـأنزل صـدر سورة المجادلة، يقص قصتها ويحرم الظهار، ويبين كفارته، لتبقى الحياة الزوجية مستمرة بين خولـة وزوجهـا أوس[1].

أقول: لعل كثرة قول خولة في حوارها وجدلها مع الرسـول ﷺ **(أشكو إلي ا)** هو السر في تسمية السورة بالمجادلـة، وتردد لفظ الجلالة **(ا)** في كل آية منها، تكريمـاً لخولـة، وإشعاراً بأن من يذكر ا كثيراً لابد أن تتفرج عنه الكروب والشدائد.

وأياً كان السر، فإن تردد لفظ الجلالة في جميـع آيـات السورة شاهد رائع لذلك الضرب من التكرار اللفظى الـذي

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٢٠ وما بعدها.

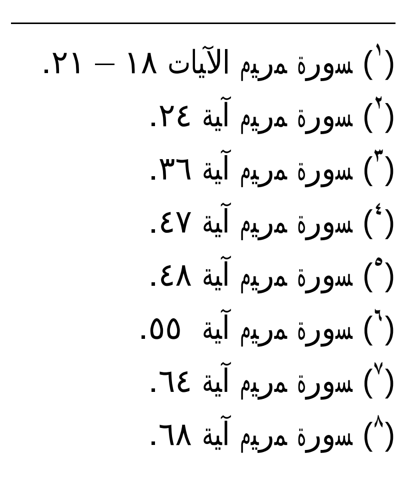
يأتى في صورة كلمة مفردة تذكر في كل آيـة، كمـا سـبق القول.

ومن شواهد هذا القسم أيضاً: ما نراه في سورة **(مـريم)** من تردد لفظ **(الرب)** كثيراً فيها، على النحو الذي تراه فـي قوله تعإلي: ﴿ **كهيعص، ذِكْر رحمةِ ربك عبـده زكَريـا، إِذْ نَادى ربه نِداء خَفِيا، قَالَ رب إِني وهن الْعظْم مِني واشْتَعلَ الرأْس شَيبا ولَم أَكُن بِدعائِك رب شَقِيا، وإِني خِفْتُ الْموالِي مِن ورائِي وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا فَهب لِي مِن لَـدنْك ولِيـا، يرِثُنِي ويرِثُ مِن آلِ يعقُوب واجعلْه رب رضِيا، يازكَريا إِنـا نُبشرك بِغُلَامٍ اسمه يحيى لَم نَجعلْ لَه مِن قَبلُ سمِيا، قَالَ رب إني يكُون لِي غُلَام وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا وقَد بلَغْتُ مِن الْكِبرِ عِتِيا، قَالَ كَذَلِك قَالَ ربك هو علَي هين وقَد خَلَقْتُك مِن قَبـلُ ولَم تَك شَيئًا، قَالَ رب اجعل لِي آيةً قَالَ آيتُـك أَلـا تُكَلـم الناس ثَلَاثَ لَيالٍ سوِيا﴾** [1].

وعلى النحو الذي تراه – مثلاً – في قوله تعإلي: ﴿ **قَالَـتْ إِني أَعوذُ بِالرحمان مِنْك إِن كُنتَ تَقِيا، قَالَ إِنما أَنَا رسـولُ ربكِ لِأَهب لَكِ غُلَاما زكِيا، قَالَتْ إني يكُون لِـي غُلَـام ولَـم**

([1]) سورة مريم الآيات ١ – ١٠.

يمسسني بشر ولم أك بغيا، قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا﴾ [1]، وعلى النحو الذي تراه في قوله: ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا﴾** [2]، وفي قوله: ﴿ **وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾** [3]، وقوله: ﴿ **سأستغفر لك ربي﴾** [4]، وقوله: **﴿وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾** [5]، وقوله: **﴿وكان عند ربه مرضيا﴾** [6]، وقوله: ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾** [7]، وقوله: **﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾** [8]،



(1) سورة مريم الآيات ١٨ – ٢١.

(2) سورة مريم آية ٢٤.

(3) سورة مريم آية ٣٦.

(4) سورة مريم آية ٤٧.

(5) سورة مريم آية ٤٨.

(6) سورة مريم آية ٥٥.

(7) سورة مريم آية ٦٤.

(8) سورة مريم آية ٦٨.

وقوله: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا**﴾[1].

ومما لا شك فيه أن لفظ **(الرب)** الذي يتردد كثيراً في هذه السورة لفظ يشعر بتربية ا تعإلي لعباده وإنعامه عليهم بالنعم التي لا يأتى عليها الحصر، وذلك من مظاهر رحمته تعإلي بعباده. ولهذا اللفظ دوره الكبير في الهدوء، والشعور بالرحمة، وهما غالبان في هذه السورة، والرحمة ظاهرة شائعة تطالعنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في كثير من المواضع. ولها كذلك دور كبير في جعل الآيات تميل إلي الطول النسبى، والألفاظ إلي الهدوء والسكينة.

لقد جاء لفظ الرحمة بصورة مباشرة في أكثر من موضع، منها قوله تعإلي عن زكريا عليه السلام، أول الشخصيات المنعم عليها في هذه السورة ﴿ **كهيعص، ذِكْر رحمةِ ربك عبده زكريا**﴾. ومنها على لسان جبريل عليه السلام خطاباً للبتول في قوله تعإلي: ﴿ **قالَ كذَلِكِ قالَ ربكِ هو علَي هين ولِنَجعله آيةً لِلناس ورحمةً مِنا وكان أَمرا مقْضِيا**﴾. ومنها

(1) سورة مريم آية ٧١.

قوله تعالي عن إبراهيم وأله عليهم السلام: ﴿ **ووهبنَا لَهم مِن رحمتِنَا**﴾.

كما جاء لفظ الرحمن – وعلاقته بالرحمة واضحة – فـي هذه السورة كثيراً. بما في ذلك المواضع التي تكـون فيهـا الثورة على المغضوب عليهم عارمة. وذلك في مثـل قولـه تعالي: ﴿**وقَالُوا اتخَذَ الرحمان ولَدا، لَقَد جِئْتُم شَيئًا إِدا، تَكَاد السماواتُ يتَفَطَّرن مِنْه وتَنشَق الْأرض وتَخِر الْجِبالُ هدا، أَن دعوا لِلرحمان ولَدا، وما ينْبغِي لِلرحمان أَن يتخِذَ ولَـدا، إِن كُل من فِي السماواتِ والْأرض إِلا آتِي الرحمان عبدا، لَقَـد أَحصاهم وعدهم عدا، وكُلهم آتِيـهِ يـوم الْقِيامـةِ فَـردا، إِن الذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ سيجعلُ لَهـم الرحمـان ودا**﴾[1].

ولقد أحصيت عدد المرات التي جاء بها لفـظ الـرحمن، فوجدته ذكر في الآيات ذوات الأرقام: ١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣،

---

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ – ٩٦.

تأملات في سورة مريم، د/ محمد حسن باجودة: ص ١٧٢، ١٧٣ منشورات دار الاعتصام.

٩٦، أي أنه ذكر ست عشرة مرة، أي بما يزيد على ربع ذكره في القرآن الكريم، فقد ذكر في القرآن سبعاً وخمسين مرة – وهو من أسماء ا الحسنى – ومن عجب أن رقم ٥٧ هو نصف عدد السور القرآنية، ومن عجب أكبر من هذا العجب أن لفظ **(الرحيم)** وهو من أسماء ا الحسنى ورد بلفظه ٩٥ مرة في مثل قوله تعالي: ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم**﴾[1]، وورد ٢٠ مرة بلفظ **(رحيماً)** في مثل قوله: ﴿**إن الله كان توابا رحيما**﴾ [2]، فيكون الرحيم قد تكرر ١١٥ مرة، ولكن منها مرة تخص سيدنا محمدا ﷺ في قوله تعالي: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾ [3]. وبذلك فإن الرحيم من أسماء ا الحسنى قد تكرر ١١٤ مرة، بينما تكرر الرحمن ٥٧ مرة منها ١٦ مرة في سورة مريم وحدها، أي أن الرحيم تكرر ضعف الرحمن تماماً، وهذا العدد **(١١٤)** هو عدد سور القرآن الكريم، كما سبق القول، فتأمل

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٧.

(٢) سورة النساء آية ١٦.

(٣) سورة التوبة آية ١٢٨.

ذلك الإعجاز العددى الدقيق في كتاب ا الـذي لا تنقضـى عجائبه! [1].

والمهم أن سورة مريم يشيع فيها لفـظ الـرحمن، ولفـظ الرحمة أيضاً، فهى من الروائع القرآنية التي اكتسـبت هـذه الخصوصية، ومن النماذج الحية لذلك التكرار اللفظى الـذي يجئ في صورة لفظة مفردة، يتردد ذكرها كثيراً في السورة الواحدة، زد على هذا"**أن جو الرحمة الذي يشع مـن آيـات السورة يضفي على الموسيقى نداوة رخية، تنعش الـنفس وتمس أوتار القلوب، حتى وإن لم يكن هناك نص صـريح على الرحمة. ولكنها واضحة تمام الوضوح**"[2].

وزد على هـذا أيضـاً أن تكـرار اللفظتـين **(الـرب)** و**(الرحمن)** كثيراً في سورة مريم له دور بارز في خدمة جو الرحمة الغالب على هذه السورة، وله دور بارز أيضـاً فـي

---

(1) انظر: الإعجاز العددى في القرآن الكريم لعبد الرزاق نوفل: ص ١٨٢، ١٨٣ – مطبوعات الشعب (الطبعة الثالثة – سبتمبر ١٩٧٥ – لكنه لم يحص عدد ذكر الرحمن) في سورة مريم.

(2) تأملات في سورة مريم ص ١٧٣.

خدمة التلاؤم الصوتى الذي يبدو بوضوح شـديد فـي هـذه السورة[1].

وأنتقل لما جاء من روائع التكرار اللفظى المنتظم للسورة كلها في صورة جملة محورية.

---

(1) أنظر: السابق ص ١٧٦.

روائع من التكرار اللفظى المنتظم للسورة كلها في صورة جملة محورية

من هذه الروائع ما جاء في سورة الرحمن من تكرير قوله تعالي: ﴿ **فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان**﴾ إحدى وثلاثين مرة، وقـد خاطب ا تعالي بهذا السؤال الذي تكرر ذكره الثقلين مـن الإنس والجن، وعدد عليهم نعمه وآلاءه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه. وهى أنواع مختلفة، وصور شـتى، منهـا: الشـمس والقمر، والنجم والشجر، والسـماء، والأرض، والبحـران: العذب والمالح، والجوارى المنشآت في البحـر كـالأعلام، والفاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان ... وغير ذلك من الآلاء التي عددتها السورة، وجاء قولـه: **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** في كل مرة ذكر فيها متعلقاً بمـا يذكر قبله من النعم، مما يفيد أن تكرير هذا السؤال قد جـاء لفائدة هى عد النعم، واقتضاء الشكر عليها، والتنبيه إلي آيات ا التي سخرها لعباده، ولفت الأنظار إليها، فأفاد تكرار هذه

الجملة المحورية معنى زائداً عـن المعـإني التـي تحملهـا الألفاظ، إذ يفهم منه تعدد النعم وتأكيدها.

والرائع حقاً: أن تكرار هذه الآية بذلك الشـكل المتتـابع الذي ينتظم السورة كلها، لم يحدث اضطراباً في الأسـلوب، ولا ثقلاً على السمع، كما يظهر ذلك في الأساليب العاديـة.. لقد تكررت الآية في أسلوب متجانس متماسـك، فـي أروع بيان وأحكمه، لفتاً إلي نعم ا التي سخرها للبشـرية كلهـا، فكلما ذكر ا تعإلي نعمة من نعمه، جاءت الآيـة المكـررة تقررها وتذكر بالاعتراف بها، وفي هذا التكرار تحريك لذهن السامع بين آن وآخر، وبوقع تتفتح له الآذان، وتعـد نفسـها لاستقباله. ولا شك أن ذلك ضـرب مـن ضـروب البيـان والإظهار لآلاء ا تعإلي ولو جاء هذا العـرض لـنعم ا بأسلوب يخلو من هذا التكرار لغفل عنها كثير مـن النـاس، وربما كان الالتفات إليها بنفس فاترة وعقل شارد.[1]

وفي ذلك يقول عبد الكريم الخطيب: و سـورة الـرحمن التي تكرر فيها ﴿ **فَبِأي آلاءِ ربكُما تُكَـذبان**﴾ معرض متكامل لنعم ا ، ولقدرة ا ، ولرحمة ا ولجلال ا وعظمته.. فإذا

(1) من علوم القرآن: ما يعين على فهمه، د/ السيد عبد الغفار: ص ٢٠٢.

طوف بالإنسان في هذا المعرض ولم يكن معه الدليل الـذي يشير له إلي كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير، وينبهه إلي ما ينبغى أن يتزود به من هذا الخير.. فلربما طاف مـن طاف ثم خرج صفر اليدين.. لم يحمل من المعروضـات إلا صوراً وخيالات لا تلبث أن تزول[1].

"فكأن قوله تعإلي: ﴿ فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان﴾ هو الدليل الذي يصحب قارئ السورة أو سـامعها مـن أولهـا إلـي آخرها.. كلما عرضت آية من آيات ا ، أو تجلت نعمة من نعمه، طلع عليه هذا الدليل يقول له هـذا القـول الكـريم: ﴿فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان﴾ دون أن يتغير وجهه، أو صوته، حتى يكون ذلك آلف لقارئ السورة أو سـامعها ... فإنـه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل، ولا صـوته.. وفي ذلك ما فيه من تأثير نفسى، واطمئنان قلبى"[2]

هذا ويسترعى انتباه المتأمل في سورة الرحمن عدة أمور منها:

([1]) من قضايا القرآن لعبد الكريم الخطيب: ص ١٣١، ١٣٢ ط دار الفكر العربى ١٩٧٣.

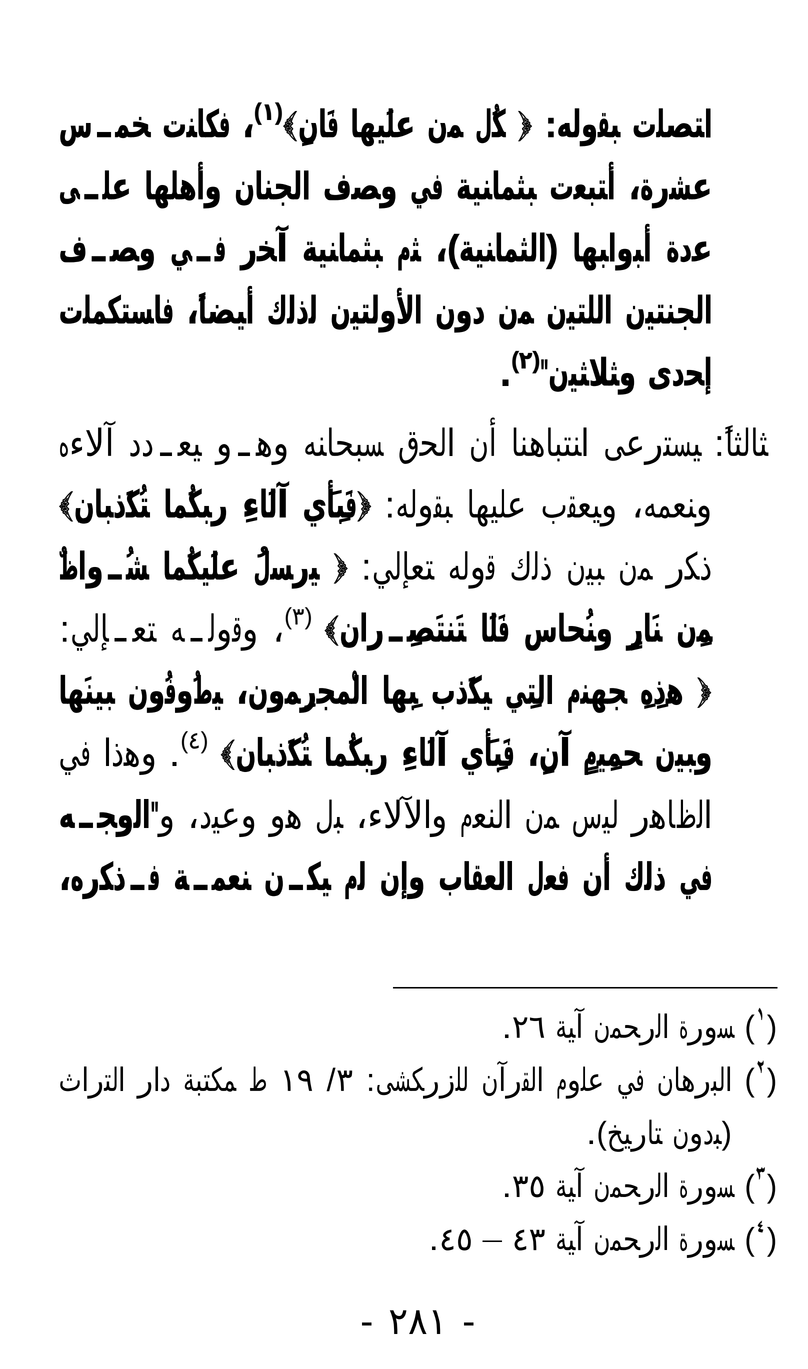
([2]) السابق.

أولاً: أن تكرار قوله تعالي: ﴿ **فَبِأَي آلَاءِ ربكُمـا تُكَـذبان**﴾ إحدى وثلاثين مرة قد جاء مسبوقاً بتكرار يمهـد لـه، ويعد السمع واللسان لاستقباله وذلـك بـأن تكـررت كلمة"**الميزان**"ثلاث مرات في ثلاث آيات متتابعة[1] دون أن تفصل بينها آيات أخرى ... ولا شك أن هذا تمهيـد بليغ للتكرار الذي سيجئ بعد هذا مباشرة: ﴿ **فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان**﴾.

ثانياً: أنه يمكن تقسيم هذه الآية المكررة إحدى وثلاثين مرة إلي عدة أقسام، فقد"**نبه في سبع منها على ما خلقه ا للعباد من نعم الدنيا المختلفة على عدة أمهات النعم[2]، وأفرد سبعاً منها للتخويف، وإنذاراً على عدة أبـواب المخوف منه (وهو جهنم. التي لها سـبعة أبـواب)، وفصل بين السبع الأول والسبع الثوإني بواحدة سوى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء، حيث**

([1]) **هى الآيات: ٧، ٨، ٩ من سورة"الرحمن".**

([2]) أمهات النعم سبع احتواها قوله تعإلي: ﴿ فَأَنْبتْنَا فِيها حبـا، وعِنَبـا وقَضبا، وزيتُونًا ونَخْلًا، وحدائِقَ غُلْبا، وفَاكِهةً﴾. فهذه سـبع نعـم، ومن بعدها: الأب الذي هو طعام الأنعام، ولذلك قال: ﴿ وأَبا، متَاعا لَكُم ولِأَنْعامِكُم﴾ سورة عبس الآيات ٢٧ – ٣٢.



اتصلت بقوله: ﴿ كُل من علَيها فَانٍ﴾[1]، فكانت خمس عشرة، أتبعت بثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدة أبوابها (الثمانية)، ثم بثمانية آخر في وصف الجنتين اللتين من دون الأولتين لذلك أيضاً، فاستكملت إحدى وثلاثين"[2].

ثالثاً: يسترعى انتباهنا أن الحق سبحانه وهو يعدد آلاءه ونعمه، ويعقب عليها بقوله: **﴿فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان﴾** ذكر من بين ذلك قوله تعالى: **﴿ يرسلُ علَيكُما شُواظٌ من نَارٍ ونُحاس فَلَا تَنتَصرِان﴾** [3]، وقوله تعالى: **﴿ هذه جهنم الَتي يكَذب بِها الْمجرِمون، يطُوفُون بينَها وبين حميمٍ آنٍ، فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان﴾** [4]. وهذا في الظاهر ليس من النعم والآلاء، بل هو وعيد، و"**الوجه في ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره،**

([1]) سورة الرحمن آية ٢٦.

([2]) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ١٩ ط مكتبة دار التراث (بدون تاريخ).

([3]) سورة الرحمن آية ٣٥.

([4]) سورة الرحمن آية ٤٣ – ٤٥.

ووصفه، والإنذار به، من أكبر النعم، لأن في ذلك زجراً عما يستحق به العقاب، وبعثاً على ما يستحق به الثواب، فإنما أشار بقوله:﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾بعد ذكر جهنم والعذاب فيها-إلي نعمته بوصفها-أي جهنم-والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة في كونه نعمة!! [1]".

وقد أكد هذا التعليل الإمام الزركشى بقوله: إن نعم ا فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها، نظير أنعمه على ما وعده، وبشر من ثوابه على طاعته؛ ليرغبوا فيها، ويحرصوا عليها؛ وإنما تتحقق معرفة الشئ بأن تعتبره بضده، والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما، فإنهما متقاربان في موضع النعم بالتوقيف على ملاك الأمر منها، وعليه قول بعض الحكماء الشعراء:

والحادثات وإن أصابك بؤسها

فهو الذي أنباك كيف نعيمها

([1]) أمإلي المرتضى: ١/ ١٢٠ وما بعدها ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤، بتحقيق أبوالفضل ابراهيم.

وإنما ذكرنا هذا، لتعلم الحكمة فـي كونهـا زادت علـى ثلاثة، ولو كان عائداً لشئ واحد لما زاد علـى ثلاثـة؛ لأن التأكيد لا يقع به أكثر من ثلاثة.

"فإن قيل: فإذا كان المراد بكل مـا قبلـه، فلـيس ذلـك بإطناب، بل هى ألفاظ أريد بها غير ما أريد بالآخر! قلـت: إن قلنا: العبرة بعموم اللفظ، فكل واحد أريد به غير ما أريد بالآخر"[1] انتهى كلام الزركشى.

ومجمل القول: أن قوله تعإلي ﴿ **فَبِأَي آلَاءِ ربكُما تُكَذبان**﴾ كرر إحدى وثلاثين مرة تذكيراً بنعم ا ، ووجوب شـكرها بالطاعة وتجنب المعصية والإقرار بوحدانية المعبـود، وألا يعبدوا غيره سبحانه وتعإلي، وفي ذلك إشارة إلـي أن كـل نعمة من هذه النعم، وبينة من هذه البينات توجـب وحـدها الشكر، وتوجب الإقرار بوحدانية ا سبحانه وتعإلي.

ويعد تكرار هذه الآية من ذلك التكرار اللفظى الذي ينتظم السورة كلها ويتتابع بشكل بديع جميل، وصورة حسنة أخاذة، فسبحان من هذا كلامه! ناهيك عن الدور البارز الذي يؤديـه

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ١٨ ط مكتبة دار التراث بالقاهرة.

تكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في السورة في حـلاوة النظام الصوتى، وروعة الترتيل للآيات. فأنت إذ تقرؤها أو تسمعها من قارئ، تجد نفسك في نشوة نغم علوى سماوى، لم يقع لأذنك من قبل! وإنه لنغم يفيض رحمة، وينبض جـلالاً وقوة، ويدعو النفوس الشاردة إلي الإيمان.

ومن هذه الروائع قوله تعالي: ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ**﴾، في سورة المرسلات عشر مرات، لأنه سبحانه ذكر أمـورا مختلفة، وأتبع كل أمر بهذا القول، فصار كأنه قال عقب كل أمر: ويل يومئذ للمكذبين بهذا الأمر! وكل ناحيـة مخالفـة لصاحبتها، فأثبت الويل لمن كذب بها.

ويحتمل أنه لما كان جزاء الحسنة بعشر أمثالهـا، جعـل للكفار في مقابلة كل مثل من الثواب ويل، والتكرار هنا لـه دور في النظام الصوتى أيضا.

ومن هذه الروائع تكرار ﴿ **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُـذُرِ**﴾ فـي سورة القمر.

قال الزمخشرى: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واسـتيقاظاً؛ إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه وأن يقرع لهم العصا

مرات ويقعقع لهم الشن تارات؛ لـئلا يغلـبهم السـهو، ولا تستولى عليهم الغفلة... [1]

وهذا صحيح، لأن هذا التكرار زجر بعد زجـر وعـذاب فوق عذاب ... فهذه المثلات التي نزلت بالضالين المكـذبين لرسل ا ، وما ساق ا إليهم فيها من مهلكـات – هـى أو مثلها، نذر للضالين المكذبين بمحمد ﷺ، وهى ليست ببعيدة منهم، إذ قد أصابت إخوة لهم من قبل ...

---

(1) الكشاف للزمخشرى: ٤٠/٤ ط ار المعرفة بيروت (بدون تاريخ).

"كذبت عاد ... فكيف كان عذابى ونذر؟"

فهذا السؤال الذي يقع مكرراً في أعقاب هذه المثلات التي أصابت قوم نوح وعاد، وثمود، ليس متوجهاً إلي أولئك الذين أبيدوا وأُهلكوا، وإنما هو إلي أولئك المعاندين المكذبين بمحمد، فلينظروا في مخالفات هؤلاء الأقوام، وليأخذوا الجواب منها ... وهنا يجدون الجواب حاضراً: طوفان يأخذ كل شئ، وريح تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية، وصيحة تتمزق منها الأجساد، فإذا الناس كهشيم المحتظر[1]! ناهيك عن الدور البارز الذي يؤديه تكرار هذة الآية في السورة من جمال النظام الصوتى، فقد جاءت سورة القمر على نظم عجيب فريد، ترى فيه توازن الآيات، ووحدة الفاصلة المبنية على حرف الراء المسبوق بحرفين متحركين قبله. والآية المكررة **(فكيف كان عذابى ونذر)** لم ترد في السورة إلا بعد خمس عشرة آية، وتكررت بعد كل قصة في السورة من قصص المكذبين بالرسل، فبدت وكأنها هدير الرعد، ودمدمة الصواعق!! والرائع حقا: أن سورة القمر

---

(١) القرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب: ص ١٣٣.

تسبق سورة الرحمن في ترتيب السور بالمصحف الشـريف، فبدت وكأنها مقدمة طبيعية لسورة الرحمن، وانتقال من نغـم عاصف هادر، إلي نغم ملاطف وديع. [1]

ومن هذه الروائع قوله تعإلي: ﴿ **إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وما كان أَكْثَرهم مؤْمِنين، وإن ربك لهو الْعزيز الرحِيم**﴾. في ثمانيـة مواضع بسورة الشعراء؛ لأجل الوعظ، فإنه قد يتأثر بالتكرار من لا يتأثر بالمرة الواحدة.

وأما قوله: **(إن في ذلك لآية)** فذلك لظهور آيات الأنبيـاء عليهم السلام، والعجب من تخاف من لا يتأملها مع ظهورها.

وأما مناسبة قوله: **(العزيز الرحيم)** فإنه تعإلي نفي الإيمان عن الأكثر؛ فدل بالمفهوم على إيمان الأقل، فكانت العزة على من لم يؤمن، والرحمة لمن آمن، وهمـا مرتبتـان كترتـب الفريقين. ويحتمل أن يكون من هذا النوع قوله تعإلي: ﴿**كلا سوفَ تَعلَمون، ثُم كلا سوفَ تَعلَمون**﴾[2]، لأن علمهـم يقـع أولاً وثانياً على نوعين مختلفين بحسب المقام؛ وهذا أقـرب للحقيقة الوضعية وحال المعبر عنه؛ فإن المعاملات الإلهيـة

---

(1) انظر: القرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب: ص ١٢٤.

(2) سورة التكاثر آية ٣ – ٤.

للطائع والعاصى متغيرة الأنواع الدنيوية؛ ثم البرزخية، ثم الحشرية، كما أن أحوال الاستقرار بعد الجميع في الغاية؛ بل كل مقام من هذه أنواع مختلفة، وفي حرف العطف"**ثم**"دلالة على الترقى، إن لم يجعل الزمان مرتباً في الإنذار على التكرار، وفي المنذر به على التنويع[1].

ومن هذه الروائع السورة المسماة **(الكافرون)** وفيها يقول الحق سبحانه – بعد البسملة:-﴿ **قُلْ ياأيها الْكَافِرون، لَا أَعبد ما تَعبدون، ولَا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد، ولَا أَنَا عابِد ما عبدتم، ولَا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد، لَكُم دِينُكُم ولِي دِين**﴾.

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهى آمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعإلي: ﴿ **قُل ياأيها الْكَافِرون**﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلي عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسول الله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: لا أعبد ما تعبدون من

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣ / ٢٠ ط مكتبة دار التراث بالقاهرة.

الأصنام والأنداد، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهو ا وحده لا شريك له، فما هنا بمعنى من، ثم قال: ولا أسلك عبادتكم، ولا أقتدى بها، وإنما أعبد ا على الوجه الذي يحبه ويرضـاه، ولهذا قال: ﴿**ولا أنتم عابـدون**﴾ أي لا تقتـدون بـأوامر ا وشرعه في عبادته؛ بل قد اخترعتم شيئاً من تلقـاء أنفسـكم .... فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لابد له مـن معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه، فالرسولﷺ وأتباعه يعبدون ا بما شرعه، ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا ا محمد رسول ا ، أي لا معبود إلا ا ، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسولﷺ،والمشركون يعبدون غير ا عبادة لم يأذن بها ا ، ولهذا أُمِر الرسولُ من ربه أن يقول لهم: لكم دينكم ولى دين، كما قال تعإلي:﴿**وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون**﴾[1].

وقال: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ [2] ولم يقل: **(دينى)**؛ لأن الآيات بالنون فحذف الياء مراعاة للفاصلة[1].

(١) سورة يونس آية ٤١.

(٢) سورة البقرة آية ١٣٩.

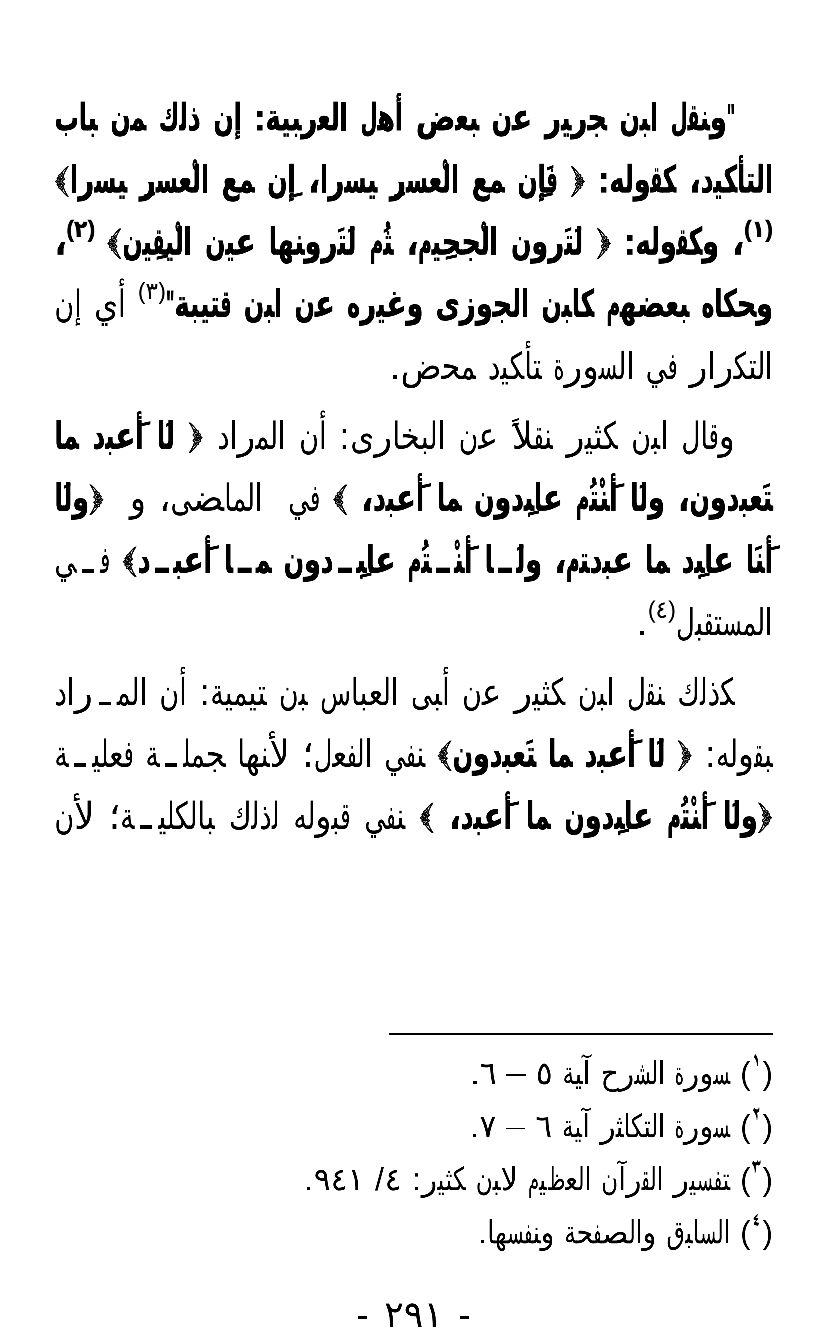
هذا هو المعنى العام للسورة كلها، كما أورده ابن كثيـر. قدمناه بين يدى الحديث عما نراه في السورة من تكرار يحمل إيضاحات ومفاهيم لا تتأتى بدونه.

وقد ذكر العلماء وجوهاً في هذا التكرار ودلالته؛ في"ابـن قتيبة".. يرجع ذلك إلي أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله شيئاً بعد شئ ... فكأن المشركين قالوا له: أسـلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك؛ فأنزل ا ﴿ **لـا أعبـد مـا تَعبدون، ولا أَنْتُم عابِدون ما أعبد،** ﴾ ... ثم غبروا مدة مـن المدد، وقالوا: تعبد آلهتنا يوماً أو شهراً أو حولاً، ونعبد إلهك يوماً أو شهراً أو حولاً، فأنزل ا ﴿ **ولا أَنَا عابِد ما عبدتم، ولا أَنْتُم عابِدون ما أعبد** ﴾. على شريطة أن تؤمنوا به فـي وقت وتشركوا به في وقت [2].

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٩٤٠ ط دار المعرفة – بيروت. ويقال لهذه السورة ولسورة الإخلاص: (المقشقشتان) أي المبرئتان من النفاق) الكشاف: ٤/ ٢٩٢٩.

(2) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص ١٨٥ ط مكتبة الحلبى بتحقيق السيد أحمد صقر.



"**ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية: إن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿ فَإِن مع الْعسر يسرا، إِن مع الْعسر يسرا﴾**[1]**، وكقوله: ﴿ لتَرون الْجحِيم، ثُم لتَرونها عين الْيقِين﴾**[2]**، وحكاه بعضهم كابن الجوزى وغيره عن ابن قتيبة**"[3] أي إن التكرار في السورة تأكيد محض.

وقال ابن كثير نقلاً عن البخارى: أن المراد ﴿ **لا أعبد ما تَعبدون، ولا أَنْتُم عابِدون ما أعبد،** ﴾ في الماضى، و ﴿**ولا أَنَا عابِد ما عبدتم، ولا أَنْتُم عابِدون ما أعبد**﴾ في المستقبل[4].

كذلك نقل ابن كثير عن أبى العباس بن تيمية: أن المراد بقوله: ﴿ **لا أعبد ما تَعبدون**﴾ نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية ﴿**ولا أَنْتُم عابِدون ما أعبد،** ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن

---

(1) سورة الشرح آية ٥ – ٦.

(2) سورة التكاثر آية ٦ – ٧.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٩٤١.

(4) السابق والصفحة ونفسها.

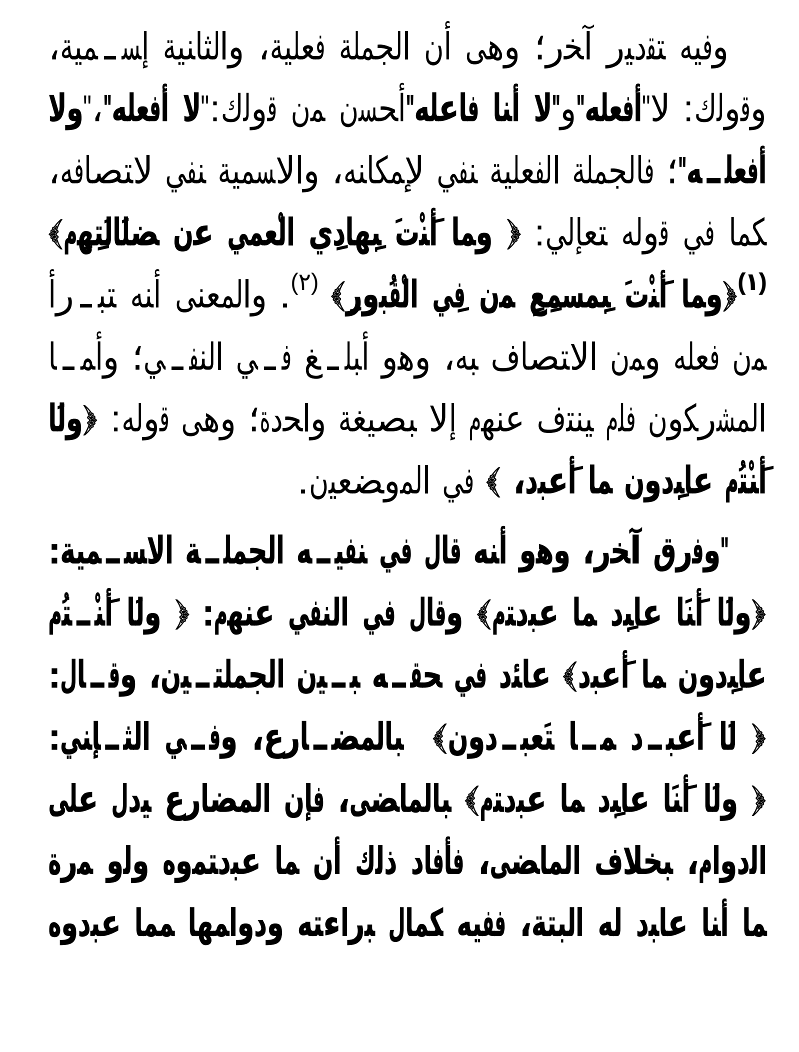
النفي بالجملة الآسمية آكد، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعى أيضاً[1].

والرأي السابق إجمال مكثف تفصيله نجده في كتاب بـدر الدين الزركشى **(البرهان في علوم القرآن)** حيـث يقـول: يحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسن بن علي عنها، فقـال: إني أجد في القرآن تكراراً، وذكر له ذلك، فأجابه الحسن بما حاصله: إن الكفار قالوا: نعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا شهراً، فجاء النفي متوجهاً إلي ذلك. والمقصود أن هذه ليست مـن التكرار في شئ، بل هى بالحذف والاختصار أليـق؛ وذلـك لأن قوله: ﴿ **لَا أَعبد ما تَعبدون**﴾؛ أي لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل، وقوله: ﴿ **ولَا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد،** ﴾، أي ولا أنا عابد في الحال ما عبدتم في المستقبل، ﴿ **ولَا أَنْتُم عابِدون**﴾، في الحال ما أعبد في المستقبل.

والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهـتهم فـي الأزمنـة الثلاثة: الحال، والماضى، والاستقبال؛ والمذكور فـي الآيـة النفي في الحال والاستقبال، وحذف الماضى من جهته ومـن جهتهم؛ ولابد من نفيه، لكنه حذف لدلالة الأولين عليه.

---

(1) السابق والصفحة نفسها.



وفيه تقدير آخر؛ وهى أن الجملة فعلية، والثانية إسـمية، وقولك: لا"**أفعله**"و"**لا أنا فاعله**"أحسن من قولك:"**لا أفعله**"،"**ولا أفعلـه**"؛ فالجملة الفعلية نفي لإمكانه، والاسمية نفي لاتصافه، كما في قوله تعالي: ﴿ **وما أَنْتَ بِهادِي الْعمي عن ضلالَتِهم**﴾[1]﴿**وما أَنْتَ بِمسمِعٍ من فِي الْقُبورِ**﴾[2]. والمعنى أنه تبـرأ من فعله ومن الاتصاف به، وهو أبلـغ فـي النفـي؛ وأمـا المشركون فلم ينتف عنهم إلا بصيغة واحدة؛ وهى قوله: ﴿**ولا أَنْتُم عابِدون ما أَعبد**﴾ في الموضعين.

"**وفرق آخر، وهو أنه قال في نفيـه الجملـة الاسـمية: ﴿ولا أَنَا عابِد ما عبدتم﴾ وقال في النفي عنهم: ﴿ ولا أَنْـتُم عابِدون ما أَعبد﴾ عائد في حقـه بـين الجملتـين، وقـال: ﴿ لا أَعبـد مـا تَعبـدون﴾ بالمضـارع، وفـي الثـاني: ﴿ ولا أَنَا عابِد ما عبدتم﴾ بالماضى، فإن المضارع يدل على الدوام، بخلاف الماضى، فأفاد ذلك أن ما عبدتموه ولو مرة ما أنا عابد له البتة، ففيه كمال براءته ودوامها مما عبدوه**

(١) سورة الروم آية ٥٣.

(٢) سورة فاطر أية ٢٢.

ولو مرة؛ بخلاف قوله: ﴿ لَا أَعبد ما تَعبدون﴾ فإن النفي من جنس الإثبات، وكلاهما مضارع يظهران جملة ومنفرداً"[1].

وفي"**أمالي المرتضى**"مجلس خاص من مجالس الشـريف المرتضى يشرح فيه ظاهرة التكرار في القـرآن ويعـرض آراء العلماء فيها، فيرد بعضها، ويقبل بعضها، ويجرح رأياً، ويعدل آخر.. ثم يدلى برأيه الـذي ارتضـاه لتفسـير هـذه الظاهرة.

يقول المرتضى في معرض التكـرار الـذي جـاء فـي سورة"**الكافرون**": إن سأل سائل فقال: ما وجه التكـرار فـي سورة: الكافرون؟ وما الذي حسن إعادة النفي لكونه عابداً ما يعبدون، وكونهم عابدين ما يعبد، وذكر ذلك مـرة واحـدة، يكفي؟

ثم يجئ برأي ابن قتيبة جواباً على هذا السؤال، ويذكر أن طعوناً وجهت إلي كلام"**ابن قتيبة**"الذي يعنى به **(أنكم إذا كنتم تعبدون إلهى على هذا الشرط، وهو عبادة آلهتكم يومـاً أو شهراً أو حولاً؛ فإنكم لا تعبدونه أبداً)** وهذا الكلام يقتضـى شرطاً لا يدل عليه ظاهره، وأن ما نفاه الرسول عن نفسـه

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ٢١، ٢٢ ط دار التراث.

﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ**﴾ مطلق غير مشروط، فكـذلك مـا عطف عليه مطلق غير مشروط.

ويقول"**المرتضى**"إن هذا الطعن غير صحيح، لأنه لا يمتنع إثبات شرط وإن لم يكن في ظاهر الكلام، ولا يمتنع عطـف المشروط على المطلق، ثم يذكر ثلاث إجابات: أولهـا: مـا حكى عن"**أبى العباس ثعلب**"أنه قال: إنما حسن التكرار، لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحـت الأخـرى، وتلخـيص الكلام.. قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون الساعة وفي هذه الحال، ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذه الحـال أيضـاً، فاختص الفعلان منه ومنهم بالحال، وقال من بعد ... ولا أنا عابد ما عبدتم في المستقبل، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيمـا تستقبلون، فاختلفت المعإني، وحسن التكرار لاختلافها..

ثم يعلق على هذا الجواب بقوله: ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب مختصة بمن المعلوم مـن حالـه أنـه لا يؤمن[1]. وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت في أبـى جهـل

([1]) وذلك لأن المفهوم من هذا المعنى تأييد النفي، فالكافرون الموجـه إليهم الخطاب في هذه السورة محكوم عليهم أنهم لا يعبدون ما يعبد

والمستهزئين[1]، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد.. وهم: العاص ابن وائل السهمى، والوليد ابن المغيرة، والأسود بـن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدى بن قيس.

ثانيها: جواب"**الفـراء**"أن يكـون التكـرار للتأكيـد ... كقول"**المجيب**"مؤكداً.. بل بلى، والممتنع مؤكداً ... لا لا.

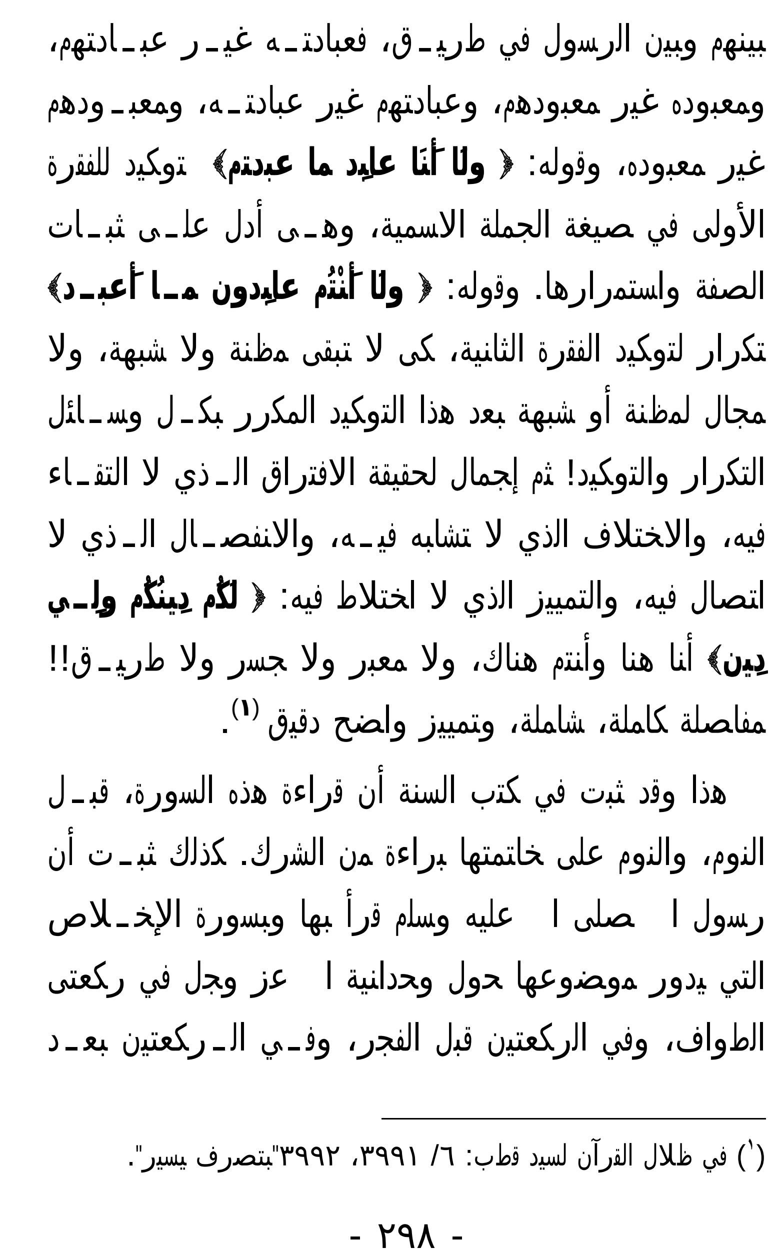
ثالثها: أن النبى قال للكفار لا أعبد آلهتكم، ومن تدعونـه من دون ا ، ولا أنتم عابدون إلهى وفإن زعمتم أنكم عابدون إلهى فأنتم كاذبون، إذ كنتم من غير الجهة التي أمـركم بهـا تعبدونه، فأنا لا أعبد مثل عبادتكم، ولا أنتم – ما دمتم علـى ما أنتم عليه – تعبدون مثل عبادتى.. [2].

النبى أبداً لا في الحال، ولا في الاستقبال، بل يمضى معهم كفرهم إلي قبورهم.

(1) المستهزئون هم الذين نزل فيهم قوله تعإلي:"إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون القرآن عضين".

(2) أنظر: أمإلي المرتضى للشريف المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): ١/ ١٢٠ ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

وعرض المرحوم سيد قطب هو الآخر لهذا الموضـوع، فقال: راح المشركون في مكة يحاولون مـع الرسـول ﷺ خطة وسطاً بينهم وبينه، وعرضوا عليه أن يسـجد لآلهـتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه! وأن يسكت عن عيـب آلهـتهم وعبادتهم، وله فيهم وعليهم مـا يشـترط! ولعـل اخـتلاط تصوراتهم، واعترافهم با مع عبادة آلهة أخـرى معـه ... لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبـة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق، مع بعض الترضـيات الشخصـية! ولحسـم هـذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسـمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق.. نزلت هذه السورة **(وفيهـا)** نفي بعد نفي، وجـزم بعد جزم، وتوكيد بعد توكيد.. بكل أساليب النفـي والجـزم والتأكيد ... وبهذا التكرار؛ لتنهى كل قـول، وتقطـع كـل مساومة، وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك، وتقيم المعـالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير ... وقد ناداهم في السورة بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم: إنهم ليسـوا على دين، وليسوا بمؤمنين، وإنما هم كافرون، فلا التقاء إذن



بينهم وبين الرسول في طريـق، فعبادتـه غيـر عبـادتهم، ومعبوده غير معبودهم، وعبادتهم غير عبادتـه، ومعبـودهم غير معبوده، وقوله: ﴿ **ولَا أَنَا عابِد ما عبدتم**﴾ توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية، وهـى أدل علـى ثبـات الصفة واستمرارها. وقوله: ﴿ **ولَا أَنْتُم عابِدون مـا أَعبـد**﴾ تكرار لتوكيد الفقرة الثانية، كى لا تبقى مظنة ولا شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكـل وسـائل التكرار والتوكيد! ثم إجمال لحقيقة الافتراق الـذي لا التقـاء فيه، والاختلاف الذي لا تشابه فيـه، والانفصـال الـذي لا اتصال فيه، والتمييز الذي لا اختلاط فيه: ﴿ **لَكُم دِينُكُم ولِـي دِين**﴾ أنا هنا وأنتم هناك، ولا معبر ولا جسر ولا طريـق!! مفاصلة كاملة، شاملة، وتمييز واضح دقيق [١].

هذا وقد ثبت في كتب السنة أن قراءة هذه السورة، قبـل النوم، والنوم على خاتمتها براءة من الشرك. كذلك ثبـت أن رسول ا صلى ا عليه وسلم قرأ بها وبسورة الإخـلاص التي يدور موضوعها حول وحدانية ا عز وجل في ركعتى الطواف، وفي الركعتين قبل الفجر، وفـي الـركعتين بعـد

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦/ ٣٩٩١، ٣٩٩٢"بتصرف يسير".

المغرب. وقد تكرر لفظ **(أحد)** في سورة الإخلاص مـرتين **(في مطلعها وفي خاتمتها)** للتأكيد على وحدانية ا تبـارك وتعإلي، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

من الجوانب اللافتة للنظر: أن قارئ القرآن الكريم يجـد القصة الواحدة من القصص القرإني، كقصـة آدم، ونـوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم ... وغيرهم من قصـص المرسلين، قد ذكرت معارض القصة الواحدة منها في أكثـر من سورة.

وكانت هذه الظاهرة أيضاً مما لفت أنظار العلماء إليها منذ القدم، فحركوا أقلامهم وألسنتهم لها، واتفقوا جميعاً على أنها ظاهرة من ظاهرات التكرار في القرآن الكـريم، وأن هـذه الظاهرة في غاية الروعة، وقمة الإعجاز، و فيهـا حكمـة بالغة، وأسرار عظيمة.

فهذا أبو بكر الباقلإني يقول عنها فـي كتابـه **(إعجـاز القرآن)**:

إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً – من الأمر الصعب، الذي تظهر فيـه الفصـاحة، وتبـين البلاغة.

"وأعيد كثير من القصص في مواضـع مختلفـة، علـى ترتيبات متفاوتة، ونبهوا – أي العرب – بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله – مبتدأ به ومكرراً"[1].

وعدد بدر الدين الزركشى الحكمة من تكرار القصص في القرآن الكريم، فذكر أن من فوائد هذا التكرار:

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا تـرى أنـه ذكر الحية[2] في عصا موسى عليه السـلام، وذكرهـا فـي موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً[3]، وهـذه عادة البلغاء، أن يكرر أحدهم في آخر خطبتـه أو قصـيدته كلمة، لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعـود إلي أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نـزل بعـد

---

(1) إعجاز القرآن للباقلاني: ص ٣٧، ٣٨ ط دار المعارف بمصر (الطبعة الخامسة)، بتحقيق السيد أحمد صقر.

(2) في قوله تعإلي في سورة طه آية ٢٠: (فألقاها فإذا هى حية تسعى).

(3) من قوله تعإلي في سورة الأعراف آية ١٠٧: (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) وقوله في سورة الشعراء آية ٣٢: (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين).

صدور الأولين؛ وكان أكثر من آمن به من المهاجرين؛ فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلي قوم، وقصة عيسى إلي آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد ا سـبحانه وتعـإلي اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم، وزيـادة تأكيـد وتبصرة، لآخرين وهم الحاضرون، وعبر عـن هـذا ابـن الجوزى وغيره.

الثالثة: تسليته لقلب النبى ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مـع أممهم قال تعإلي: ﴿ **وكُلا نَقُص عليك مِن أَنْباءِ الرسـل مـا نُثَبتُ بِهِ فُؤَادك**﴾ [1].

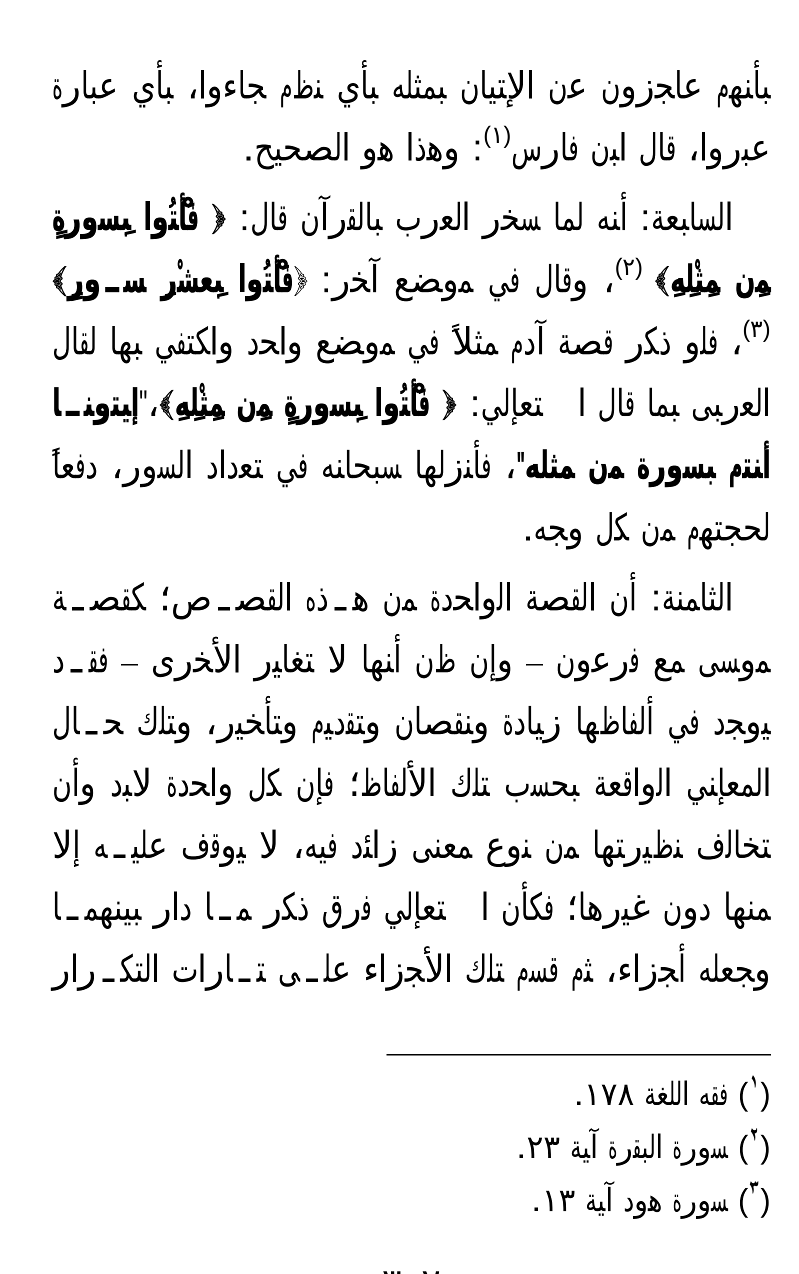
الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأسـاليب مختلفة لا يخفي ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعى لا تتوفر على نقلها كتوفرها علـى نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن ا تعإلي أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ، ثم بـين وأوضـح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً

---

(1) سورة هود آية ١٢٠.



بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا، بأي عبارة عبروا، قال ابن فارس[1]: وهذا هو الصحيح.

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ** ﴾ [2]، وقال في موضع آخر: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ**﴾ [3]، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد واكتفي بها لقال العربى بما قال ا تعإلي: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ**﴾،"**إيتونـا أنتم بسورة من مثله**"، فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: أن القصة الواحدة من هـذه القصـص؛ كقصـة موسى مع فرعون – وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى – فقـد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حـال المعإني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليـه إلا منها دون غيرها؛ فكأن ا تعإلي فرق ذكر مـا دار بينهمـا وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء علـى تـارات التكـرار

---

(1) فقه اللغة ١٧٨.

(2) سورة البقرة آية ٢٣.

(3) سورة هود آية ١٣.

لتوجد متفرقة فيها؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة؛ من انفراد كل قصة منها بموضع؛ كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصية؛ من نظم القرآن عدة معان عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً؛ فنزهه عن ذلك بهذه التغيرات.

ومنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ – لما فيها من التغيير – ميلاً إلي سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النبى ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع

تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرفهم ا سـبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلي قدرة مـن لا يلحقـه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد؛ لقوله تعالي: ﴿ **قُلْ لو كـان البحر مدادا لِكَلِماتِ ربي لنَفِد البحر قبلَ أن تَنفَد كَلِماتُ ربي ولو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مددا**﴾ [1] وكقوله: ﴿ **ولو أنما فِي الْأرض مِن شَجرةٍ أقْلام والبحر يمده**﴾ [2] [3].

ويذهب الإمام محمد أبو زهرة مذهباً عجيباً، فلا يكتفـي بتسمية هذه الظاهرة تكراراً، بل يجعلها أيضاً ضـرباً مـن الإطناب الحسن. يقول:

ومن المواضع التي يحسن فيها الإطناب، بـل التكـرار أحياناً قصص القرآن، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الإعجاز في ذاته، إنما نذكره من ناحية التكرار فيه، وموضع ذلك من سر الإعجاز، وبلاغة القرآن التي لا تساميها بلاغة في الوجود، وإن ذلك التكرار من تصريف القول الذي هـو وجه من وجوه البيان القرآني الذي قصد إليه الكتاب العزيز.

---

(1) سورة الكهف آية ١٠٩.

(2) سورة لقمان آية ٢٧.

(3) البرهان في علوم القرآن للزركشى: ٣/ ٢٦ وما بعدها.

لقد تكررت قصص الأنبياء، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالاطناب أحياناً، والإيجاز أحياناً، وذكرت قصة عيسى عـدة مرات، وذكرت قصة إبراهيم عدة مرات، وذكـرت قصـة موسى عدة مرات، وأنه يبدو بادى الرأي أن ذلك من مكرور العقول. وفيه التكرار، فما وجه البلاغة في هذا التكرار.

إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن، ومكانتـه في البيان العربى، نجد أن التكرار فيه له مغـزى، ذلـك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التـي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة.

"إنما قصص القرآن، وهو قصص لأمور واقعة، يسـاق للعبر وإعطاء المثلات، وبيـان مكـان الضـالين ومنزلـة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان ما يقـاوم به النبيون، ووراءهم كل الدعاة للحق، فهو قصص للعبـرة بين الواقعات، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة"[1].

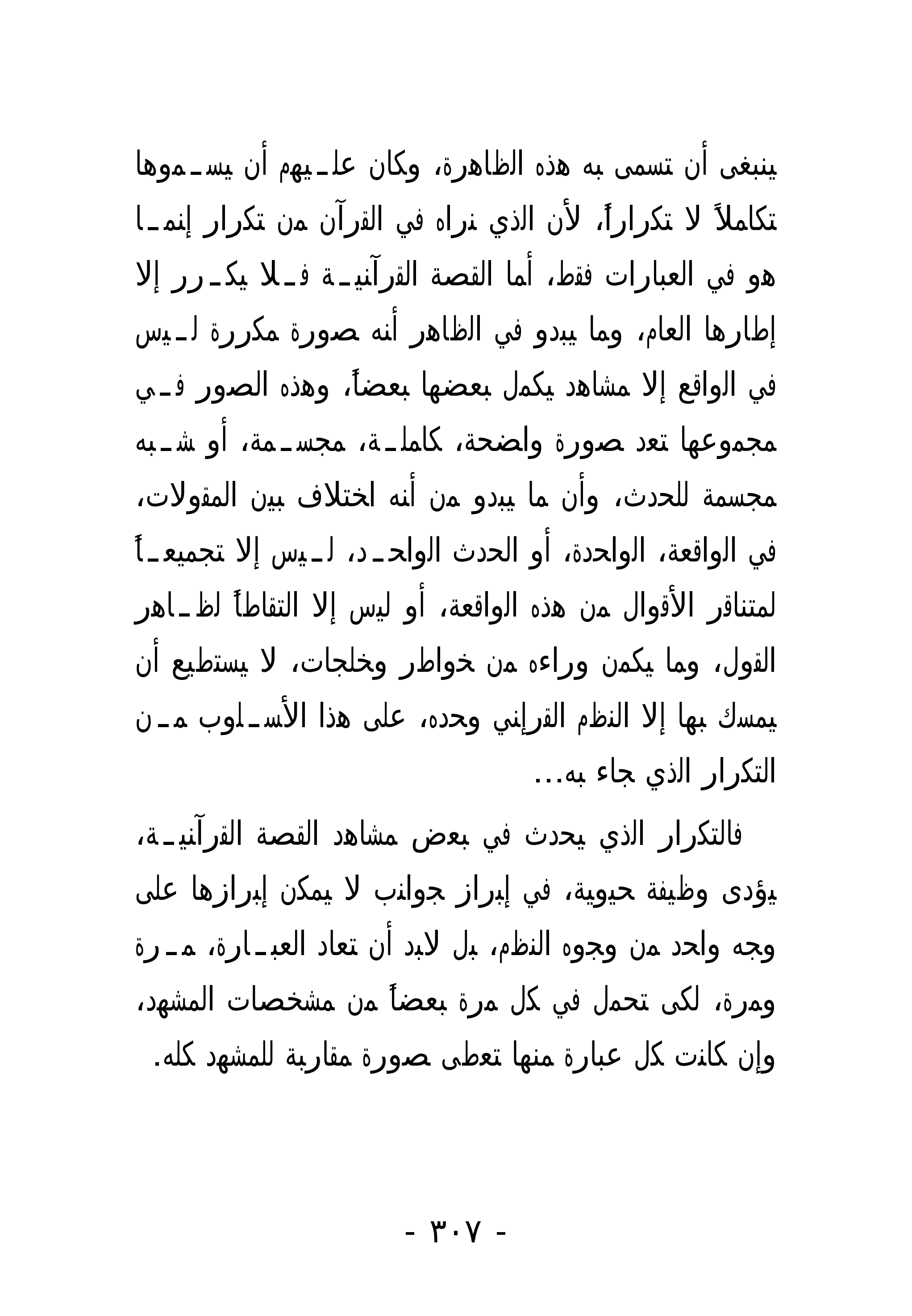
([1]) المعجزة الكبرى: القرآن، الإمام محمد أبو زهرة ص ١٦٢ ط دار غريب للطباعة بالقاهرة (٢) في مقال له عنوانه (التكرار في القصص القرإني) نشره في مجلة الوعى الإسلامى. عدد ذى الحجة ١٣٩٢ه-ص ٣٧ ومابعدها.

أكتفي بما نقلته آنفاً عن الباقلاني، والزركشى وأبى زهرة، ففي هذه النقول دلالة على أن العلماء قديماً وحديثاً يسـمون تعدد ذكر القصة القرآنية في أكثر من سورة"**تكراراً**"أو بتعبير لغوى أدق:"**تكريراً**"ويرون أنه من بلاغة القرآن، ويكشـفون عن أسبابه وأسراره ... وعلى كثرة ما قـرأت حـول هـذا الموضوع، فإننى لم أجد أحداً يسميه بغير ذلك، حتى الأستاذ عبد الكريم الخطيب، الذي كانت له تجربة رائدة في تجليـة معنى التكاملية في القصص القرإني من خلال مقاطع بعينهـا اختارها من قصة موسى، قلد سابقيه ومعاصريه فـي هـذه التسمية **(التكرار)**، وكان حرياً بـه وبهـم أن يسـموا هـذه الظاهرة، كما سماها الشيخ محمد متـولى الشـعراوى بـ- **(اللقطات المتكاملة)** [1]**.**

إن الذين تحدثوا عن ظاهرة توزيع حلقات القصـة علـى أكثر من سورة وإن أصابوا في بيان وجوه بلاغتها والحكمة منها، فإنهم ابتعدوا إلي حد ما عن المصطلح الـدقيق الـذي

---

(1) ذكر الشيخ الشعراوى ذلك في حلقاته التي يذيعها لها التلفاز والمذياع، وقد زرته في بيته بحى الحسين في الدراسة، وتعلمت على يديه هذا الدرس العظيم. يرحمه ا .



ينبغى أن تسمى به هذه الظاهرة، وكان عليهم أن يسموها تكاملاً لا تكراراً، لأن الذي نراه في القرآن من تكرار إنما هو في العبارات فقط، أما القصة القرآنية فلا يكرر إلا إطارها العام، وما يبدو في الظاهر أنه صورة مكررة ليس في الواقع إلا مشاهد يكمل بعضها بعضاً، وهذه الصور في مجموعها تعد صورة واضحة، كاملة، مجسمة، أو شبه مجسمة للحدث، وأن ما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات، في الواقعة، الواحدة، أو الحدث الواحد، ليس إلا تجميعاً لمتناقر الأقوال من هذه الواقعة، أو ليس إلا التقاطاً لظاهر القول، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات، لا يستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرإني وحده، على هذا الأسلوب من التكرار الذي جاء به...

فالتكرار الذي يحدث في بعض مشاهد القصة القرآنية، يؤدى وظيفة حيوية، في إبراز جوانب لا يمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم، بل لابد أن تعاد العبارة، مرة ومرة، لكى تحمل في كل مرة بعضاً من مشخصات المشهد، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله.

ولنا أن نشبه ذلك – على بعد ما بين المشبه والمشبه به – بالتصوير"**الفوتوغرافي**"والتصوير"**السينمائى**"أو"**التليفزيونى**".

ِففي التصوير"**الفوتوغرافي**"، نجد اللقطة الواحدة تصـور المشهد كله، تصويراً كاملاً.. صامتاً ...

والصورة هنا، وإن أعطت جميع ملامح المشـهد، فإنهـا تحتاج في قراءتها إلي مهارة وحدق للكشف عن مضـمونها، أو بعض مضمونها.. إذ كانت إنما تكشف المقطع السـطحى للحدث، أو الجسم الذي تصـوره، منقطعـاً عـن الحركـة. والتجسيد.

أما الصورة السينمائية، فإنها تتشكل مـن مئـات وآلاف من"**اللقطات**"حتى تتجسم الأحداث والشخوص، وتتكشف كـل خافية كانت مختفية وراء الصورة"**الفوتوغرافية**"، فإذا هـى تجمع بين الحركة والتجسيد..

إن تكرار الأحداث القصصية في القصص القرإني، هـو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم، تتجلى فيه روعة الكلمـة وجلالها، بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة، وفي أية صورة من صور البيان، يقارب هذا الوجه، في جلالـه، وروعتـه، وسطوته.

وهـل شـهدت الحيـاة"**الكلمـة**"تـؤدى مـا يؤديـه العمل"**السينمائى**"اليوم في نقل المشاهد والشخوص بأبعادهـا الثلاثة: **(طولها، وعرضها، وعمقها)**، وبحركاتها، وسكناتها، ونطقها، وصمتها؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات؟ مئات وألوفاً!!

أما النظم القرإني، فإنـه يعـرض المشـاهد بأبعادهـا، وأعماقها، وحركاتها، وسكناتها، وبنطقها وصمتها، وبوسوسة خواطرها، وهجسات نفوسها، وخلجات قلوبها، ثم لا يكـون ذلك كله إلا بعدد محدود من اللقطات، لا يكاد يتجاوز أصابع اليد عداً.

"ومن تدبير القرآن الكريم فـي هـذا، أنـه لـم يجمـع هذه"اللقطات"في معرض واحد، حتى لا تتراكب وتتراكم، بل جعلها موزعة في مواضع متباعدة أو متقاربة في القـرآن الكريم، بحيث يمكن أن تستقل كل"لقطة"منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل، ثم بحيـث لـو نظـر نـاظر إليهـا مـن خلال"اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها، لوجد منها جميعاً تجاوباً، وانساقاً، وائتلافـاً.. حتـى لكأنهـا اللحـن

الموسيقى يتألف من أنغام شتى، تجمعها الوحدة التي يسير في مجراها اللحن"[1].

والخلاصة: أن ما يحسبه الناس من تكرار فـي القـرآن الكريم للقصص القرإني إنما هو في الحقيقة تكامل قصصـى رائع، لا يقدر عليه إلا ا الذي أتقن كل شئ ... وبالمثـال يتضح المقال في الصفحات التالية.

---

(1) القرآن: نظمه-جمعه-ترتيبه لعبد الكريم الخطيب: ص ١٤٣ ومابعدها ط دار الفكر العربى.

روعة التكامل القصصى
في قصة ولادة يحيى عليه السلام

جاءت هذه القصة في ثلاث سور قرآنيـة هـى: سـورة مريم، وهى مكية[1]، وسورة آل عمران وهى مدنية، وسورة الأنبياء وهى مكية.

في سورة مريم: قص الحق سبحانه وتعـإلي أنـه شـمل برحمته عبده زكريا، الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وبلغ من الكبر عتياً، والذي خشى ألا يقـوم أقاربـه وأبنـاء عمومته بعد موته إزاء الدين بما يجب أن يقوموا به، بينمـا هو ليس له ذرية وكانت امرأته عاقراً. لقد عـوده ا عـز وجل لتقواه أن يستجيب دعاءه ﴿ **ولَـم أَكُـن بِـدعائِك رب شَقِيا**﴾ [2]. ومن ثم دفعه كرم ا تعإلي دائماً نحوه، ونعمتـه عليه، أن يدعوه بأن يمنحه الذرية الصالحة. إن زوجه عاقر، وهو قد بلغ من الكبر عتياً، ويشفق علـى الـدين ألا يقـوم بشئونه أبناء عمومته من بعده، قائم، وثقته المطلقة دائمة في

---

(1) باستثناء الآيتين: ٥٨، ٧١.

(2) سورة مريم آية ٤.

ا تعإلي الذي لم يرد له دعاء، ولم يخيب له رجاء. كل ذلك دفع زكريا أن يسأل ربه عز وجل، منحه الوالد الصالح. وقد تحققت دعوته، وكان ربه عند حسن ظنه بـه، إذ بشـره ا بيحيى: **﴿يازكريا إنا نُبشرك بِغُلَامٍ اسمه يحيى لم نَجعلْ لَـه مِن قَبلُ سمِيا﴾ [1].**

وهو يعرف تماماً أن طلبه في ذاته ليس هيناً، وفي الوقت ذاته يعلم يقيناً أن ذلك من أبسط الأشياء على ا ، ويريـد أن يطمئن إلي أن زوجه العاقر قد حملت. وكانت الآية على ذلك أن يمتنع من كلام قومه، ثلاث ليال سوياً إلا ذاكراً ربه، وإن الجو دينى للغاية، فزكريا يخرج على قومه، ولكن من أيـن؟ من المحراب، موحياً إليهم أن يسبحوا ا تعإلي دائماً. ويحيى يأمره ربه أن يأخذ التوراة بجد واجتهاد. واصطفاه ا تعإلي بأن آتاه الحكمة وهو صبى. هذا إلي النعوت التي نعت بهـا يحيى والآداب التي تحلى بها والتي يجمل أن يتحلى بما أمكن منها كل تقى. فقد كان رحمة لأبويه وغيرهما، وتعطفاً وشفقة عليهما. كما كان تقياً براً بوالديه، ولم يكن جباراً على عبـاد ا ولا عاصياً لربه **﴿ وحنَانًا مِن لَدنا وزكَاةً وكَـان تَقِيـا،**

([1]) سورة مريم آية ٧.

وبرا بِوالِديهِ ولَم يكُن جبارا عصِيا﴾ [1]."**وآتاه الحنان هبـة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبـوع به. والحنان صفة ضرورية للنبى المكاف برعاية القلـوب والنفوس، وتألفها واجتذابها إلي الخير في رفق"**[2].

وقد شمله ا تعالي بالسلام والأمن والطمأنينة في أوحش الأحوال والمواطن التي يمر بها الإنسـان، وهـى الـولادة والموت ووقت البعث. ﴿ **وسلَام علَيهِ يوم ولِد ويوم يمـوتُ ويوم يبعثُ حيا﴾** [3].

وهذه هى الآيات التي صورت لنا هذه القصة: قال تعالي:

﴿ **كهيعص، ذِكْر رحمةِ ربك عبده زكَريا، إِذْ نَـادى ربـه نِداء خَفِيا، قَالَ رب إِني وهن الْعظْم مِني واشْـتَعلَ الـرأْس شَيبا ولَم أَكُن بِدعائِك رب شَقِيا، وإِني خِفْتُ الْمـوالِي مِـن ورائِي وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا فَهب لِي مِن لَدنْك ولِيا، يرِثُنِـي ويرِثُ مِن آلِ يعقُوب واجعلْه رب رضِيا، يازكَريا إِنا نُبشرك**

---

(١) سورة مريم آيات ١٣ – ١٤.

(٢) تأملات في سورة مريم للدكتور حسن باجودة: ص ٧، ٨ نشر دار الاعتصام بدون تاريخ.

(٣) سورة مريم آية ١٥.

بِغُلَامٍ اسمه يحيى لم نَجعلْ له مِن قَبلُ سمِيا، قَالَ رب إنـي يكُون لِي غُلَام وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا وقَد بلَغْتُ مِـن الْكِبـر عِتِيا، قَالَ كَذَلِك قَالَ ربك هو علَي هين وقَد خَلَقْتُك مِن قَبـلُ ولَم تَك شَيئًا، قَالَ رب اجعل لِي آيةً قَالَ آيتُك أَلا تُكَلم الناس ثَلَاثَ ليالٍ سويا، فَخَرج علَى قَومِهِ مِن الْمِحـرابِ فَـأَوحى إِلَيهِم أَن سبحوا بكْرةً وعشِيا، يايحيى خُـذْ الْكِتَـاب بِقُـوةٍ وآتَينَاه الْحكْم صبِيا، وحنَانًا مِن لَدنا وزكَاةً وكَان تَقِيا، وبرا بِوالِديهِ ولَم يكُن جبارا عصِيا، وسلَام علَيهِ يوم ولِد ويـوم يموتُ ويوم يبعثُ حيا﴾ [1]

وفي سورة آل عمران المدنية ثنيت القصة أو ذكرت مرة ثانية، ومهد القرآن لذكرها من أول قوله: ﴿**كُلما دخَلَ علَيهـا زكَريا الْمِحراب وجد عِنْدها رِزقًا قَالَ يامريم إني لَـكِ هـذَا قَالَتْ هو مِن عِنْدِ اللهِ إِن الله يـرزقُ مـن يشَـاء بِغَيـرِ حِسابٍ﴾**[2]، ومن هذا التمهيد شرع في قـص ولادة يحيـى لزكريا عليه السلام.

---

(1) سورة مريم الآيات ١ – ١٥.

(2) سورة آل عمران آية ٣٧.

قال تعالي: ﴿ **هنَالِك دعا زكَريا ربه قَالَ رب هب لِي مِن لَدنْك ذُريةً طَيبةً إِنك سمِيع الدعاءِ** ﴾ [1]، "**وافتتاح القصة بلفظ (هنالك) يشير إلي بعد تلك العجيبة وسمو تلك المعجزة بأن يجد زكريا عند البتول ذلك الرزق الوفير دون بذل أي مجهود من قبلها ولكنه الفضل التام من الله تعالي، وكأن هذا الأمر الخارق للعادة حمل زكريا بعيداً وطوح به إلي أمنيته القديمة زمناً بأن يكون له ولد من صلبه يرث عنه الدين ويقوم على شئون الملة بعد أن خاف الموالي على هذا الدين. ولما كان الأمر المستحيل في عرف البشر قد تحقق بإرادة الله تعالي للبتول، فضلاً من الله ونعمةً وكرامةً للبتول المرأة الصالحة التقية النقية، فإن في ذلك التحقق إغراء لزكريا عليه السلام وهو المصطفي المختار أن يطلب هو الآخر من الله تعالي الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء أمراً مستحيلاً في عرف البشر وهو أن يهبه الله تعالي فضلاً منه ونعمة، الولد من صلبه وهو الشيخ الفاني الذي وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً، ومن زوجته العاقر أصلاً وغير المهيئة للإنجاب أساساً وقبل أن تبلغ سن اليأس**

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٨.

فكيف بها الآن وقد بلغت ثمانياً وتسعين سنة وكيف به هو وقد بلغ مائة وعشرين سنة فيما يقال"[1].

هنالك دعا زكريا عليه السلام ربه جل وعلا مربيه بنعمه وآلائه بأن يهب له فضلاً منه جل وعلا ونعمة ومن صـلبة ذرية طيبة مباركة.

واستجاب ا دعاءه، وإلي ذلك أشـارت الآيـة التاليـة: **﴿فَنَادتْه الْملَائِكَةُ وهو قَائِم يصلي فِـي الْمِحـرابِ َأن اللـه يبشرك بِيحيى مصدقًا بِكَلِمةٍ مِن اللهِ وسيدا وحصورا ونَبِيا مِن الصالِحِين﴾** [2].

"ونستطيع أن نفهم أن الكلام على الحذف وكأن المعنـى فاستجاب ا تعإلي دعاء زكريا عليه السلام وأمر الملائكة فنادته. وإن النداء يمثل مرحلة من أرفع مراحـل الإفـادة والتبليغ فليس ثمة الإيحاء أو القول وما إليهما إنما هنالـك النداء الذي يعنى رفع الصوت من ناحية والبعد الضـروري بين المنادى والمنادى من ناحية أخرى. ونستطيع أن نفهـم

---

(1) تأملات في سورة آل عمران، د/ محمد حسن باجودة: ص ١٥٢. مطابع دار البلاد-جدة ١٤١٣هـ-/ ١٩٩٢م.

(2) سورة آل عمران آية ٣٩.

أن دعاء زكريا ربه جل وعلا أن يهبه الذرية الطيبة حـدث كرات ومرات، ولكن الذي كان يحصل دائماً وباستمرار هـو عبادة زكريا عليه السلام ربه جل وعلا وإقباله على بارئـه عز وجل. والدليل على ذلك أن زكريا عليه السـلام حينمـا نادته الملائكة كان قائماً يصلى في المحراب. وإن الصـلاة في المحراب صفة مشتركة بين زكريا عليه السلام والبتول. وانظر إلي الهيئة في الصلاة التي كان زكريا عليه السـلام عليها في المحراب. إنها صفة القيام"[(١)].

وأنظر إلي جملة"**يبشرك**"ذات العلاقة بالظهور مع الحسن والجمال. فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، وسمى البشـر بشـراً لظهورهم، والبشير الحسن الوجه، والبشـارة بفـتح البـاء الجمال، والبشارة بكسر الباء في الخير يقال: بشـرت فلانـاً أبشره تبشيراً، وذلك يكون بالخير، وربما حمل عليه غيـره من الشر، و:ان ذلك جنس مـن التبكيـت ومعنـى:"**أن ا يبشرك بيحيى**"أن هذا الخبر الحسن الصادق والبشارة الجميلة مما تبتهج له نفسك فتستجيب له بشرتك وتتجاوب مـع الـدم المتدفق بسبب السرور الذي هجم عليك فتشرق له أسـارير

---

(١) تأملات في سورة آل عمران، د/ محمد حسن باجودة: ص ١٥٢.

وجهك لأن ذلك الجزء من البشرة هو الذي تقع عليـه عـين الناظر ولأن للوجه الحظ الموفور من الحواس منافذ الإنسان على العالم الخارجى [١].

وما أقرب المبشر به من البشارة فلا يفصل بين ذكر اسم المبشر به وبين جملة يبشر سوى اسم الضمير الذي يخاطب به زكريا عليه السلام وباء الجر بين يدى يحيى عليه السلام.

وأول ما يلفت الانتباه هو أن رب العزة يخلع علـى هـذا المولود قبل أن يولد اسماً هـو مـن مسـتلزمات البشـارة ومتمماتها إذ يفهم من اسم"**يحيى**"أنه ولد ذكر وأنه بـإرادة ا تعإلي سوف تكتب له الحياة وإلا فما قيمة مجئ الولد الـذكر من الصلب إذا لم يكتب ا تعإلي له الحياة. قال أبـو علـى الفارسى: وهو اسم بالعبرانية صادف هذا البناء والمعنى من العربية قال قتادة وغيره: إنما سـمى يحيـى لأن ا أحيـاه بالإيمان.

"إن البشارة تعنى استجابة ا تعإلي للدعاء وإن كل مـا تلا ذلك من متممات البشارة فيحيى ولد ذكر من صلب زكريا عليه السلام الذي بلغ من الكبر عتياً ومن امرأتـه العـاقر

---

(١) السابق: ١٥٥.

وهو سيكتب الله تعالي له الحياة بالبقاء والإيمان ثم إنه سيكون مصدقاً بكلمة من الله تعالي. والجمهور على أن الكلمة هو عيسى عليه السلام قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى وغيرهم"[1].

"قال الربيع وغيره كان يحيى أول من صدق بعيسى وشهد أنه كلمة من الله. وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر قاله الأكثرون وسمى عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالي التي هى"كن"فكان من غير أب. وإن التصديق بكلمة من الله تعالي ذو علاقة بالإيمان، وكان أول نعوت يحيى عليه السلام بعد البشارة بميلاده وبحياته ذا علاقة بأهم النعوت وهو عبادة الله تعالي، الغاية التي خلقنا الله تعالي من أجلها".

"ووراء ذلك فيحيى عليه السلام سيكون سيداً في قومه. وهذه الصفة ذات علاقة بوجاهته وبمكانته الرفيعة في قومه ومنزلته العالية فالسيد هو الذي يسود قومه أي يفوقهم في الشرف وينتهى إلي قوله ويكون ذلك بسبب العبادة والتقوى

(1) السابق: ١٥٦.

والورع والعلم والحلم والفقه والشرف والكرامة علـى ا تعالي"[1].

ومما له علاقة بإقباله الكلى على ا تعالي وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل أنه عليه الصلاة والسلام كان حصوراً، بمعنى أنه كان يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. وقـد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وابن جبيـر وقتـادة وعطاء وأبى الشعثاء والحسن والسدى وابن زيد.

وإذا كانت النعوت السابقة يصح أن يكون له عليه الصلاة والسلام بعون من ا وتوفيق دور فيها فإن آخر النعوت وهو النبوة محض فضل من ا تعالي. قال عز من قائل: ﴿**مصدقًا بِكَلِمةٍ مِن اللهِ وسيدا وحصورا ونَبِيا مِن الصالِحِين**﴾ [2].

"ولما كان زكريا عليه السلام على علم تام بأن العادة ما جرت أن ينجب من كان مثله ومثل زوجته فقد كان متشوقاً لمعرفة الكيفية التي سيتم بها الإنجاب مظهراً مـن مظـاهر

([1]) السابق: ١٥٧.

([2]) سورة آل عمران آية ٣٩.

قدرة الفعال لما يريد الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء وإلي ذلك أشارت الآية الكريمة التالية"[١].

قال تعإلي: ﴿**قَالَ رب إني يكُون لِي غُلَام وقَد بلَغَنِي الْكِبر وامرأَتِي عاقِر قَالَ كَذَلِكَ الله يفْعلُ ما يشَاء**﴾ [٢].

ويلاحظ أن لفظ الرب هو الذي يجرى على لسان زكريـا عليه السلام لأن الحال خاص به وهو الفقير إلي فضل أرحم الراحمين. إنه عليه السلام ينادى ربه جل وعلا سائلاً كيـف ومن أين يكون لى غلام؟! وينبغى أن يكون للقول:"**لى**"كبيـر دور في السياق لأنه يعبر عما سأله ربه جل وعـلا وعمـا فهمه من الملائكة بأن الذرية ستكون من صـلبه. وإن ممـا يؤكد هذه المعإني مجئ لفظ الغلام وليس الولد مثلاً أو الابن. وتفسير ذلك أن الغين واللام والميم أصل صحيح يدل علـى حداثةٍ وهيج شهوة. من ذلك الغلام وهو الذي طر شاربه أي طلع وظهر. ومن بابه: اغتلم الفحل غلمة: هاج مـن شـهوة الضراب وكأن زكريا عليه السلام يريد بذكر الغـلام تأكيـد دعائه وفهمه من الملائكة بأن الغلام ستكتب له الحياة بإرادة

---

(١) السابق: ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران آية ٤٠.

الله تعالي حتى يغدو في حكم الرجال، والمعروف أن سـورة مريم بينت أن يحيى عليه السلام قد آتاه الله تعـالي الحكـم بمعنى الحكمة حينما كان صبياً وأنه بار بوالديه، وهذه بشارة أخرى بأن يحيى عليه السلام حينما يكون في سن التكليـف سيكون باراً بوالديه اللذين سيكونان معاً على قيد الحياة كـى يكون شكرهما لله تعالي على نعمه وآلائه عليهما أكبـر. إن كل هذه الملابسات قوة لمجئ لفظ الغلام بالذات. قال تعالي: **﴿ يايحيى خُذْ الْكِتَاب بِقُوةٍ وآتَينَاه الْحكْم صبِيا، وحنَانًا مِـن لَدنا وزكَاةً وكَان تَقِيا، وبرا بِوالِديهِ ولَم يكُن جبارا عصِـيا، وسلَام علَيهِ يوم ولِد ويوم يموتُ ويوم يبعثُ حيا﴾**[1].

وانظر إلي الطريقة التي يعبر فيها زكريا عليه السلام عن تقدم السن به وكأن في ذلك تبريراً لاستبعاده من جهة العادة أن يلد من كان في مثل سنه وتعبيراً عن يقينه المطلـق فـي قدرة الفعال لما يريد جل وعلا:"**وقد بلغنى الكبر**"إن قد تفيـد التحقيق. وإن تقديم المفعول وتـأخير الفاعـل ممـا يبـرز الاستعارة في صورة أوضح ويظهر مطاردة الكبر لزكريـا عليه السلام في حالة أسرع حتى كان من الكبر بلوغ زكريـا

(1) سورة مريم آيات ١٢ – ١٥.

عليه السلام والوصول إليه فعلاً والتمكن منـه والاسـتحواذ عليه. وكأن هذه المطاردة تعكس الرغبة لدى كل نفس فـي الفرار من الكبر أو في تأجيله. وإني لأحدٍ شئ من ذلك. وإن زكريا عليه السلام يعترف بهذا المصـير ويستسـلم لهـذه الحقيقة. وما كان ليهتم بشئ من ذلك لولا خوفه على الـدين ألا يوجد بعد وفاته من يرعى شئونه. وليس حال زكريا عليه السلام وحده هو المبرر لأن يستبعد من جهة العادة الإنجاب إنما تشاركه في هذه الحال زوجه التي كانت عـاقراً بسـبب تقدمها في السن من ناحية ولأنها عقيم أصـلاً مـن ناحيـة أخرى[1].

ورداً على استفهام زكريا عليه السلام قال الملك"**كذلك ا يفعل ما يشاء**"الكاف للتشبيه وذلك إشارة إلي الفعل أي مثـل ذلك الفعل وهو تكون الولد بين الفإني والعاقر يفعل ا مـا يشاء من الأفعال الغريبة وفي كل ذلك زيادة اطمئنان لزكريا عليه السلام بأن دعوته قد استجيبت وهـو يريـد اسـتعجال البشارة التي تحتاج لعلامة وبالتالي هو يريد هـذه العلامـة

(1) السابق: ١٦٠.

ويستعجلها[1] وإلي ذلك أشارت الآية الكريمـة التاليـة: قـال تعالي: ﴿**قَالَ رب اجعلْ لِي آيةً قَالَ آيتُك أَلا تُكلم الناس ثَلَاثَـةَ أَيامٍ إِلا رمزا واذْكُر ربك كَثِيرا وسبح بِالْعشِي والْإِبكَارِ**﴾[2].

يسأل زكريا عليه السلام ربه جل وعلا أن يجعل له آيـة وعلامة يستدل بها على حمل زوجه بيحيى عليـه السـلام. ويجئ الجواب على لسان الملك بأن العلامة التـي أرادهـا زكريا عليه السلام دليلاً على حمل زوجه العاقر بيحيى عليه السلام تتجلى في عدم قدرته على الكلام بخـلاف ذكـر ا تعالي إلا رمزاً، إيماء وإشـارةً بالشـفتين أو الحـاجبين أو العينين أو الرأس أو اليد ثلاثة أيام بلياليهن. إن زكريا عليـه السلام ينعقد لسانه فلا يستطيع أن يكلم النـاس هـذه الأيـام الثلاثة. أما ذكر ا تعالي وتسبيحه جل وعلا فـإن زكريـا عليه السلام قادر على كل ذلك بل إنه مأمور خلال هذه الأيام الثلاثة أن يكثر من ذكر ا تعالي وقول لا إله إلا ا ومـن التسبيح وقول سبحان ا تعالي وأن يملأ بذلك كل الأوقـات التي رمز لها بالعشى وهو في اللغة من حين تزول الشـمس

---

(1) السابق: ١٦١.

(2) سورة آل عمران آية ٤١.

إلي أن تغيب وبالإبكار وهو في اللغة من بين مطلع الفجـر إلي وقت الضحى[1].

هذا هو المشهد الذي قصه الحق سبحانه عن ولادة يحيى لزكريا في سورة آل عمران، وذلك هو تفسيره، ومـا فـي ألفاظه وعباراته من دلالات وإيحاءات.

ويبقى المشهد الذي ذكره ا في سورة الأنبياء، وفيه يقول سبحانه: ﴿ **وزكَريا إِذْ نَادى ربه رب لَا تَذَرنِي فَـردا وأَنْـتَ خَير الْوارِثِين، فَاستَجبنَا له ووهبنَا له يحيى وأَصـلَحنَا لَـه زوجه إِنهم كَانُوا يسارِعون فِي الْخَيراتِ ويـدعونَنَا رغَبـا ورهبا وكَانُوا لَنَا خَاشِعِين**﴾ [2].

فترى القصة التي وردت مفصلة في سورتى مريم المكية، وآل عمران المدنية ترد هنا مجملة، متناسقة مـع السـياق، وتراها هنا تبدأ – كما بدأت في السـورتين المـذكورتين – بالدعاء: **(رب لا تذرنى فرداً وأنت خيـر الـوارثين)** أي: لا تذرنى بلا عقب يقوم على الهيكل، وكان زكريا قائماً علـى هيكل العبادة في بنى إسرائيل، قبل مولد عيسى عليه السلام،

(١) السابق: ص ١٦٢.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٩ – ٩٠.

ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة، ووارث المال: **(وأنت خير الوارثين)** إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله، لأن الخلق ستار القدرة في الأرض، وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة، **(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه)** التي كانت عقيماً لا تصلح للنسل ... ويختصر السياق هنا تفصيلات هذا كله؛ ليصل مباشرة إلي استجابة الله للدعاء **(إنهم كانوا يسارعون في الخيرات)** فسارع الله في استجابة الدعاء **(ويدعوننا رغباً ورهباً)** رغبة في الرضوان، ورهبة للغضب، فقلوبهم وثيقة الصلة، دائمة التطلع **(وكانوا لنا خاشعين)** لا متكبرين ولا متجبرين: بهذه الصفات في زكريا وزوجه وابنهما يحيى استحق الوالدان أن ينعم عليهما بالابن الصالح، فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه [1]. ويلاحظ في هذا الموضع: أن الله قدم الهبة على الإصلاح، فلولا أنه شاء أن يهب يحيى لزكريا لما أصلح له زوجه، وطالما سأل زكريا ربه هذه الهبة، إيماناً منه، وثقة فيه بأنه قادر على كل شئ، ويجيب المضطر إذا دعاه، ولم يقل الحق سبحانه: **(فأعطينا**

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب: مجلد ٤ ص ٢٣٩٥.

أو فآتينا له يحيى)؛ لأن الهبة إحسان محـض لـيس فـي مقابلتها شئ يكون عوضاً للواهب، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه لا من الولد لكبر سـنه ولا مـن الوالدة لكونها عاقراً لا تلد فكان وجوده كالوجود بغير سـبب أتى هبةً محضة منسوبة إلي ا تعإلي بقوله: ﴿**من لدنك**﴾ أي من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب.

وقد أشارت سورة مريم إلي أبعاد هذه المسـألة أيضـاً: ﴿**وإني خِفْتُ الْموالِي مِن ورائِي وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا فَهـب لِي مِن لَدنْك ولِيا، يرِثُنِي ويرِثُ مِن آلِ يعقُوب واجعلْـه رب رضِيا**﴾ [١].

أعتقد أن القارئ الكريم – بعد عرض القصة ومـدلولاتها وإيحاءاتها في السور الثلاث – قد فهم الآن أن هذه القصة لم يثن منها ولا كرر إلا الإطار العام لها فقط، ولكن كل موضع فيه إضافة جديد إلي القصة يكمل ما لم يذكر فـي الموضـع الآخر... صحيح أن الإطار العام للقصة تتكرر منه كلمـات وعبارات بعينها؛ لكنها في كل مرة تعطى معنـى جديـدا.. الأمر الذي يؤكد: أن تكرار أي قصة قرآنية إنما هو تكـرار

---

(١) سورة مريم آية ٥ – ٦.

وإعادة لإطارها العام فقط، وأن ما يكرر من ألفاظ وعبارات ما هو إلا تكرار في الظاهر، وحقيقة الأمر فيه أنه إضافة وتكميل، وهو أشبه ما يكون بما نسميه اليوم **(تعدد زوايا الالتقاط الفنى)**، فالقصة الواحدة حين يكرر إطارها العام في أكثر من سورة، تعطيك في كل سورة لقطات لم ترد في السورة الأخرى، ومن هنا آثرت أن أطلق على ما يسميه الناس: **(التكرار القصصى في القرآن)** مصطلح **(التكامل القصصى)**؛ لأن هذه التسمية أدق وأدل وتطابق الواقع الذي نراه بالفعل في القصص القرآنية التي جاءت في صورة مشاهد أو حلقات موزعة على السور القرآنية.

وها أنا ذا أسوق بين يديك بعض الأمثلة من هذه القصة لبيان التكامل القصصى وروعته فيها.

أولاً: أن دعاء زكريا في سورة الأنبياء هو **(رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين)** وهو دعاء لربه أن لا يدعه وحيداً، دون وارث له يرثه في القيام على هيكل العبادة كما نفهم من تفسيرها الذي سبق ذكره. ودعاء زكريا الوارد في سورة آل عمران دعاء بوجه عام، لم يطلب فيه زكريا ما إذا كان الثوب

الذي تكون عليه هذه الذرية في صورة ذكر أم أنثى أو أنهما معاً.. فيقول زكريا: **﴿ هنَالِكَ دعَـا زكَرِيـا ربه قَالَ رب هب لِي مِن لَدنْك ذُريةً طَيبةً إِنك سمِيع الدعاءِ﴾** [1]. ودعاء زكريا في سورة مـريم بـدأه باسترحام ربه وكيف أن الكبر وتقدمه في السن قـد جعل عظام جسمه ضعيفة لا تقوى علـى مقاومـة الزمن وأن شعر رأسه قد تغير مـن السـواد إلـي البياض، وأنه يطلب ولداً ذكراً بالذات فيقول زكريا: **﴿ رب إِني وهن الْعظْم مِني واشْتَعلَ الـرأْس شَـيبا ولَم أَكُن بِدعائِك رب شَقِيا، وإِني خِفْتُ الْموالِي مِن ورائِي وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا فَهب لِي مِن لَدنْك ولِيا، يرِثُنِي ويرِثُ مِن آلِ يعقُوب واجعلْه رب رضِيا﴾** [2].

فصيغة الدعاء في كل سورة تختلف عنها فـي السـورة الأخرى.

ثانياً: أن زكريا عقب دعائه في سورة آل عمران نادتـه الملائكة أن ا يبشره بذكر اسمه يحيى له صفات

([1]) سورة آل عمران آية ٣٨.

([2]) سورة مريم آية ٤ – ٦.

سامية ويكون نبياً ... يقـول القـرآن: **﴿فَنَادتْـه الْملَائِكَةُ وهو قَائِم يصلي فِي الْمِحـرابِ أَن اللـه يبشرك بِيحيى مصدقًا بِكَلِمةٍ مِـن اللـهِ وسـيدا وحصورا ونَبِيا مِن الصالِحِين﴾** [1].

وأن زكريا عقب دعائه في سورة مريم أوحى إليه بأن ا يبشره بغلام اسمه يحيى جديداً لم يتسم أحد بمثل اسمه مـن قبل، ولم تذكر صفات يحيى التي جاءت في السورة المدنية: **﴿ يازكَريا إِنا نُبشرك بِغُلَامٍ اسمه يحيى لَم نَجعلْ لَه مِن قَبـلُ سمِيا﴾** [2].

وأن زكريا عقب دعائه في سورة الأنبياء: اسـتجاب ا له، ووهب له يحيى، وأصلح له زوجه.

ثالثاً: في مسألة (ولادة يحيى أو الإنباء بقرب حمل أمـه به) اكتفت سورة الأنبياء الآية ٩٠ بقوله تعـإلي: **﴿ فَاستَجبنَا لَه ووهبنَا لَه يحيـى وأَصـلَحنَا لَـه زوجه﴾** (٣) وأسند الضمير ، ولم تذكر السـورة

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٩.

(٢) سورة مريم آية ٧.

(٣) سورة الأنبياء آية ٩٠.

الملائكة ودروها في تبليغ زكريا بهذا النبأ السار. وجاء في آل عمران: ﴿فَنَادتْه الْملَائِكَةُ وهـو قَـائِم يصلي فِي الْمِحرابِ أَن الله يبشرك﴾ (١). وجـاء في سورة مريم: ﴿ يازكَرِيا إِنا نُبشرك بِغُلَامٍ اسـمه يحيى﴾ (٢) فلم تذكر الملائكة.

رابعاً: أن سورة آل عمران لم يظهر فيها يحيى كاستجابة من ا لدعاء زكريا، وإنما قال القرآن بعد صيغة دعاء زكريا فيها: (فنادته الملائكـة ...) وهكـذا الأمر في سورة مريم، ولم يرد لفظ (فاستجبنا له) صريحاً إلا في سورة الأنبياء.

خامساً: تنفرد سورة آل عمران بالإخبار عن صفات يحيى على هذا النحو: كلمة من ا ، وسـيد وحصـور ونبى من الصالحين)، وتنفرد سورة مريم بظهـور يحيى فيها كنبى يخاطبه ا بما أعطاه من الصفات والأخلاق: ﴿ يايحيى خُذْ الْكِتَاب بِقُوةٍ وآتَينَاه الْحكْم

(١) سورة آل عمران آية ٣٩.

(٢) سورة مريم آية ٧.

صبِيا .... الخ﴾ (١) ... فنحن لسنا أمام مشـهد يتكرر في كل سورة من السور الثلاث؛ بل أمـام لقطة بعينها تضيفها كل حلقة إلي المشهد لتكتمـل القصة وتتكامل.

سادساً: اكتفت سورة الأنبياء بعبارة (وأصلحنا له زوجه) وهى عبارة لم ترد في مريم ولا في آل عمـران، بل يلاحظ أن القرآن عبر هنا بلفظ (زوجه)، بينما عبر في السورتين الأخريين بلفظ امرأة، فهى لـم تلقب بلقب الزوجة إلا بعد الإنجاب، أما قبل هـذا فنسمع زكريا يقول في سورة آل عمران: ﴿ إنـي يكُون لِي غُلَام وقَد بلَغَنِي الْكِبر وامرأَتِـي عـاقِر﴾ (٢)، ويقول في سورة مريم: ﴿ قَالَ رب إِني وهن الْعظْم مِني واشْتَعلَ الرأْس شَيبا ولَم أَكُن بِـدعائِك رب شَقِيا، وإِني خِفْتُ الْموالِي مِن ورائِي وكَانَـتْ امرأَتِي عاقِرا فَهب لِي مِن لَدنْك ولِيا﴾ (٣) ويقول:

([١]) سورة مريم الآيات ١٢ – ١٥.

([٢]) سورة آل عمران آية ٤١.

([٣]) سورة مريم آية ٤ – ٥.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (١)، ولاحظ اختلاف الإسناد في (بلغنى الكبر) و(بلغت من الكبر)، ولاحظ أن جملة (امرأتى عاقر) اسمية، وجملة (وكانت امرأتى عاقراً) فعلية، وبين الجملتين فرق في الدلالة، ويفيدان معاً أن امرأة زكريا كانت عاقراً، واستمرت في عقرها إلى أن استجاب الله لعبده زكريا.. ألم أقل لك: إن الكلمة إذا كررت في القرآن فلابد أن تضيف جديداً .... وتأمل تنوع زوايا الالتقاط الفنى في الصورة.

سابعاً: نلاحظ أن طلب زكريا من ربه علامة تطمئنه بقرب الاستجابة لم يذكر في سورة الأنبياء، وإنما ذكر في مريم وآل عمران ... ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ (٢)، فهذا مما تكرر ذكره، ومعناها: اجعل لى علامة أعلم بها وقوع ما بشرن به.

(١) سورة مريم آية ٨.

(٢) سورة مريم آية ١٠، وسورة آل عمران آية ٤١.

ثامناً: حين نقارن بين ما جاء في مريم، وما جاء فـي آل عمران بخصوص هذه العلامة نجد العلامـة فـي سورة آل عمران هى أن يصوم زكريا ثلاثة أيـام إلا رمزاً، والصوم هنا صوم الكلام مع النـاس ﴿ قَالَ آيتُك َألا تُكَلم الناس ثَلَاثَةَ َأيامٍ ِإلا رمـزا﴾ (١)، ونجد في صورة مريم العلامة نفسها، ولكن جاءت هكذا ﴿ قَالَ آيتُك َألا تُكَلم الناس ثَلَاثَ لَيالٍ سـويا﴾ (٢)، قال الزمخشرى في تفسيرها: أي علامتك أن تمنح الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح، سوى الخلق، ما بك خرس ولا بكم. دل ذكر الليإلي هنـا والأيام في آل عمران على أن المنع مـن الكـلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن. وأوحى: أي: أشار، ويشهد له – إلا رمزاً –(٣) وتأسيساً على ما قالـه الزمخشرى يكون ما في آل عمران مكملاً لما في مريم من جميع الجوانب، وبهما معاً لا بأحـدهما.

---

(١) سورة آل عمران آية ٤١.

(٢) سورة مريم آية ١٠.

(٣) الكشاف: ٢/ ٥٠٤ ط دار المعرفة بيروت.

نفهم فقط أن سيدنا زكريا استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد لذكر ا وتسبيحه وشكره ثلاثة أيام ولياليهن، ولم يكن منعه من كلام الناس لعائق في لسانه، بل كان سوى الخلق، ما به خرس ولا بكم كما سبق القول.

يؤكد ما ذهبنا إليه أن اليوم في اللغة القرآنية يقصد به النهار، قال تعالي: ﴿ **سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوما**﴾ [1]، وقال تعالي: ﴿ **سيروا فيها ليالي وأياما آمنين**﴾[2]، وقال تعالي: ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرةٍ ويوم حنينٍ**﴾ [3]، أي والنهار الذي كانت فيه واقعة حنين، ومعروف أن القتال في ذلك الوقت كان يدور نهاراً، ولا يدور ليلاً، ويقول القرآن: ﴿ **قالَ موعدكم يوم الزينةِ وأن يحشر الناس ضحى**﴾ [4]، أي يوم الزينة نهاراً وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك اليوم. فاليوم الذي لا يتعلق طبعاً باليوم

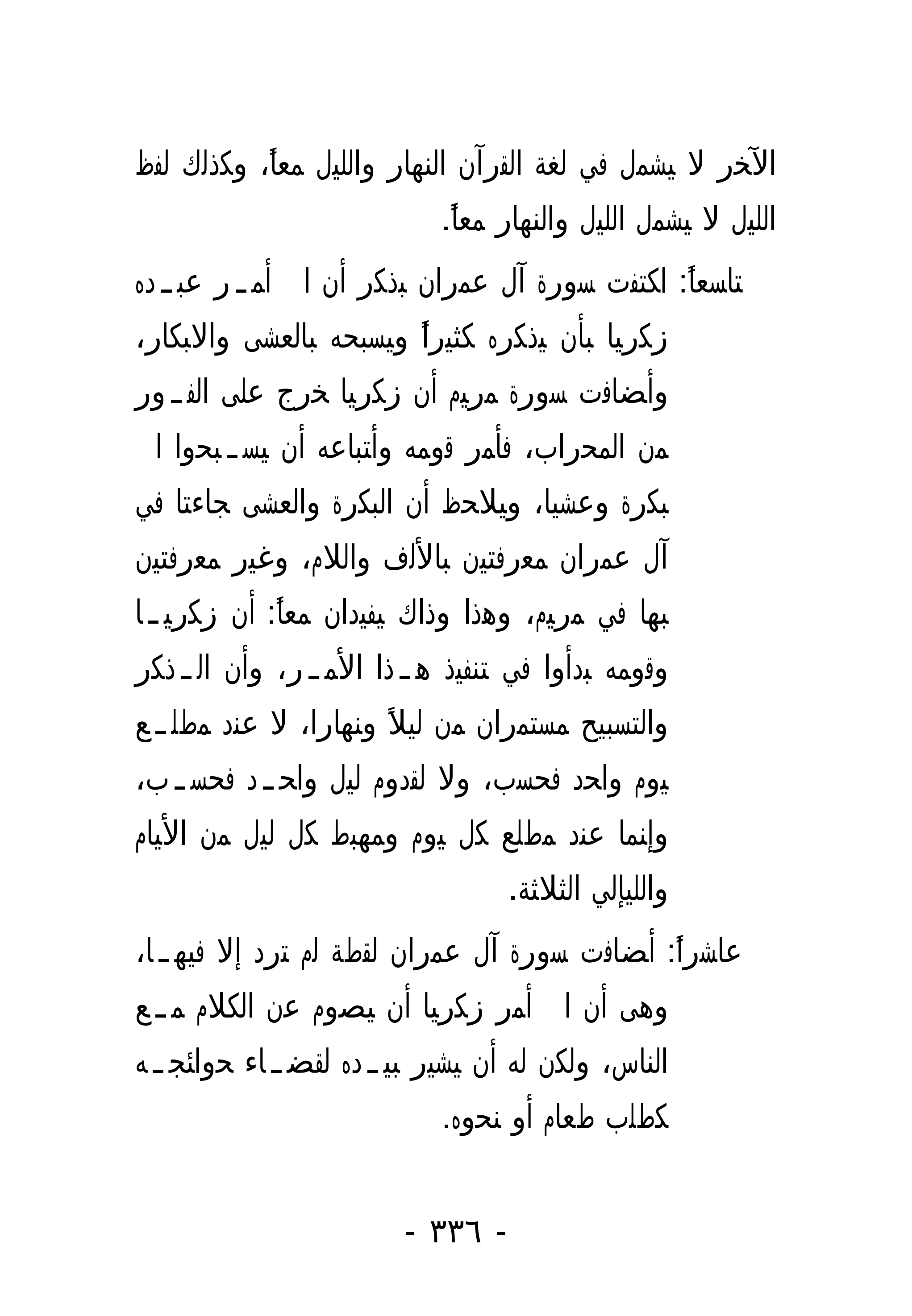
---

(١) سورة الحاقة آية ٧.

(٢) سورة سبأ آية ١٨.

(٣) سورة التوبة آية ٢٥.

(٤) سورة طه آية ة٥٩.



الآخر لا يشمل في لغة القرآن النهار والليل معاً، وكذلك لفظ الليل لا يشمل الليل والنهار معاً.

تاسعاً: اكتفت سورة آل عمران بذكر أن ا أمـر عبـده زكريا بأن يذكره كثيراً ويسبحه بالعشى والابكار، وأضافت سورة مريم أن زكريا خرج على الفـور من المحراب، فأمر قومه وأتباعه أن يسـبحوا ا بكرة وعشيا، ويلاحظ أن البكرة والعشى جاءتا في آل عمران معرفتين بالألف واللام، وغير معرفتين بها في مريم، وهذا وذاك يفيدان معاً: أن زكريـا وقومه بدأوا في تنفيذ هـذا الأمـر، وأن الـذكر والتسبيح مستمران من ليلاً ونهارا، لا عند مطلـع يوم واحد فحسب، ولا لقدوم ليل واحـد فحسـب، وإنما عند مطلع كل يوم ومهبط كل ليل من الأيام والليإلي الثلاثة.

عاشراً: أضافت سورة آل عمران لقطة لم ترد إلا فيهـا، وهى أن ا أمر زكريا أن يصوم عن الكلام مـع الناس، ولكن له أن يشير بيـده لقضـاء حوائجـه كطلب طعام أو نحوه.

حادى عشر: أضافت سورة مريم، لقطة لم ترد إلا فيهـا، وهى أن الغلام الذي بشر ا به زكريا صـاحب اسم جديد لم يتسم أحد بمثل اسمه (يحيى) من قبل، لكنها لم تذكر صفات يحيى التي جاءت في سورة آل عمران، فكان ليحيى صفات سامية مذكورة في مريم، وصفات سامية أخرى تضاف إليها ذكـرت في مريم، واكتفت سورة الأنبياء بذكر اسمه فقـط (وهبنا له يحيى).

ثاني عشر: غنى عن البيان أن نقول للقـارئ: إن صـيغ الدعاء التي توجه بها زكريا إلي ربه مختلفة فـي السور الثلاث، الأمر الذي يفيد أنه دعا بها جميعاً، ففي كل مرة كان يدعو بصيغة من الـثلاث، وإن كان الهدف منها جميعاً واحداً، هـو أن يـنعم ا عليه بالإنجاب، بعد أن وهـن عظمـه، وعقمـت امرأته.

ثالث عشر: أضافت سورة مريم لقطة لم تـرد إلا فيهـا، وهى أن زكريا نادى ربه نداء خاشعاً يحمل ابتهالاً عميقاً خافتاً، بأن عظمه قد وهن، وشعر رأسه قـد

شاب، وأنه كان سعيداً بدعاء ربه لا شقياً، أي كلما دعا ربه استجاب له، وهذا توسل من زكريا لربـه بما سلف معه من الاسـتجابة، وتنبيـه علـى أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعإلي عوده بالإجابة، وأطمعه فيها، ومـن حـق الكريم ألا يخيب من أطمعه.

رابع عشر: صيغة الدعاء ﴿ رب لَا تَذَرنِي فَـردا وَأَنْـتَ خَير الْوارِثِين﴾ (١) تضرع إلي ا بـألا يجعلـه يعيش حياته بدون ذرية وإن لم يذكرها صـراحة، وهو تضرع غاية في الأدب. ويبدو هذا الـدعاء، وكأنه تمهيد لدعاء زكريـا الـذي جـاء فـي آل عمران: ﴿ رب هب ِلي مِن لَدنْك ذُريةً طَيبةً ِإنـك سمِيع الدعاءِ﴾(٢) ويلاحظ هنا إضافة لفظـة لـم تذكر إلا هنا وهى (إنك سميع الدعاء)، ثم كانـت الصيغة الثالثة التي أضافتها سورة مريم، وهى أن زكريا طلب ولدا ذكرا بالذات ﴿ فَهب ِلي مِن لَدنْك

(١) سورة الأنبياء آية ٨٩.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٨.

وَلِيا، يرِثُنِي وِيرِثُ مِن آل يعقُوب واجعلْه رب رضِيا﴾(١)، ويلاحظ هنا إضافة لقطة لم ترد إلا هنا هى الدعاء لهذا الذكر الذي يرثه في النبوة بأن يجعله الله رضياً، فهو يطلب ولدا ذكراً، ويطلب أيضاً أن يكون نبياً ... ففي صيغة الدعاء المذكورة في سورة مريم إذن تحديد منضبط في الدعاء، بخلاف الصيغتين في السورتين الأخريين، إنه فيهما يطلب من الله ذرية طيبة، وهى تحتمل أن تكون الذرية عبارة عن أنثى يهبها الله له، كما تحتمل أن تكون الذرية في صورة ولد يهبه الله إياه، ففي آل عمران: تعميم، وفي مريم تخصيص، وفي الأنبياء تجئ هذه الأمنية غير مصرح بها، ﴿رب لا تَذَرنِي فَردا وَأَنْتَ خَير الْوارِثِين﴾ (٢)، والرائع حقاً: أن صيغة الدعاء التي تضمنت طلباً صريحاً بأن تكون الذرية ذكراً، قد جاءت بعدها الآية الوحيدة في السور الثلاث التي تضمنت لفظ

(١) سورة مريم آية ٥ – ٦.

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٩.

الغلام: (إنا نبشرك بغلام..)، ثم قالت: ﴿ اسمه يحيى لم نجعلْ له مِن قبلُ سمِيا﴾ (١).

خامس عشر: من العبارات التي تبدو في الظاهر أنها مكررة، وليست كذلك في حقيقة الأمر بل هى لقطة هنا، ولقطة هناك: قوله تعإلي في آل عمران ﴿ وقَد بلَغَنِي الْكِبر وامرأَتِي عاقِر﴾ (٢) وقوله في سورة مريم: ﴿ وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا وقَد بلَغْتُ مِن الْكِبرِ عِتِيا﴾ (٣)، فتراه في آل عمران: قدم كبره في السن على عقر امرأته، وتراه في مريم قدم عقر امرأته على كبره في السن، وليس هذا رعاية للفواصل في سورة مريم فحسب، وإنما لوجود فرق في الدلالة بين التعبير هنا والتعبير هناك كما أشرت لذلك من قبل. وأضيف هنا: أنه يعرض قضيته المستحيلة التحقيق بأكثر من وجه (وتقليب الكلام بأكثر من وجه من تصريف البيان في

---

(١) سورة مريم آية ٧.

(٢) سورة مريم آية ٤٠.

(٣) سورة مريم آية ٨.

الإعجاز القرإني)، وكأنه بهذا التنويع في عـرض القضية على ربه يريد أن يقول: إنـه كبيـر فـي السن، والكبير في السن لا ينجب عادة، وأن امرأته نفسها عاقر لا تلد، فلو تزوج هو بزوجة أخـرى بغية الإنجاب فإن كبره في السن يقف حائلاً أيضاً دون الإنجاب، فركز هو على نفسه أولاً باعتبار أن الإنجاب إنما يأتى منه هو سواء تـزوج بزوجـة أخرى، أم بقى مع الأولى وأصلحها له ا .. يقول القرآن: ﴿قَالَ رب إني يكُون لِي غُلَام وقَد بلَغَنِـي الْكِبر وامرأَتِي عاقِر﴾ (١). فأجابه ا بأنه قـدير على صنع ما يشاء من خوارق العادات:"قال كذلك ا يفعل ما يشاء"(٢).

أما في قوله: ﴿ **وكَانَتْ امرأَتِي عاقِرا وقَد بلَغْتُ مِن الْكِبر عِتِيا**﴾ [٣]، فإنه جاء بذكر امرأته العاقر أولاً لإفادة أنـه مـا

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٠.

(٢) الكلام والقول في القرآن الكريم لبهاء الدين القبإني: ص ٥٩ – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ٢٥٠ ربيع الأول ١٤٠٣ ه-ديسمبر ١٩٨٢.

(٣) سورة مريم آية ٨.

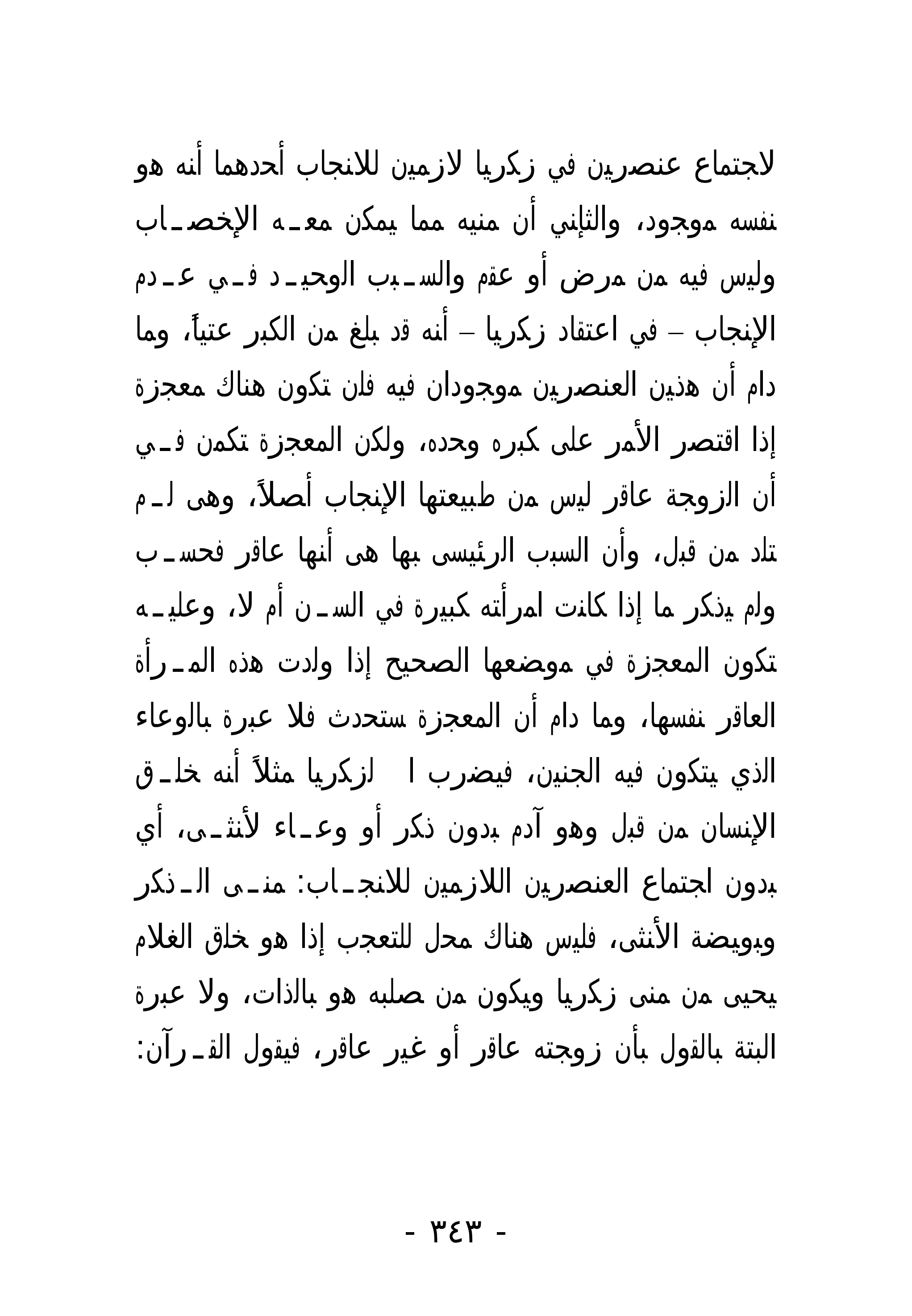
زال منذ تزوج بها معها، وإفادة أنه منذ دخل بها حتـى الآن وهى عاقر لم تلد، وما تزال كذلك حتى هذه اللحظة لحظـة الدعاء.

أي أن الوعاء الذي يتكون فيه الغلام مما لا يصلح معـه تكون جنين فيه، إما لمـرض فيـه، وإمـا لضـمور فـي البويضات، وإما لأن الوعاء نفسه مما لا تسمح جدره بحفـظ جنين، أو لضيق في عنق الرحم، أو أن امرأته كانت سمينة، تحيط كمية من الدهن بالرحم مما يتعذر معه الإنجاب، وأنها ما زالت سمينة لم يخف وزنها بالقدر الذي يسمح بالإنجاب، فبدأ بها باعتبار أن امرأته هى الأهم: ﴿ **قَالَ رب إني يكُـون لِي غُلَام وكَانَتْ امرأَتِي عاقِر وقَد بلَغْتُ مِن الْكِبر عِتِيا**﴾ [1].. ولذلك فقد أجاب ا إلي أن موضوع الكبر الذي عليه زكريا موضوع هين، لأن الكبر في جميع الأحوال ليس مانعاً تماماً من الإنجاب فقال له ﴿ **قَالَ كَذَلِك قَالَ ربك هو علَـي هـين**﴾ [2]... والضمير"**هو**"في هذه الآية ينصرف إلي كلمـة الكبـر السابقة عليها في الآية رقم ٨، فكأنه قال: الكبر على هـين،

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٠.

(٢) سورة مريم آية ٩.



لاجتماع عنصرين في زكريا لازمين للانجاب أحدهما أنه هو نفسه موجود، والثاني أن منيه مما يمكن معـه الإخصـاب وليس فيه من مرض أو عقم والسـبب الوحيـد فـي عـدم الإنجاب – في اعتقاد زكريا – أنه قد بلغ من الكبر عتياً، وما دام أن هذين العنصرين موجودان فيه فلن تكون هناك معجزة إذا اقتصر الأمر على كبره وحده، ولكن المعجزة تكمن فـي أن الزوجة عاقر ليس من طبيعتها الإنجاب أصلاً، وهى لـم تلد من قبل، وأن السبب الرئيسى بها هى أنها عاقر فحسـب ولم يذكر ما إذا كانت امرأته كبيرة في السـن أم لا، وعليـه تكون المعجزة في موضعها الصحيح إذا ولدت هذه المـرأة العاقر نفسها، وما دام أن المعجزة ستحدث فلا عبرة بالوعاء الذي يتكون فيه الجنين، فيضرب ا لزكريا مثلاً أنه خلـق الإنسان من قبل وهو آدم بدون ذكر أو وعـاء لأنثـى، أي بدون اجتماع العنصرين اللازمين للانجـاب: منـى الـذكر وبويضة الأنثى، فليس هناك محل للتعجب إذا هو خلق الغلام يحيى من منى زكريا ويكون من صلبه هو بالذات، ولا عبرة البتة بالقول بأن زوجته عاقر أو غير عاقر، فيقول القـرآن:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبكَ هوَ عَلَي هَين وَقَد خَلَقْتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيئًا﴾ [1].

وأخيراً: فإن سورة مريم قد انفردت عن سورتى الأنبياء وآل عمران بإضافة لقطة إلي القصة، هى الإشارة إلي أن هبة يحيى لزكريا قد صدرت من شمول الله برحمته ﴿كهيعص، ذِكْرُ رَحمَةِ رَبكَ عَبدَه زَكَرِيا﴾ [2]، مما يفيد أن قصة زكريا ويحيى: قصة قوامها الرحمة، والرحمة تظللها، فعرض القصة هنا يتقدمه ذكر الرحمة، وتختم القصة بما زود الله به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى، وبالمؤهلات التي زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه حينما ناداه، حيث آتاه الحكم صبياً، فكان فذاً في زاده الروحى، كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده؛ فالحكمة تأتى متأخرة، ولكن يحيى قد زود بها صبياً، وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه، إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به ... وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس، فيطهرها ويزكيها، وآتاه التقوى،

([1]) وسورة مريم آية ٩.

([2]) سورة مريم آية ١ – ٢.

وجعله براً بوالديه، وليس جباراً عصياً، وسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا التحليل المسهب، وتلك الموازنة الدقيقة بين السور الثلاث **(آل عمران ومريم والأنبياء)** في سردها لقصة ولادة يحيى وتبشير أبيه زكريا به: أنه لا تكرار للقصة إلا في الإطار العام، وإنما هناك تكامل قصصى رائع بين السور الثلاث في عرض القصة.. الأمر الذي يؤكد أن ما يبدو في الظاهر أنه قصص تكرر في القرآن ما هو إلا توزيع للمشاهد والحلقات على السور، ففي كل سورة لقطة، وفي كل سورة إضافة.. فما أروع هذا الإعجاز، وما أبدع تلك التكاملية التي تعد بحق-هى السمة الرئيسة لكل ما جاء في القرآن من قصص وزعت حلقاتها على سوره الكريمة البينات.

وما رأيناه في هذه القصة، نراه أيضاً في بقية القصص القرإني، باستثناء ما جاء منه كاملاً في موضع واحد، كقصة يوسف على سبيل المثال، فقد جاءت مستوفاة في السورة التي سميت باسمه، وفيما عدا ذلك لم تذكر القصة، وإنما جاء اسم يوسف في سرد أسماء الأنبياء، كما في سورة الأنعام:

﴿ووهبنَا له إسحاقَ ويعقُوب كُلا هدينَا ونُوحا هدينَا من قَبلُ ومِن ذُريتِهِ داوود وسليمان وأَيوب ويوسفَ وموسى وهارون وكَذَلِك نَجزِي الْمحسِنين﴾ [1]. كذلك ورد اسمه في سورة غافر **﴿ولقَد جاءكُم يوسفُ مِن قَبلُ بِالْبينَاتِ فَما زِلْتُم فِي شَك مِما جاءكُم بِهِ حتى إِذَا هلَك قُلْتُم لَن يبعثَ الله مِن بعدِهِ رسولًا كَذَلِك يضِل الله من هو مسرِفٌ مرتَاب﴾** [2].

تحدث القرآن الكريم عن نبى الله يونس عليه السلام في أربع سور، وتحدث عن قومه في سورة خامسة، ولا يعد ما ذكر في كل سورة تكراراً لما ذكر في السورة الأخرى؛ وإنما هى حلقات متكاملة ... منها ما جاء مفصلاً، ومنها ما جاء مجملاً، ومجموعها يقدم صورة رائعة بالغة الإعجاز لقصة هذا النبى الكريم.

في سورة الصافات **(وهى أكثر السور تفصيلاً للقصة)** قال الله تعالي: **﴿وإِن يونُس لَمِن الْمرسلِين، إِذْ أَبقَ إِلى الْفُلْكِ الْمشْحون، فَساهم فَكَان مِن الْمدحضِين، فَالْتَقَمه الْحوتُ وهو ملِيم، فَلَولَا أَنه كَان مِن الْمسبحِين، لَلَبِثَ فِي**

---

(1) سورة الأنعام آية ٨٤.

(2) سورة غافر آية ٣٤.

بطنِهِ إلي يومِ يبعثُون،فَنَبذْنَاه بِالْعراءِ وهو سـقِيم، وَأَنْبتْنَـا عليهِ شَجرةً مِن يقْطِـينِ، وأَرسـلْنَاه إلـي مِائَـةِ أَلْـفٍ أَو يزِيدون،فَآمنُوا فَمتعنَاهم إلي حِينٍ﴾ [1].

وفي سورة الأنبياء قال ا تعإلي: ﴿**وذَا النـون إِذْ ذَهـب مغَاضِبا فَظَن أَن لَن نَقْدِر عليهِ فَنَادى فِي الظُلُماتِ أَن لَا إِلَه إِلَا أَنْتَ سبحانَك إِني كُنتُ مِن الظَالِمِين، فَاستَجبنَا لَه ونَجينَاه مِن الْغَم وكَذَلِك نُنْجِي الْمؤْمِنِين﴾** [2].

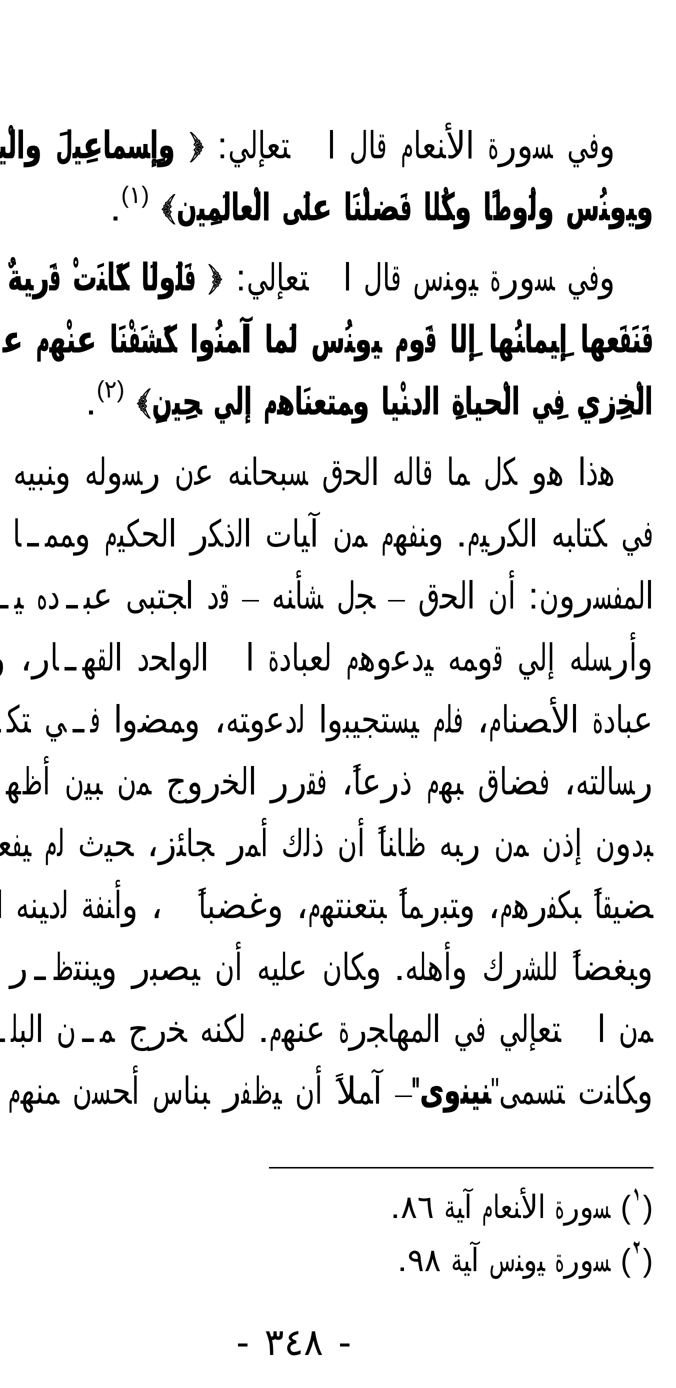
وفي سورة القلم المبدوءة بقوله تعـإلي:﴿**ن والْقَلَـمِ ومـا يسطُرون﴾**[3]. قال ا تعإلي مخاطبـاً رسـوله محمـداﷺ: ﴿**فَاصبِر لِحكْمِ ربك ولَا تَكُن كَصاحِبِ الْحوتِ إِذْ نَادى وهـو مكْظُوم، لَولَا أَن تَداركَه نِعمةٌ مِن ربهِ لَنُبِذَ بِـالْعراءِ وهـو مذْموم، فَاجتَباه ربه فَجعلَه مِن الصالِحِين﴾** [4].

([1]) سورة الصافات الآيات ١٣٩ – ١٤٨.

([2]) سورة الأنبياء الآيات ٨٧ – ٨٨.

([3]) سورة القلم آية ١.

([4]) سورة القلم الآيات ٤٨ – ٥٠.



وفي سورة الأنعام قال ا تعإلي: ﴿ **وإسماعِيلَ والْيسـع ويونُس ولُوطًا وكُلا فَضلْنَا علَى الْعالَمِين**﴾ [1].

وفي سورة يونس قال ا تعإلي: ﴿ **فَلَولَا كَانَتْ قَريةٌ آمنَتْ فَنَفَعها إِيمانُها إِلا قَوم يونُس لَما آمنُوا كَشَفْنَا عنْهم عـذَاب الْخِزيِ فِي الْحياةِ الدنْيا ومتعنَاهم إلي حِينٍ**﴾ [2].

هذا هو كل ما قاله الحق سبحانه عن رسوله ونبيه يونس في كتابه الكريم. ونفهم من آيات الذكر الحكيم وممـا قالـه المفسرون: أن الحق – جل شأنه – قد اجتبى عبـده يـونس وأرسله إلي قومه يدعوهم لعبادة ا الواحد القهـار، ونبـذ عبادة الأصنام، فلم يستجيبوا لدعوته، ومضوا فـي تكـذيب رسالته، فضاق بهم ذرعاً، فقرر الخروج من بين أظهـرهم بدون إذن من ربه ظاناً أن ذلك أمر جائز، حيث لم يفعله إلا ضيقاً بكفرهم، وتبرماً بتعنتهم، وغضباً ، وأنفة لدينه الحق، وبغضاً للشرك وأهله. وكان عليه أن يصبر وينتظـر الإذن من ا تعإلي في المهاجرة عنهم. لكنه خرج مـن البلـدة – وكانت تسمى"**نينوى**"– آملاً أن يظفر بناس أحسن منهم حالاً.

---

(1) سورة الأنعام آية ٨٦.

(2) سورة يونس آية ٩٨.

ولذاك وصفته إحدى الآيات بالإباق وجعلته عبداً هارباً مـن سيده على طريق المجاز. ثم جعلته يمارس هربه في سـفينة مملوءة تلاعبت الأمواج بها من كل جانب، وأشرف راكبوها على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقـى فـي البحر لتخف بهم السفينة، فكان هو المغلوب في المسـاهمة، وابتلاه ا بضيق أشد، حيث كان على موعد – بـأمر ا – مع الحوت – ويسمى في لغة العرب"**النون**"– فالتقمه وطـاف به بحار الدنيا كلها، وصارت بطنه سجناً مظلماً حـبس فيـه يونس، فضلاً عن الظلمة الكائنة تحـت الميـاه والأمـواج، وظلمة الليل كلما غربت الشمس. واستحق يونس عليه السلام أن يلام لتخليه عن المهمة التي أرسله ا بها، وتركه قومـه مغاضباً قبل أن يأذن له ربه بـذلك. لكـن يـونس – وهـو الرسول المجتبى – بات يتضرع إلـي مـولاه مناديـاً فـي الظلمات ﴿ **لا إله إلا أنْتَ سبحانَك إني كُنتُ من الظـالمين**﴾[1]، فكان هذا التوحيد والتسبيح والإقرار بالذنب سبباً لنجاتـه من الهم والغم، وإلا لمكث في بطن الحوت إلي يوم القيامـة. فأمر ا الحوت أن يلفظه من بطنه، فطرحه وألقـاه بمكـان

(1) سورة الأنبياء آية ٨٧.

خال لا شجر فيه، ولا شئ يغطيه، ويونس حينئذ معتل ممـا حل به ... عارٍ ضعيف البدن، فأنعم ا تعإلي عليه بشـجرة **(من يقطين)** تمتاز بسرعة نموها، وتظليـل ورقهـا لكبـره ونعومته ... أنشأها ا – بقدرته – إنشاء أمام عينى يونس، فكانت مظلة له، وقبة من فوقه تحميه من عوامل الطبيعـة، وحرارة الشمس. وأتم ا نعمته على يونس فرده إلي قومـه الذين تركهم مغاضباً، فآمنوا به وبا الواحد الديان، فمـتعهم ا إلي أجل مسمى، وكانوا مائة ألف؛ بل يزيدون. وبـذلك نالوا رحمة ا ورضوانه، وكشف عنهم عذاب الخزى الذي أنذرهم به رسولهم يونس قبل خروجه مـن بـين أظهـرهم ضائقاً بهم، مغاضباً لهم.

تناولت الآيات الخاصة بهذه القصة في سورة الصـافات كل هذه الأحداث، وكان المقصود في هذه السورة – كما يفهم من تدبر النص الحكيم – هو النص علـى أحـداث القصـة وتناميها وتلاحقها من البداية للنهاية. أما ما جاء في سـورة الأنعام فالمقصود منه النص على أن يونس من ذرية إبراهيم عليه السلام، وأنه مع إسماعيل واليسع ولوط مفضلون علـى

العالمين وهذه لقطة من لقطات القصة أو الصـورة الكليـة ليونس اكتفت هذه السورة بذكرها.

وأما ما جاء في سورة يونس فالمقصود منه: التنويه بقرية يونس **(نينوى)** وقومه ... أولئك الذين أعطوا مثـالاً رائعـاً للإيمان ونفعه لمن شرح ا صدورهم، فإزدادوا به قرباً من ا ، وشوقاً إلي عبادته وتوحيده ... لقد آمن أهل هذه القريـة بعد كفر، وصدقوا بعد تكذيب، وأطاعوا بعد عصيان، فنجوا على حين أصاب غيرهم من الأمم الضالة الكافرة: الغرق أو الخسف أو العذاب المهيمن بالظلمة أو الحريق أو الصيحة أو الريح الصرصر العاتية. والمقصود الأسـمى مـن التنويـه بهؤلاء القوم أن يقتدى المشركون من أهل مكة – في الوقت الذي نزلت فيه الآيات – بقوم يونس، فيؤمنـوا برسـول ا محمد ﷺ كما آمن قوم يونس تخوفاً من العذاب المهين.

وأما ما جاء في سورة الأنبياء فالمقصود منه: الثناء على يونس عليه السلام حين تدارك ما حدث منه، وتضرع إلـي ربه بالدعاء والتسبيح **(ويلحظ المتأمل للسياق القرإني الـذي ورد في ثناياه هذا الثناء أنه قد جاء في معرض الثناء على جمله من المرسلين مثل: إبـراهيم، وموسـى، وهـارون،**

ولوط، ونـوح، وداود، وسـليمان، وأيـوب، وإسـماعيل، وإدريس، وذى الكفل، وزكريا، ويحيـى، وعيسـى علـيهم وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات).

على أن ما جاء في سورة الأنبياء عن يونس لا يعد – كما ألمحت آنفاً – تكراراً للأحداث التي قصـتها علينـا سـورة الصافات؛ بل هو ضرب من التكامل القرآنـي فـي عـرض أحداث القصة – والقرآن الكريم يكمل بعضه البعض الآخر – فقد كشفت هذه الحلقة – مثلاً – عن الصيغة التعبيرية التـي دعا بها يونس ربه وهو في بطن الحوت، كما كشـفت عـن السبب الذي من أجله حل بيونس ما حل به، وجاءت الحلقة – أيضاً – بلفظ **(الظلمات)** الذي نفهم منه أن يونس لم يكن فـي ظلمة بطن الحوت فحسب؛ وإنما كان في ظلمات عديدة سبق بيانها، ثم تتضمنت الحلقة لفظة **(الغم)** التي تفيد بـأن المـدة التي قضاها يونس في هذه الظلمات كانت غماً عليه. وكـل هذه الجوانب لم ترد في بقية السور التي عرضـت القصـة وأحداثها.

وأما ما جاء في سورة القلم – أو سورة **(ن)** كما يسـميها البعض – فقد تحدث عن يونس بطريقـة أخـرى.. إذ جـاء

الحديث عنه في صورة خطاب لسيدنا محمد ﷺ مما يؤكد أن المقصود – هنا – هو حث رسول ا محمد ﷺ على التأسى والتصبر والتسلية والدفع إلي أداء الرسالة لهداية البشـرية، والحرص على ألا يكون منه ما كان قديماً من أخيه يـونس من الضجر والمغاضبة، فيبتلى بابتلائه، ويحدث له ما حدث لأخيه في النبوة. وواضح من هذه الحلقة: أنها لم تصرح بما كان من يونس قبلاً؛ وإنما صرحت بما كان منه تداركاً، كما أنها أشارت لنداء يونس دون أن تذكر نص هذا النـداء ولا مكانه. ولا غرو في ذلك؛ فقد صرح بذلك كلـه فـي حلقـة الأنبياء، ومن ثم فقد جاءت الحلقة محققة لأمرين عظيمـين هما:

١- تذكير رسولنا محمد ﷺ بهذه القصة لتكـون لـه زاداً ورصيداً يعينانه على عبئه الثقيل الكبيـر ... عبء هداية البشرية كلها.

٢- ذكر الجوانب التي تكمل الصورة العامة أو الكليـة لقصة يونس عليه السلام. فمن هذه الحلقة نفهم: أن يونس حين (نادى في الظلمـات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظـالمين) قـد نـادى

(وهو مكظوم) أي: وهو مملوء غيظاً (مشتق من كظم السقاء إذا ملأه)، ومن هذه الحلقة نفهـم – كذلك – أن ا وحده هو الذي أنعم عليـه بنعمـة التوفيق للتوبة من ذنب الخروج من بلاده دون أمر من ربه بذلك. فهو الذي ألهمه النداء بتلك العبارة التي أقر فيها على نفسه بظلمه لنفسـه، ووحـد ربه، وسبحه ونزهه عن كـل نقـص ولـولا أن تداركته هذه النعمة من ربه لنبذ بالعراء في حـال كونه مذموماً من ربه على فعلته وعـدم صـبره وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن ا له، لكـن تداركته نعمة ربه فنبذ بالعراء غير مذموم. ثم إننا نفهم من هذه الحلقة: أن ا سبحانه قـد جمـع رسوله يونس إليه، وقربه منـه بالتوبـة عليـه، فجعله من الأنبياء الصالحين. وكل هذه الجوانـب أضافتها هذه الحلقة إلي بقية ما ذكر عن يـونس في السور الأخرى.

وهكذا يتضح من هذا التحليل: أنه ليس هناك في حلقة من حلقات القصة الموزعة على السور القرآنية تكـرار لجسـم القصة كله، وإنما كل حلقة تضيف إلي الأخرى أشياء لم ترد فيها، وتكمل أحداث كل حلقة ما ذكر في الأخرى من أحداث. ومع أن كل حلقة يمكن أن تستقل بنفسها في الكشـف عـن مضمون أحداث القصة، فإن مجموع ما في الحلقات كلها من أحداث يعطى صورة واحدة مكتملة للقصة، نرى من خلالها كل الملامح والمعالم والأبعاد على الرغم من تباعدها الزمنى في تواريخ النزول من السماء على الهادى البشـير ﷺ ثـم يبقى بعد ذلك كله لكل حلقة من حلقات القصة فـي السـورة التي تحتويها وجهها الذي صوره الكتاب الحق الخالد بكل ما في هذا الوجه من مشاهد الجمال والجلال والكمال.

ويسترعى الانتباه حين نتأمـل الحلقـات الخمـس التـي عرضت هذه القصة في كتاب ا الكريم: أن ثلاثاً منها قـد تحدثت عن يونس باسمه الذي كان علمـاً عليـه ... أعنـى **(يـونس)**، واختلف هذا المنهج في سورتى القلم والأنبياء ... حيث عبرت عنه سورة القلم باسم **(صاحب الحوت)**، وعبرت عنه سورة الأنبياء بذى النون.

ومعروف أن حلقات القصة لم تنزل على الرسول ﷺ دفعة واحدة؛ وإنما نزلت منجمة، وكان بين كل حلقة والأخرى مدة فاصلة من الزمن تنزلت خلالها آيات وسور وقصص أخرى. وكان المتحدث عنه في كل حلقة شخصية محورية واحدة هى شخصية هذا النبى الكريم ... يسميه القرآن الكريم تارة **(يونس)**، ويلقبه بصاحب الحوت تارة ثانية، ويكنى عنه بذى النون تارة ثالثة، والرائع حقاً أن هذا التنوع في التعبير يلازمه تنوع في الأحداث والمعاني ينسجم ويتناسق مع الاسم المذكور في الحلقة، ففي كل حلقة تطالعنا شخصية هذا الرسول الكريم بالاسم المنصوص عليه في الآية **(يونس أو صاحب الحوت أو ذو النون)**، ومع هذا الاسم أحداث تتفاعل معه، وتمضى به إلي غايتها في موقفه منها أو موقفها منه، ثم تنتهى الحلقة، ويطوى ما احتوته من أحداث، الأمر الذي يجعلنى أقرر – مطمئناً – أن للقرآن الكريم غايات عليا، وأسراراً سامية تقف وراء هذا النوع في التعبير، ومنها: إبراز الشخصية بوجه جديد، مع حدث يأخذ دوره معه، ويقدم ملمحاً من ملامح الإعجاز الباهر في القرآن الكريم.

ولو كان المفسرون للقرآن الكريم أطلوا على القصة وحلقاتها من هذه النافذة أو الزاوية لما اكتفوا بما قالوه في معنى **(ذى النون)** المنصوص عليه في سورة الأنبياء.

لقد قال أغلبهم من أمثال: الطبرى، وابن كثير[1]، والزمخشرى[2]، والألوسى، والفخر الرازى، والبغوى، والشوكاني، والشنقيطى، وأبى السعود، وابن الجوزى: إن ذا النون معناه: صاحب الحوت، كما صرح ا بذلك في سورة القلم في قوله تعالي: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ [3]، لقب بذلك لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت.

([1]) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣١٧/٣ ط دار إحياء التراث العربى.

([2]) انظر: الكشاف للزمخشرى: ٥٨١/٢ ط دار المعرفة بيروت.

([3]) سورة القلم آية ٤٨.

وأضاف الطبرى والرازى[1]: أن الاسم إذا دار بـين أن يكون لقباً محضاً، وبين أن يكون مقيداً فحمله علـى المقيـد أولى خصوصاً إذا علمت الفائدة التـي يصـلح لهـا ذلـك الوصف.

من هنا: اشتهر تفسير ذى النون بصاحب الحوت، وهـو تفسير صحيح لا يمكن إنكاره، ولا سيما أنـه مـأثور عـن السلف، إذ قاله ابن عباس رضى ا عنهمـا حبـر الأمـة وترجمان القرآن الذي دعا له النبى ﷺ فقال: **(اللهم فقهـه في الدين وعلمه التأويل)**.

لكننى أستدرك فأقول: إن صحة هذا التفسير وروايته عن السلف لا تنفي أن يكون لذى النون معانٍ أخـرى تثبـت أن القرآن الكريم كتاب معجز لا يبلـى جديـده، ولا تنقضـى عجائبه ... وأنه بحر عميق الأغوار، ملئ بالجواهر والدرر.

يشهد بذلك عدة أمور:

الأمر الأول: أن الإمام الشوكإني **(المتـوفي ١٢٥٥ هـ)** ذكر أن يونس عليه السلام سمى بذى النون لسببين: أولهمـا

---

(١) تفسير الفخر الرازى: ٢١٢/٢٢.

أن الحوت قد ابتلعه، ومن أسماء الحوت: النون. وثانيهمـا: أنه رأي صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته؛ لئلا تصيبه العين. وقال الشوكاني – أيضاً:"**حكى ثعلب عن ابن الأعرابـى: أن نونة الصبى هى الثقبة التي تكون في ذقن الصبى الصغير، ومعنى: دسموا: سودوا ....**"[1] **أ. هـ.**

الأمر الثاني: أن الإمام السهيلى قد وازن – فيما نقله عنه البروسى – بين التعبير عن يونس بذى النـون فـي سـورة الأنبياء، والتعبير عنه بصاحب الحوت فـي سـورة القلـم، فقال:"**أضافه – هنا – إلي النون، وقد قال في سورة القلـم: (ولا تكن كصاحب الحوت)، وذلك أنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: (ذو النون)؛ فإن الإضافة بذو أشرف مـن الإضافة بصاحب؛ لأن قولك: ذو يضاف إلي التابع. وصاحب يضاف إلي المتبوع. تقول: أبو هريرة – رضى ا عنـه – صاحب النبى عليه الصلاة والسلام، ولا تقول: النبـى ﷺ صاحب أبى هريرة. وأما (ذو) فإنك تقول: ذو المـال، وذو العرش فتجد الاسم للاسم متبوعاً غير تابع. ولفـظ النـون**

(١) فتح القدير للشوكاني: ٥٩٣/٣ ط دار زمزم.

أشرف من الحوت لوجوده في حروف التهجى، وفي أوائـل بعض السور نحو: ن والقلم وما يسطرون"أ. ه-[1].

ويستفاد من هذه الموازنة التي أجراهـا السـهيلى بـين التعبيرين: أن ذا النون أوسع دلالة من صاحب الحوت، لأن لفظة النون لا تطلق على الحوت فحسب؛ بل تطلق – أيضاً – على حرف من حروف الألف باء ... هو ذلك الحرف التإلي للميم، والذي ينطق هكذا: **(نون)**، ويكتب هكذا **(ن)**، مما يدل على أن لفظة النون في قولـه تعـإلي: **(وذا النـون)** هـى الصورة الصوتية للحرف **(ن)** وهذا هو المعنى المتبادر إلي الذهن حينما يسمع الإنسان هذه اللفظة، فهى – في الأصل – اسم للحرف الأبجدى: **(ن)** ثم أطلقت بعد ذلك على الحـوت، ونحوه مما أطلق عليه **(نون)** كالدواة، وحد السيف، والنقـرة في ذقن الصبى **(طابع الحسن).**

ويستفاد من موازنة السهيلى – أيضاً – أن لفظة **(النـون)** الكائنة في قوله تعإلي عن يونس: **(وذا النون)** قـد حـازت شرفاً عظيماً في القرآن الكريم، حيث كانت النـون أول مـا نزل من الحروف المقطعة في أوائل بعض السـور، وكـان

---

(1) روح البيان للبروسى ٥١٦/٥ ط دار إحياء التراث العربى.

قوله تعإلي: ﴿ **ن والْقَلَمِ وما يسطُرون**﴾ [1] سابقاً في النزول لقوله تعإلي: ﴿ **ص والْقُرآن ذِي الذكْر**﴾ [2]، وقوله تعـإلي: ﴿**ق والْقُرآن الْمجِيدِ**﴾ [3] وما شابه ذلـك. علـى أن الحـق سبحانه قد أقسم به هو والقلم وأوراق الكتابة، ومعـروف أن الحق لم يقسـم فـي كتابـه الكـريم إلا بأشـرف الأشـياء والمخلوقات.

كذلك يستفاد من الموازنة: أن بين التعبير بـذى النـون، والتعبير بصاحب الحوت تفاوتاً كبيراً في حسن الإشارة إلـي الحالين، وتنزيل الكلام في الموضعين، ولذلك يختلف المقـام الذي يستعمل فيه التعبير الأول عن المقام الذي يستخدم فيـه التعبير الثإني ... الأمر الذي نجده متحققاً بالفعل في سورتى الأنبياء والقلم، حيث ذكر **(ذو النون)** في مقام الثنـاء علـى يونس بأنه وحد ربه، وسبحه، واعترف بما كان منه. وذكـر **(صاحب الحوت)** في مقام تذكير سيدنا محمـد ﷺ بالصـبر ونهيه أن يفعل فعل يونس، فيضيق ذرعاً بقريش، ويترك مكة

---

(1) سورة القلم آية ١.

(2) سورة ص آية ١.

(3) سورة ق آية ١.

إلي غيرها من البلاد بدون إذن من ربه، فيكـون مصـيره مصير يونس في بطن الحوت. فلم يكن مناسباً أن يقال فـي سورة الأنبياء: **(وصاحب الحوت ....)**، ولا كان مناسـباً أن يقال في سورة القلم: **(فاصبر لحكـم ربـك ولا تكـن كـذى النون)**.

ولعل مما يؤكد ذلك أربع حقائق مهمة تضاف إلـي مـا تقدم، وتلقى مزيداً من الأضواء على لفظة **(النون)** والمقصود بها في هذه القصة.

الحقيقة الأولى: أن لفظ النون لا يوجد فحسب في حروف التهجى كما قال السهيلى؛ بل يوجد هذا اللفظ – كحرف – في لفظة **(يونس)** ذاتها ... فهو اسم مكون – كما تـرى – مـن أربعة حروف هى: الياء والواو والنون والسين. ناهيك عـن وجوده في القرية التي أرسل إليها: **(نينوى)**، وفـي السـفينة التي مارس إباقه وهربه فيها، وفي شـجرة اليقطـين التـي استظل بها، وفي القرية التي دفن بها **(جلجون)**، وفي الاسـم العبرإني الذي تطلقه التوراة عليه: **(يونان بن متـى)**، فهـو رسول ذو نون تتراءى كثيراً في جوانب حياته.

الحقيقة الثانية: أن أغلب الفواصل التي بنيت عليها آيـات هذه القصة قد بنيت على حرف النون.. ترى ذلك فـي كـل حلقة من حلقاتها الموزعة على السور، ليتم التناسب والتناسق بين هذه الفواصل واللقب الذي أطلقته عليه سورة الأنبيـاء.. وارجع إلي آيات القصة التي أوردناها في صدر هذا المبحث تجد ذلك واضحاً جلياً.

الحقيقة الثالثة: أن سورة القلم التي لقبت يونس بصـاحب الحوت، ولم تلقبه – كسورة الأنبياء – بذى النون قد افتتحت بالحرف **(ن)**، وهو حرف يقرأ هكـذا: **(نـون)**، علـى أن السورة تتكون من اثنتين وخمسين آية.. منها خمسـون آيـة تشتمل على كلمات نونية ... وأعنى بالكلمات النونية: كـل لفظ يشتمل على حرف النـون فـي هـذه السـورة مثـل: **(يسطرون – نعمة – مجنون – يـدهنون – لا يسـتثنون – الجنة – تنادوا – تسبحون – نائمون – يتخافتون – ضالون – محرومون – يتلاومون – تخيرون – سالمون – مثقلـون ... وهلم جرا)** فالسورة يشيع فيها حرف النون شيوعاً بالغاً، حتى إنه قد ذكر فيها مائة وخمسين مرة فضلاً عـن افتتـاح السورة به، ولذلك سماها بعض المفسـرين – كالزمخشـرى

وابن كثير – سورة **(ن)**. فلو كان التعبير عـن رسـول ا يونس – عليه السلام – بذى النـون يتسـاوى فـي الدلالـة والمعنى من سائر الوجوه مع التعبير عنه بصاحب الحـوت، لكانت سورة القلم أو **(ن)** أولى بالتعبير عن يونس بذى النون بدلاً من التعبير عنه بصاحب الحوت، ما دامت السورة تتعدد فيها هذه النونات الكثيرة؛ لكن المقام في السورة اقتضـى أن يقال عن يونس **(صاحب الحوت)**، كما اقتضى المقـام فـي سورة الأنبياء أن يقال عنه **(ذو النون)** علـى النحـو الـذي سأوضحه بعد قليل.

الحقيقة الرابعة: أن القرآن الكريم قد نـزل – كمـا هـو معروف – بلسان عربى مبين، وخاطب العرب بما يفهمـون من دلالات الألفاظ، ومعإني التراكيب، وإيحاءات الكلمـات، فلا مناص من تفسير ألفاظه على ضوء ما جـاء فـي لغـة العرب ومعاجم هذه اللغة. ونحن إذ نرجع للمعاجم العربية – كالقاموس المحيط للفيروزبادى، وتـاج العـروس للزبيـدى ولسان العرب لابن منظور – نجد ما يلى:-

- يقول الفيروزبادى: النون: من حروف الزيـادة ... والدواة، والحوت – جمعه: نينان، وأنوان – وشفرة

السيف. وذو النون: لقب يونس – عليه السلام – واسم سيف لهم لكونه على مثال سمكة ص ١٥٩٦.

- ويقول الزبيدى: والنون: الدواة، وبه فسر قوله عز وجل: **(ن. والقلم)** عن الحسن وقتادة. وقيل: الحوت، وبه فسر ابن عباس رضى ا عنهما قول ا تعإلي عن يونس: **(وذا النون..)**، ونينان بالكسر جمع النون الذي بمعنى الحوت، .... والنون: شفرة السيف ... وذو النون: اسم سيف لهم. وفي الصحاح: النون: سيف لبعض العرب.. قال الشاعر:

سأجعله مكان النونى منى [١]

- **ويقول ابن منظور: والنون: الحوت. وفي حديث موسى والخضر: خذ نوناً ميتاً، أي: حوتاً. والنون – أيضاً – الحرف الأبجدي المعروف (ن) سموا به: الحوت العظيم، والدواة، وشفرة السيف. والنون: تذكر وتؤنث، فمن ذكرها: نون والديوشع فتى موسى – عليه السلام – ومن**

---

(١) ينظر: تاج العروس ج-٩ ص ٣٥٧.

مؤنثها: نونة بنت أمية بن عبد شمس عمة أبـى سفيان بن حرب. وكذلك الكلمة من الصواب تسمى (نونة) بالتاء [1].

ويستفاد مما قالته المصادر اللغوية السابقة أمران مهمان:

الأول: أن **(النون)** المضاف إلي **(ذا)** في قولـه تعـإلي: **(وذا النون)** أعم من أن يكون صـاحب الحـوت؛ لأنه يطلق تسمية على مسميات عديدة: الحـوت – النقرة في ذقن الصبى الصغير – شفرة السـيف – الدواة – الكلمة الصائبة السديدة الرشيدة.

الأمر الثإني: أن ابن منظور قد أشار إلي معنى مهم مـن معإني النونة في لغة العرب، وهـى أنهـا تعنـى الكلمة الصائبة.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن منظور للنونة في لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم يمكن – على ضوئه – فهـم مـا جاء عن يونس في سورة الأنبياء، وتلقيبه بذى النون في هذه السورة؛ بل يمكن – على ضوئه – معرفـة السـر اللغـوى

---

(١) لسان العرب ص ٤٣٠ ط دار صادر. وينظر أيضاً"مختارات أحمد تيمور: ص ٢٣٦، وتاج العروس: فصل النون من باب النون.

الدقيق الذي من أجله انفردت سورة الأنبياء بهذا اللقب، بينما انفردت سورة **(ن)** بصاحب الحوت.

بيان ذلك: أن النونة – بمعنى الكلمـة الصـائبة السـديدة الرشيدة – تجمع على **(نونات)**، كما يقال: تمـرة وتمـرات، ودودة ودودات، وخوخة وخوخات، وسوسة وسوسات، وبقرة وبقرات. فإذا ما أريد النص على اسم الجنس من ذلك ونحوه قيل: تمر، دود، خوخ، سوس، بقر.

فاسم الجنس الذي يفرق بينه وبين واحده بالتـاء للفظـة **(نونة)** بمعنى الكلمة الصائبة هو **(النون)** بمعنى: الكلام من الصواب، أو الصواب من الكلام، والنسبة إليها: نونى.

فقوله تعالي-إذن – عن يونس عليه السلام فـي سـورة الأنبياء: ﴿ **وذَا النون إِذْ ذَهب مغَاضِبا فَظَن أَن لن نَقْدِر علَيهِ فَنَادى فِي الظلُماتِ أَن لا إِله إِلا أَنْتَ سبحانَك إِني كُنتُ مِـن الظالِمِين**﴾ [1]. يمكن تفسيره بأن **(ذا النـون)** لـيس معنـاه: صاحب الحوت فحسب بل معناه – أيضاً – الرسول صاحب الكلام الصائب والقول الحسن المنصوص عليه في الآيـة.. أعنى تضرعه إلي ربه بقوله: ﴿ **لا إِله إِلا أَنْتَ سبحانَك إِني**

---

(1) سورة الأنبياء آية ٨٧.

كُنتُ مِن الظالِمِين﴾، فوصف ربه عز وجـل – كمـا يقـول الفخر الرازى في تفسيره:"**بكمال الربوبية، ووصف نفسـه بضعف البشرية، والقصور في أداء حق الربوبية".**[1]

ولا شك أن هذا الوصف كلام موفـق صـائب ألهـم ا رسوله يونس أن ينطق به في الظلمات الشديدة المتكاثفة فـي بطن الحوت المسمى – أيضـاً – بـالنون. وبهـذا الكـلام الصائب، وبما يحتويه من كلمـة التوحيـد وتسـبيح الـرب والاعتراف بما كان منه تدارك سيدنا يونس عليـه السـلام خروجه من قريته مغاضباً بدون إذن من ربه ... ففي البـدء كان منه سلوك يتنافي مع الصبر الذي أمر به المرسـلون.. وفي النهاية كان منه قول حسن، وكـلام صـائب، ودعـاء موفق. ومما يقوى صحة هذا التفسير: أن القرآن الكريم لـم يذكر هذا الدعاء إلا في السياق الذي لقب فيه يـونس بـذى النون، ولم يذكره بنصه في السياق الذي لقب فيه بصـاحب الحوت؛ بل أشار إليه هكذا: **(فاصبر لحكـم ربـك ولا تكـن كصاحب الحوت)** دون أن يحدد صيغة ما نـادى بـه عليـه السلام مكتفياً بقوله تعإلي: **(إذ نادى وهو مكظوم).**

([1]) تفسير الفخر الرازى: ٢١٢/٢٢.

وعلى ضوء هذا التفسير الجديد الذي نطرحه لأول مـرة على صفحات هذا البحث لذى النون ندرك الحكمة الإلهية من انفراد سورة الأنبياء به دون سورة القلم، حيـث جـاء فـي معرض المن بما أنعم ا على عبده يونس من إلهامه التسبيح والقول الصائب، وحيث يوحى التعبير بذى النون عن يونس بأن ربه يمتدحه في هذا المقام ويثنى عليه كما امتدح وأثنـى على غيره من المرسلين المذكورين في هذه السورة، ولم يكن المقصد مجرد الإشارة إلي التقام الحوت إياه. على أن ذلـك يوحى – أيضاً – لمتلقى القصة وقارئ الآية بأن الشرف إنما هو في اتجاه هذا الرسول الكريم إلي الكلمة الصائبة المتمثلة في دعائه وتضرعه إلي ربه، لا في التقام الحوت إيـاه، ثـم تكون للحوت التبعية التي قدرت له، والمذكورة صراحة فـي سورة القلم، والتي يدل عليها أيضاً لفظ النون مـا دام هـذا اللفظ يطلق في لغة العرب على الحوت. وما كنا لندرك هذه الحكمة لولا أن نظرنا مرة إلي لفظ **(النون)** على أنـه اسـم جنس للكلام الصائب، ونظرنا إليه مرة أخرى على أنه اسـم من أسماء الحوت.

أما في سورة القلم، فقد اختلف الأمر، وتغايرت الحكمـة، إذ المقصود من ذكر صاحب الحوت في هذه السورة: أمـر سيدنا محمد ﷺ بالصبر على أذى المشركين، ونهيه عـن التسرع أو التعجل الذي كان من أخيه يونس يوم ضاق ذرعاً بقومه، وأبق في الفلك المشحون، فقارع فكان من المغلوبين، فألقاه ركاب السفينة أو ألقى هو بنفسه في البحـر، فالتقمـه الحوت وهو مليم. ومن ثم كان لابد من الإتيـان فـي هـذه السورة بلفظ **(الحوت)** بدلاً من لفظ **(النون)** تذكيراً لرسـول ا ﷺ بما كان من أمر صاحب الحوت، ومـا بـدر منـه، وإعلاناً عما آل إليه، وما أمسى فيه.

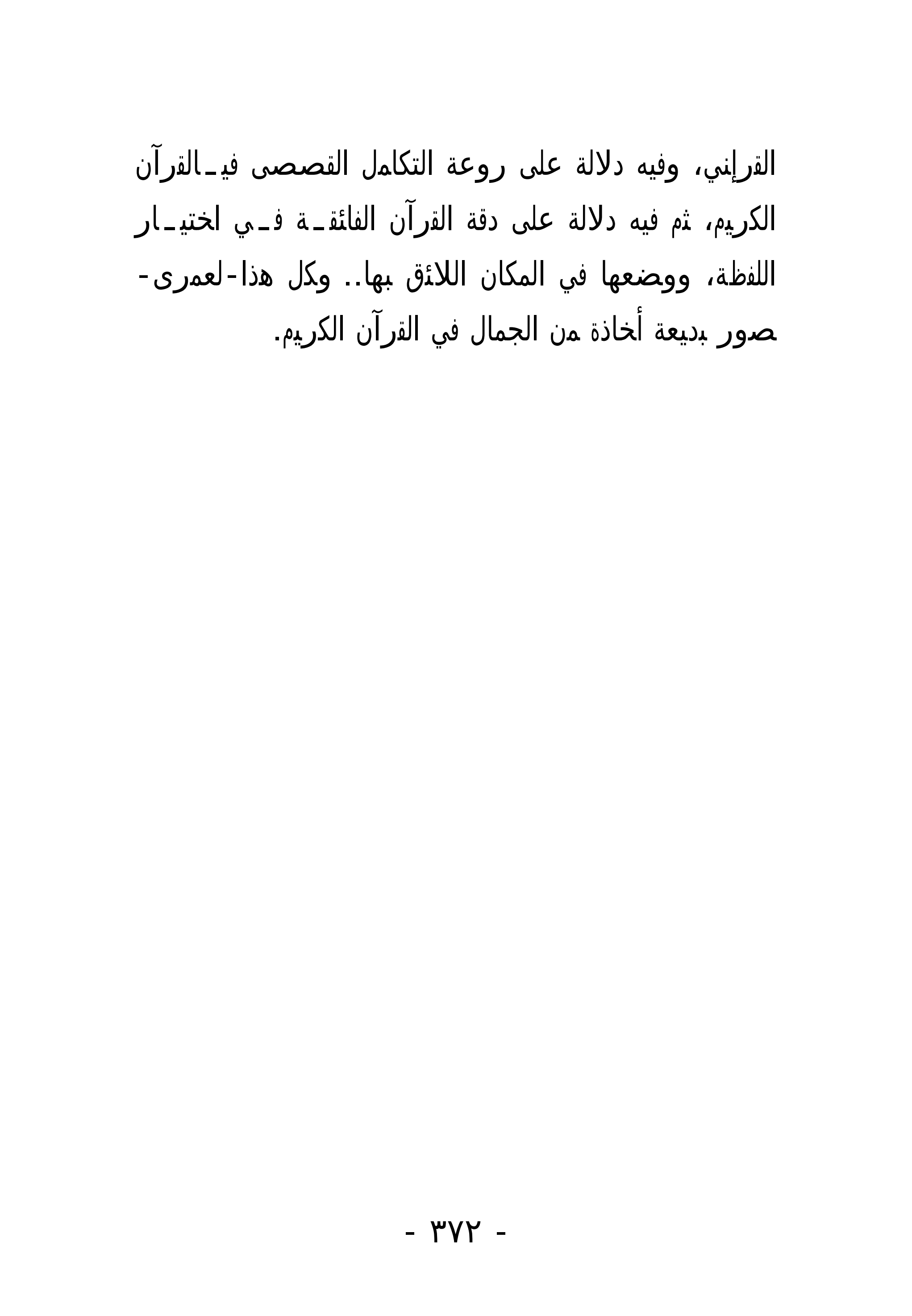
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن القرآن الكريم لـو كان قد قال في سورة **(ن)**: **(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كذى النون)** لانصرفت أذهان المخاطبين بـالقرآن الكـريم مـن العرب إلي أن المراد بالحرف **(ن)** في مطلع هذه السورة هو ذلك الحوت الذي التقم يونس عليه السلام.. يقسم ا به هـو والقلم وما يسطرون، وبذلك تكون **(ن)** في مطلع السورة ليس مراداً بها الحرف المعجمى **(ن)**؛ بل المراد بهـا: الحـوت، وبالتالي يكون بدء السورة ب-**(ن)** – على معنى الحـوت –

مخالفاً لقواعد اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكـريم؛ إذ قال الإمام الزمخشرى في هذا الصدد ما يلى:

"قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام ... والمراد هذا الحرف من حروف المعجم. وأما قولهم: هو الدواة. فما أدرى أهـو وضع لغوى أم شرعى؟! ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة مـن أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنسـاً فـأين الإعـراب والتنوين؟! وإن كان علماً فأين الإعراب؟! وأيهما كان فلابد له من موقع في تأليف الكلام. فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجره وتنونه، ويكون القسم بدواة منكـرة مجهولة، كأنه قيل: ودواة والقلم. وإن كان علماً وجـب أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحـه للعلميـة والتأنيـث. وكذلك التفسير بالحوت إما أن يراد نون مـن النينـان، أو يجعل علماً للبهموت الذي يزعمون"[1].

وحسبنا هذا القدر من التأملات البيانية واللغوية في قصـة سيدنا يونس – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – ففي هـذا القدر دلالة بينة على ما في هذه القصة من روائع الإعجـاز

([1]) الكشاف ج-٤ ص ١٤٠، ١٤١ ط دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت.



القرإني، وفيه دلالة على روعة التكامل القصصى فيـالقرآن الكريم، ثم فيه دلالة على دقة القرآن الفائقـة فـي اختيـار اللفظة، ووضعها في المكان اللائق بها.. وكل هذا-لعمرى- صور بديعة أخاذة من الجمال في القرآن الكريم.